مجموعة الروائع الإنسانية

2020
3.1.2020

رينه ديكارت

مقالة الطريقة

لحسن قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم

1637

ترجمه إلى العربية وقدّم له وعلّق عليه
جميل صليبا

اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع
بيروت



المكتبة الشرقية

مجموعة الروائع الإنسانية

رينه ديكارت

مقالة الطريقة

لحسن قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم

1637

ترجمه إلى العربية وقدم له وعلق عليه
جميل صليبا




مقالة الطريقة
لحسن قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم



دیکارت

اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع
بيروت

المكتبة الشرقية ش.م.ل
الجسر الواطي - سن الفيل
ص.ب.: 55206 - بيروت، لبنان
تلفون: 485793 (01)
فاكس: 485796 (01)
E-mail: libor@cyberia.net.lb
www.librairieorientale.com.lb

الطبعة الثالثة 2016
ISBN: 978-9953-17-087-9

قرأ هذه الترجمة وفقًا لنظام اللّجنة

أنيس فريحه

فؤاد افرام البستاني

فهرس

مقدمة المترجم 7

1 – حياة ديكارت وآثاره 9

2 – فلسفة ديكارت 18

أ– الخطوط العامة لفلسفة ديكارت 18

ب– طريقة ديكارت 19

3 – مراحل فلسفة ديكارت 34

المرحلة الأولى: من الشك إلى اليقين 35

المرحلة الثانية: من النفس إلى الله 40

المرحلة الثالثة: من الله إلى العالم 48

4 – فلسفة الأخلاق 55

5 – قيمة فلسفة ديكارت وآثارها 60

6 – المصادر 64

مقالة الطريقة 65

مقدمة المؤلف 66

القسم الأول: ملاحظات متعلّقة بالعلوم 68

القسم الثاني: قواعد الطريقة 88

القسم الثالث: قواعد الأخلاق 114

القسم الرابع: أسس علم ما بعد الطبيعة 134

القسم الخامس: ترتيب مسائل الطبيعيّات 156

القسم السادس: الأسباب التي حملته على الكتابة 194

مقَدّمَة المترجِم

ديكارت

1650-1596

1- حياة ديكارت وآثاره

وُلد رينه ديكارت في 31 آذار عام 1596 في لاهاي من أعمال ولاية تورين. وكان أبوه مستشارًا في برلمان بريتانيا. أما أمه فكانت بنت الحاكم العام في پواتيه. دخل مدرسة لافلش (La Flèche) اليسوعية، وبقي فيها ثماني سنوات، حتى السادسة عشرة من سنة (1606-1614). فأخذ من العلوم التي تدرس في سنواتها الثلاث الأخيرة بنصيب وافر. قرأ من كتب آرسطو، في السنة الأولى المنطق، وفي السنة الثانية الطبيعيّات، وفي السنة الثالثة والأخيرة كتاب ما بعد الطبيعة، وكتاب النفس، ودرس بالإضافة إلى ذلك كتاب (كلاڤيوس) في الرياضيّات والجبر، وخرج من هذه المدرسة وهو كثير الشكوك في علوم زمانه، لا يثق إلاّ بالرياضيات. ثم انتقل إلى باريس في عام 1613، واختلط بكثير من الكبراء، ثم قدّم امتحاناته في الحقوق عام 1616 بمدينة پواتيه. وكان أبوه يريد أن ينشّئه على ما ينشأ عليه نبلاء ذلك الزمان من لبس السلاح والخدمة في الجيش. فرحل إلى هولاندة عام 1618 وتطوّع في جيش الأمير موريس دوناسو الذي كان يحارب الاسبانيين. وهناك عقدت بينه وبين العالم الهولاندي الشاب اسحق بيكمان أواصر المودّة، فكان يذاكره دائمًا في المسائل الرياضية والفيزيائية. وفي عام 1619 رحل إلى المانيا، وحضر عند مروره بمدينة فرانكفورت تتويج الامبراطور (فرديناند) الثاني، ثم تطوّع في جيش الأمير ماكسيميليان دوباڤيير، وشاهد خلال خدمته في الجيش من أهواء الناس ما حبّب إليه العزلة، والبعدَ عن الضجيج والحركة، ورأى كيف تصنع الآلات الحربية، وكيف تُستخدم لهدم الحصون، فانصرف إلى دراسة القوى المحرّكة وقوانين الميكانيك،

وما زال هذا «الجندي الفيلسوف» ينظر فيما يحيط به من الأشياء نظر المتعلم الناقد، حتى انكشفت له ذات ليلة (10 تشرين الأول 1619) خلال خلوته في غرفته بقرية من القرى الألمانية القريبة من مدينة أولم، أسسُ علم عجيب، وهذه الأسس التي سنتحدّث عنها هي الطريقة التي اعتمد عليها في توحيد العلوم. وكان للمسالك التي سلكها أثر عميق في نفسه، حتى مال إلى قطع علاقته بالدنيا، وأقبل بكنه الهمة على التصوّف، فانتسب إلى جمعية وردة الصليب (Rose-Croix)، وكان غرض هذه الجمعيّة طبّ الناس بالمجان، فلم يزل يتردّد بين تجاذب الحياة العملية، ودواعي العلم والنظر، حتى رأى في نومه ذات ليلة أنه يقرأ أشعار أوزون (Ausone) باللغة اللاتينية: *Quod vitae sectabor iter* (أي سبيل من سبل الحياة نتبع). فلما استيقظ من نومه عاد إلى نفسه، وعزم على شق طريق جديدة في الحياة. وهذه الطريق هي الفلسفة.

وتابع ديكارت رحلاته بين عام 1619 و1628، فرحل أولًا إلى ايطاليا عام 1623 لزيارة كنيسة لوريت (Notre-Dame de Lorette) التي نذر على نفسه زيارتها، خلال رؤياه التي قدمنا ذكرها. ثم رحل إلى باريس عام 1626، وعني فيها بدراسة الرياضيات، وانكسار الضوء. وكتب كتابه المشهور *Regulae ad directionem ingenii* «القواعد لهداية الفكر»، الذي لم ينشر إلاّ عام 1701. وفي باريس اتصل ديكارت بالكردينال ريشيليو، وبالكردينال دوبرول (De Bérulle) مؤسس الأوراتوار (Oratoire)، الذي شجعه على متابعة بحوثه الفلسفية للدفاع عن الدين، والرد على الملحدين. وكان لإقامته في باريس أثر عميق في نفسه، فرأى أشياء كثيرة، وتخيّل خططًا كثيرة، إلاّ أنه عقد النية في النهاية على قطع علاقته بالناس، والرحيل ثانية إلى هولاندة. حكى لنا بايه[1] (Baillet) أن صاحبنا الجندي الفيلسوف، لما

1 Adrien Baillet, *La vie de M. Descartes*, Paris, 1691.

عاد مع الكردينال ريشيليو من حصار لاروشل سمع محاضرة فلسفية، عند السفير البابوي دي بانيه (de Bagné)، فتصدى للرد على صاحبها، وقطع جميع الحاضرين بأدلّته الفلسفية، وحججه المنطقية، وبراهينه العقلية. فلما سمع الكردينال دوبرول منه ذلك أخذ عليه عهدًا أن يقف نفسه للفلسفة، وكان ديكارت إلى ذلك العهد، كغيره من النبلاء، يحتقر الذين يضيعون عمرهم في كتابة الكتب، فأثر قول دوبرول فيه، وحمله على الرحيل إلى هولاندة، ليخلو فيها بنفسه، ويشتغل بالرياضة والتأمل. وأقام في هولاندة إحدى وعشرين سنة بين عام 1628 وعام 1649، قام خلالها برحلات قصيرة إلى فرنسة، وانكلترا، والدانمارك، وسواحل المانيا، وعاد إلى فرنسة مرة في عام 1644 ومرة في عام 1647، ومرة أخيرة في عام 1648، فاجتمع خلال زيارته الثانية بپاسكال، وأشار عليه ما يقول ببحث مسألة الفراغ. أما رحلته الثالثة، فقد شاهد خلالها يوم المتاريس ويوم المِخْذَفة البرلمانية، وأثر في نفسه ما رآه من الاضطراب في باريس، حتى قال أن هواء باريس يزعجه ويوحي إليه بالأوهام. قال رأيت في باريس أشخاصًا كثيرين يخطئون في آرائهم وحساباتهم، حتى ظننت ذلك مرضًا عامًّا في أهلها. وكان بالرغم من إقامته الدائمة في هولاندة يصعب عليه أن يقيم في البلد الواحد أكثر من سنة واحدة، وكثيرًا ما كان يختار الإقامة في مدينة كبيرة لا يعرفه فيها أحد، فيتمتع بالعزلة وهو بين الناس، أو يختار لنفسه منزلًا فخمًا في ظاهر إحدى المدن يجهزه بجميع وسائل الراحة، متخفيًا عن جميع معارفه وأصدقائه، ولم يكن بين أصدقائه مَن يعرف عنوانه إلاّ صديقه الحميم الأب مرسن، الذي كان زميله في مدرسة لافلش، فكان أصحابه، إذا أرادوا الاتصال به، يكتبون إليه بطريق مرسن هذا.

لقد كان ديكارت معتدل القامة، كبير الرأس، عريض الجبهة بارزها، أسود الشعر، فلما بلغ الثالثة والأربعين من سنّه، وضع على رأسه شعرًا

مستعارًا من لون شعره الأصلي، لا للزينة، بل لحفظ صحته، ووقاية رأسه من البرد. وكان له عينان منفرجتان، وأنف طويل، وفم عريض، تحته شفة بارزة، ووجه بيضاوي ذو لون زيتوني شاحب، فيه خال صغير يغيب ويظهر، وتبدو عليه ملامح التأمل والجفاء. وكان صوته ضعيفًا خافتًا، لمرض في رئتيه. وقد ورث عن والدته سعالًا حادًّا، لازمه كل أيام حداثته. فلما بلغ التاسعة عشرة من سنّه عزم على العناية بصحته دون استشارة الأطباء، فوضع لحياته نظامًا معتدلًا مرَّن نفسه فيه على الحركات الرياضية. وكان يعنى بملابسه في غير تكلّف، ولا تبهرج، يحب من الألوان اللون الأسود، ويلبس في سفره قلنسوة رمادية سمراء. ترك له والده وخاله ثروة بلغت ستة آلاف أو سبعة آلاف ليرة، ومنحته الحكومة الفرنسية في السنوات العشر الأخيرة من حياته مبلغًا قدره ثلاثة آلاف ليرة. ولم يكن بخيلًا ولا مسرفًا، ولكنه كان، على كل حال، يحسن الدفاع عن مصالحه. ومن عجيب أمره أن الحزن والخوف كانا يزيدان في شهوته للطعام. ولكنه اقتصر في أيامه الأخيرة على الأطعمة الخفيفة، لا يشرب إلاّ القليل من الخمر، ولا يأكل إلاّ القليل من اللحم، ويكثر من أكل الفاكهة، وجذور النبات، وكان يعتقد أن الإنسان، إذا اعتدل في طعامه على نحو ما فعل، استطاع أن يعيش أربعة أجيال. ومن عادته أيضًا أنه كان ينام عشر ساعات، أو اثنتي عشرة ساعة كل ليلة، فإذا استيقظ من نومه في الصباح، بقي في فراشه يقرأ، ويكتب، ثم يتناول طعام الغداء في الساعة الثانية عشرة، ثم يروّح بعد ذلك عن نفسه بالتحدث إلى بعض الناس، أو بالعمل في الحديقة، أو بركوب الخيل، ولا يعود إلى عمله إلاّ في الساعة الرابعة بعد الظهر، دائبًا فيه حتى ساعة النوم.

كان كثير اللطف مع خدمه ومستخدميه، يعامل كتّابه وأمناء سرّه معاملة الأنداد، حتى لقد اختص مرضعته بمعاش دائم أجراه عليها حتى موته. ولم يكن له علاقات اجتماعية كثيرة، ولم يخالط إلاّ كبارَ القوم.

وربما كان أحسن دليل على حسن اختياره لأصدقائه ودّه للأميرة اليصابات، التي وجد فيها مثال المرأة الصالحة. وهو يقول فيها أنها جمعت إلى شدّة اللطف قوّة الذكاء، وسعة الإحاطة بالعلوم، حتى لقد أهدى إليها كتابه «مبادئ الفلسفة»، ولم يعدَّها صديقته المخلصة فحسبُ، بل عدّها تلميذته الأمينة الصادقة.

وفي هذا الجوّ من العزلة، والصفاء، والهدوء، والتجرّد، والترفّع عن الأهواء والشهوات، كتب ديكارت أمهات كتبه، فبدأ بين عام 1628 وعام 1629 بتأليف كتاب مختصر في علم ما بعد الطبيعة، للبرهان على وجود الله والنفس، توطئةً لمباحثه في الطبيعيات، ولكنه أجّل النظر فيه بعد ذلك، واشتغل في الطبيعيات، فكتب «كتاب العالم» (Le monde ou le traité de la lumière)، وساقه بحثه في انعكاس الشمس على الغيوم المؤلّفة من بلورات الجليد إلى إيضاح جميع ظواهر الطبيعة، من تكوّن السيّارات، إلى ثقل الأجسام، وظواهر الحياة. وبينما كان منصرفًا إلى البحث في هذه الامور، إذا بنبأٍ يأتيه من ايطاليا، ويغيّر وجهة نظره. وهذا النبأ هو حكم هيئة التفتيش على غاليله بالمروق من الدين، لقوله بدوران الأرض، على مذهب كوبرنيكس. قال ديكارت في كتاب بعث به إلى صديقه مرسن: «لقد حيّرني هذا الحكم كثيرًا، حتى عزمت على إحراق أوراقي، أو إخفائها عن الناس. إني أعترف لك الآن، وأقول: إذا كانت حركة الأرض باطلةً، فإن أُسس فلسفتي باطلة كلها، لأن هذه الأسس تبرهن على حركة الأرض برهانًا ليس فيه مجال للالتباس، وهي - أي حركة الأرض - مرتبطة بجميع مباحث كتابي، فلو فصلت عنها، لاختلّ الباقي، اختلالًا شنيعًا». وهكذا ظلّ «كتاب العالم» محفوظًا في أوراق ديكارت، ومكتومًا عن الناس، ولم ينشر إلاّ بعد وفاته بأربع عشرة سنة أي في عام 1664.

ولا شك أن ديكارت كان يعلم، قبل الحكم على غاليله، أن مذهب

كوبرنيكس مخالف لتعليم الكنيسة، فقد أعلنت الكنيسة ذلك منذ عام 1616، وانتشر هذا الخبر في جميع أنحاء أوروبـة. فمن العجيب إذن أن يدّعي ديكارت الخضوع للكنيسة، ويعنى مع ذلك بتقرير أمور مضادة لتعليمها، وأعجب من هذا له أن يتحيَّر من حكم الكنيسة على غاليله. فهل زلزل بحثه العلمي عقائدَه الإيمانيَّة، أم شكّ بعد هذا الحكم في مذهب كوبرنيكس، أم خاف عاقبة الخروج على الكنيسة؟ لا لعمري، لقد ظلَّ ديكارت كل أيام حياته مؤمنًا بالدين، وبمذهب كوبرنيكس معًا. وما منعه من نشر كتابه خوفه على نفسه، لأنه كان مقيمًا في هولاندة، فلا فرنسة تعترف بقرارات المحاكم الرومانية، ولا هولاندة البروتستانية تؤاخذه على مخالفتها. فهو لم يخشَ إذن شيئًا من هذا، بل خشي أن يقال عنه إنه خرج على سلطة الكنيسة في بلد خارج عليها. ولو كان مقيمًا في ايطاليا مثلًا، لكان أجرأ على التصريح برأيه، ولكنه لم يشأ أن ينسب إلى العقوق، أو إلى الهزيمة، ففضَّل طي كتابه على نشره. ولم يشقّ عليه هذا الامر كثيرًا، لأنه كان، كما قلت، نبيلًا يعد صناعة الكتابة مزرية بالنبلاء، فلما اطلع أصحابه على عزمه رغبوا إليه أن ينشر كتابه، فأبى ذلك، ووعد بتأليف كتاب جديد، يشرح فيه طريقته، ويبيّن فيه النتائج العلمية التي اهتدى إليها، وهذا الكتاب الذي وعد به هو «مقالة الطريقة» *(Discours de la méthode)*.

فأنت ترى أن ديكارت لم يقلع نهائيًّا عن نشر الحقائق العلمية التي اهتدى إليها في الطبيعيَّات، لأنه نشر مع كتاب مقالة الطريقة ثلاث مقالات ملحقة به، وهي: الآثار العلوية، وانكسار الضوء أو البصريات، والهندسة، وكان غرضه من هذا النشر «فتح الطريق واختبار المفازة». أمّا مقالة انكسار الضوء، فقد فرغ منها في عام 1635، وضمَّنها فصولًا مختلفة، أحدها يبحث في آلة لقطع الزجاج ونحته، والثاني يبحث في انكسار الضوء، والثالث في الابصار، وهذا الفصل مقابل لأحد فصول كتابه في العالم. وأما مقالة الآثار

العلوية، فقد ألَّفها في صيف عام 1635، ثم اتبعها بمقالة الهندسة في عام 1936، وسمَّى كتابه هذا في أوَّل الأمر بـ «**مشروع علم شامل من شأنه أن يرقى بطبيعتنا إلى أعلى مراتب الكمال**»، ثم سمّاه بعد ذلك بـ «**مقالة الطريقة لحسن قيادة العقل، وللبحث عن الحقيقة في العلوم**».

كتب ديكارت هذا الكتاب باللغة الفرنسية، وجعله قسمين: أحدهما علمي، والآخر فلسفي. أما القسم العلمي فكان قويًا جدًّا، وأما القسم الفلسفي فقد كان مشتملاً على بعض ما ذهب إليه في علم ما بعد الطبيعة. وكان من السهل على العلماء المعاصرين لديكارت أن ينتقدوا هذا القسم الأخير، فردّوا عليه، وردَّ عليهم، وساقه ذلك إلى تأليف كتاب جديد باللغة اللاتينية ضمَّنه تأملاته الفلسفية، وهو كتاب التأملات[1] *(Les Méditations)* واتخذ ديكارت كل حيطة لعرض مبادئه في هذا الكتاب بأسلوب واضح يفهمه جميع الناس، فأَطْلَعَ عليه أولًا اللاهوتي الهولاندي كاتروس (Caterus)، ثم بعث به إلى صديقه مرسن في عام 1640 مصحوبًا بتعليقات كاتروس، وطلب إليه أن يطلع اللاهوتيين عليه لإبداء رأيهم فيه، حتى إذا وجدوا فيه شيئًا يحتاج إلى التغيير غيَّره، أو شيئًا ناقصًا أتمَّه. وأهدى الكتاب إلى علماء الصوربون طالبًا منهم تأييد حججه البرهانية في الذبّ عن حياض الدين، والردّ على الملحدين. وجمع له مرسن ردود علماء اللاهوت، على هذه التأملات الست، وبعث إليه أيضًا بردود هوبس، وآرنولد وغاسّندي، ونشر الكتاب بعد ذلك في عام 1641 مع ردود العلماء، وأجوبة ديكارت عليها. ثم تُرجم بعد ست سنوات إلى اللغة الفرنسية، وعُرضت الترجمة على ديكارت فصحَّحها، وأدخل عليها بعض التغيير، وأضاف إليها بعض التعليقات. وتعد هذه الترجمة اليوم مساوية للأصل في صحتها وضبطها.

---

1 عنوان هذا الكتاب باللغة اللاتينية: *Meditationes de prima philosophia in quibus dei existentia et animae immortalitas demonstrantur.*

وقد يظن لأول وهلة أن في ميل ديكارت إلى نشر أفكاره شيئًا من الطموح الشخصي. إلاّ أن الناظر إلى حياته يدرك أن هذا الميل ليس سوى ظاهرة من ظواهر شعوره بقيمة الحقائق التي كشف عنها، وهو شعور محمود، ومن كرامة النفس أن تعرف قيمتَها، وأن تدرك الحدود التي يجب عليها الوقوف عندها. لقد أدرك ديكارت كل هذا، فأراد أن ينشر أفكاره في الناس. فأعرب لهويغنس (Huyghens) في عام 1642 عن رغبته في نشر كتاب العالم باللغة اللاتينية، بعنوان «جامع الفلسفة» *(Summa philosophiae)*، وقال أن غرضه من ذلك أن يجعل أفكاره على طرف الثمام، حتى يفهمها كل من يعانده من الفلاسفة المدرسيين. وكتاب جامع الفلسفة هذا هو «كتاب المبادئ» *(Les principes de la philosophie)* الذي ظهر في عام 1644، وتوخّى ديكارت فيه التودد لأساتذته القدماء من علماء اليسوعيين، لأنهم كانوا، كما يقول، أقدر الناس على نشر فلسفة جديدة مباينة لفلسفة آرسطو، ولم يعنَ ديكارت بعد نشر هذا الكتاب إلاّ بمسائل الأخلاق، فكتب إلى الأميرة اليصابات بنت فردريك ملك بوهيميا المخلوع كثيرًا من الرسائل ضمَّنها آراءه في اللذة، والألم، والخير، والشر، والسعادة، والشقاء. وجمع هذه الآراء بعد ذلك في «كتاب الأهواء» *(Les passions de l'âme)* الذي ظهر عام 1649.

ولم يجد ديكارت خلال إقامته الطويلة في هولاندة الهدوء الذي كان ينشده، لأن نشر مقالاته العلمية أثار حوله ضجّة كبيرة، فانتقد مورن وهوبس آراءه في انكسار الضوء، وناقش الرياضيان الفرنسيان فرما وروبرفال مقالاته في الهندسة، حتى شوَّها سمعته في الأوساط العلمية الفرنسية. ولكن ديكارت لم يقصّر في الرد على مخالفيه، بل أظهر في ردّه عليهم من الحذق والمهارة ما دلّ على صحة طريقته وقوة أسلوبه.

أما في هولاندة فقد رأى رجال الدين والجامعيون أن في نجاح فلسفة

ديكارت خطرًا على الدين، فتصدّوا للرد عليها. وبلغت المناظرة في جامعة اوترخت درجة ليس فوقها زيادة لمستزيد، وكان بين المتناظرين رجيوس أستاذ الطب وڤوتيوس (Voêtius) أستاذ اللاهوت، وكان رجيوس هذا يلقي دروسًا خاصة في الطبيعيات، على طريقة ديكارت، يهدم بها فلسفة آرسطو، وكان ڤوتيوس يرد عليه ويدافع عن آرسطو، وأدّى ذلك إلى كثير من الفوضى والاضطراب، حتى اضطر مجلس الشيوخ في السابع عشر من شهر آذار عام 1642 إلى اتخاذ قرار بمنع تدريس فلسفة ديكارت، ومما جاء في قرار مجلس الشيوخ أن هذه الفلسفة بدعة جديدة، تبعد عقول الشبان عن الفلسفة القديمة الصحيحة، وانها مشتملة على كثير من الآراء الباطلة والأقوال المتناقضة. فلما رأى ديكارت ذلك اضطر إلى الدفاع عن نفسه، فبرّأته جامعة Groningue عام 1645، أما قضاة اوترخت فلم يرجعوا عن رأيهم قيد أنملة، بل اتهموه من جديد بأن في كتابه الذي بعث به إلى ڤوتيوس كثيرًا من التشنيع والقدح. وما أفاد ديكارت من انتصار رجيوس له شيئًا يذكر، لأن هذا الأخير كان عاجزًا عن فهم فلسفته على حقيقتها، ودام الأمر على هذا الحال حتى عام 1647، فظهر في الأفق عدو جديد من جامعة ليدن، وهو اللاهوتي رجيوس Regius الذي اشتد على ديكارت، واتهمه بالمروق من الدين، والكفر بالله. ولما كانت قوانين ليدن تعاقب الكافرين والملحدين، طَلَب ديكارت إلى سفير فرنسة أن يتدخل في الأمر، ولولا تدخّل السفير لحكم عليه بالابعاد من هولاندة وبدفع غرامة مالية.

وكان لديكارت صديق كثير الإعجاب به، وهو شانوت (Chanut) سفير فرنسة في السويد. فأشار هذا السفير على الملكة خريستين بدعوة ديكارت إلى بلاطها. فكتبت إليه تدعوه إلى استوكهولم. وصعب على ديكارت في أول الأمر أن يترك عزلته، ولكن الضجّة التي قامت حوله في هولاندة، ومللهُ من الكتابة في هذه السنوات الأخيرة، ورغبته في حمل ملكة السويد على

حماية الأميرة اليصابات صديقته، كل ذلك دفعه في النهاية إلى تلبية الدعوة. فسافر في عام 1649 إلى استوكهولم، ولقي من عناية الملكة خريستين به ما حبّب إليه الإقامة عندها، ولكنّ هواء السويد البارد لم يرحم رئتيه الضعيفتين، فاعتلّت صحته، ومات بالتهاب الصدر في الحادي عشر من شهر شباط عام 1650، وعمره ثلاثة وخمسون عامًا.

2- **فلسفة ديكارت**

أ- **الخطوط العامة لفلسفة ديكارت**

يقول سكرتان (Secretan) في كتاب فلسفة الحرية *(Philosophie de la liberté)*، ص113:

1- أراد ديكارت أن يبدأ ببناء العلم من أوله، أي أن يقيمه على حقيقة أولى يقينية.

2- فاستنبط من هذه الحقيقة الأولى المعلومة معيارًا عامًّا لليقين.

3- ثم اعتمد على هذا المعيار العام، فارتقى من الحقيقة الأولى المعلومة إلى الحقيقة الأولى بذاتها أي إلى **المبدإ الكلّي**.

4- ثم استنبط من هذا المبدأ الكلي معيارًا عاليًا للحقيقة مؤيّدًا للمعيار الأول.

5- ثم استند في النهاية إلى هذا المبدأ الكلّي، وإلى المعيارين السابقين، فاستنبط المبادئ المباشرة للأشياء، وأعاد بناء العالم الحقيقي.

إن هذه الخطوط العامة لفلسفة ديكارت ستنجلي لنا تمامًا خلال بحثنا في طريقته وآرائه في النفس، والإله، والعالم.

ب- طريقة ديكارت

يرى ديكارت أن أول إصلاح فكري يجب على الفيلسوف أن يقوم به هو الظفر بطريقة قويمة توصله إلى المعرفة الحقيقية. ولو ظفر الفلاسفة السابقون بهذه الطريقة القويمة، لما خبطوا في مباحثهم خبطَ عشواء. قال: «الناس مسوقون برغبة في الاستطلاع عمياء، وهم إنما يوجهون أذهانهم غالب الأمر في طرق مجهولة، لا تحقيقًا لأملٍ صائب، بل لكي يجربوا إذا كان ما يبحثون عنه حقًّا. مثلهم في ذلك مثل رجل استولت عليه رغبة جنونية في أن يشكف كنزًا ما، فتراه لذلك يقضي وقته متجوّلًا منقبًا في كل مكان، ليرى هل ترك أحد السائحين أو العابرين كنزًا هناك» (القواعد لهداية العقل، القاعدة الرابعة). وكذلك حال أكثر العلماء، انهم إذا لم يكن لهم منهج يسيرون عليه لم يصلوا إلى الحقّ إلاّ اتفاقًا. «وخير للإنسان أن يعدل عن التماس الحقيقة من أن يحاول ذلك من غير طريقة». «إن الدراسات التي تسير من غير ترتيب ولا نظام... تحجب أنوار الفطرة، وتطمس عيون الذهن». «ومن اعتاد أن يسير هكذا في الظلام، ضعف بصره ضعفًا يصبح من العسير عليه أن يتحمّل الضوء الساطع». فأول شيء يجب على الفيلسوف أن يقوم به هو البحث عن طريقة قويمة، ثم الأخذ بهذه الطريقة في النظر والعمل. وهذه الطريقة هي، كما قال ديكارت، «قواعد مؤكدة بسيطة، إذا راعاها الإنسان مراعاة دقيقة، كان في مأمن من أن يحسب صوابًا ما هو خطأ، واستطاع دون أن يستنفد قواه في جهود ضائعة أن يصل بذهنه إلى اليقين في جميع ما يستطيع معرفته» (القواعد لهداية العقل، القاعدة الرابعة). ولكن أين نبحث عن هذه الطريقة، هل نجدها في منطق آرسطو، أم في مناهج السكولاستيك؟ لم يقتنع ديكارت بالطرق المألوفة في منطق آرسطو، ولا بتلك الأقيسة المنطقية التي شاعت في القرون الوسطى، لأنها كما قال تفرض الشيء الذي تطلب البحث عنه، ولا تصنع شيئًا أكثر

من أن تعرقل حركة الذهن الطبيعية، لا بل هي توجه عقولنا في دائرة آليّة، وتعفينا من التفكير، من دون أن توصلنا إلى الكشف عن الحقيقة. فلنبحث إذن عن طريقة جديدة تنقذنا من العقم، وتدفعنا إلى الأمام. إن هذه الطريقة الجديدة هي الطريقة التي سلكها الرياضيون في مباحثهم اليقينية. وهي لا تنطبق على الرياضيات وحدها، بل تنطبق على جميع العلوم، لأن العلوم، في نظر ديكارت، مرتبطة بعضها ببعض، والطريقة التي تصلح لمعالجة الأشياء البسيطة تصلح في الوقت نفسه لمعالجة الأشياء المركبة. قال ديكارت: «إن هذه السلاسل الطويلة من الحجج البسيطة والسهلة التي تعوّد علماء الهندسة استعمالها للوصول إلى أصعب براهينهم، أتاحت لي أن أتخيَّل أن جميع الأشياء التي يمكن أن تقع في متناول المعرفة الإنسانية تتعاقب على صورة واحـدة»[1]. ان المثل الأعلى للعلم الحديث هو العلم الرياضي. بل العلم لا يكون علمًا حقيقيًّا إلاّ إذا كان يقينيًّا. لقد كان موضوع العلم عند فلاسفة القرون الوسطى البحث في الكيفيّات. أما ديكارت فقد جعل الكمّية موضوع العلم، وجعل المنهج الرياضي أساسًا لجميع العلوم. قال ديكارت: «وإذن لا بد من أن يكون هناك علم عام يفسّر كلَّ ما نبحث عنه متعلقًا بالترتيب والتناسب، بقطع النظر عن تطبيقهما في مادة خاصّة، وهذا العلم هو الرياضيّات الكليَّة الشاملة (القواعد لهداية العقل، القاعدة الرابعة). وقد يبدو لنا لأوَّل وهلة أن إرجاع كل شيء إلى الرياضيات محال، وأن إرجاع المشكلات الخلقية والفلسفية إلى معادلات جبرية وهمٌّ باطل، ولكن ذلك لا يمكن معالجة هذه الموضوعات كلها معالجة رياضية. فالطريقة التي يريد ديكارت أن يسلكها في مختلف العلوم إنما هي طريقة الرياضيات. لقد قال أفلاطون قبله: «من لم يكن مهندسًا لا يدخل علينا»، وهذا القول

1 راجع مقالة الطريقة: القسم الثاني، ص 104.

الأفلاطوني يشير إلى ضرورة الأخذ بالطريقة الرياضية في معالجة المسائل الفلسفية والعلمية.

فما هي هذه الطريقة؟ يقول ديكارت: إن طريقته تشتمل على أحسن ما اشتمل عليه المنطق والتحليل والجبر: أما المنطق فليس فيه وحده كبير فائدة لأنه يكتفي بالبرهان على ان حقيقة من الحقائق منطوية في حقيقة أخرى، ويعجز عجزًا تامًّا عن الكشف عن أية حقيقة جديدة. وهو أيضًا يصلح لإيضاح المعلوم لا لتعلم المجهول. فطريقة ديكارت ليست مقتبسة إذن من المنطق، وإنما هي مقتبسة من الهندسة والجبر.

فالهندسة تسلك طريقة التحليل، التي وصفها لنا الرياضي اليوناني پاپوس (Papus)، وخلاصة ذلك أننا إذا أردنا أن نبرهن على قضية من القضايا، أرجعناها إلى قضية ثانية أبسط منها، ثم أرجعنا هذه القضية الثانية إلى قضية ثالثة أبسط منها، حتى نصل في النهاية إلى قضية معلومة نستطيع البرهان عليها. فالتحليل مشتمل إذن على تأليف سلسلة من القضايا، أولها القضية المراد إثباتها، وآخرها القضية المعلومة. فإذا ذهبنا من الأولى إلى الاخيرة، كانت كل قضية نتيجة للتي بعدها، وكانت الأولى نفسها نتيجة للقضية الأخيرة وصادقة مثلها. وما ينطبق على القضايا الهندسية ينطبق أيضًا على حلّ المعادلات الجبرية. وجماع ذلك كله أن يستبدل العقل بالأشياء المركبة أشياء بسيطة، وبالأشياء الصعبة أشياء سهلة. قال ديكارت: «لم أجد كبير عناء في البحث عن الأمور التي يجب الابتداء بها، لأنني كنت أعرف من قبل أن الابتداء يجب أن يكون بأبسط الأشياء وأسهلها معرفة»[1]. وهذه الأشياء البسيطة هي المعاني البديهية، الواضحة والبينة. وإذا كان للعلوم الرياضية يقين لا نزاع فيه، فيقينها آتٍ من بداهة المعاني التي تصطنعها، ومن الترتيب الذي يجري عليه تسلسل هذه المعاني. فإذا أردنا

1 راجع مقالة الطريقة: القسم الثاني، ص 106.

أن نسبغ على العلم يقينًا يعدل يقين الرياضيات، وجب علينا أن نبحث عن المعاني الواضحة البينة، وأن نُرتب جميع معانينا في نظام خاص. وهذه البداهة وهذا الترتيب إنما يصل إليهما الذهن بفعلين اثنين: هما **الحدس**، **والاستنتاج**.

أما الحدس[1] *(Intuition)* عند ديكارت فهو الإدراك العقلي المباشر الذي يطلع الذهن على بعض الحقائق التي تذعن لها النفس، فمما قاله: «أنا لا أقصد بالحدس شهادة الحواس - المتغيّرة - ولا الحكم الخداع لخيال فاسد المباني، وإنما أقصد به التصوّر الذي يقوم في ذهن خالص منتبه بدرجة من السهولة والتميّز لا يبقى معهما مجال للريب، أو التصوّر الذهني الذي يصدر عن نور العقل وحده» (القواعد لهداية العقل، القاعدة الثالثة). فالحدس عند ديكارت عمل عقلي يدرك به الذهن حقيقة من الحقائق، «بفهمها بتمامها في زمانٍ واحد، لا على التعاقب»، وهذا عكس الاستنتاج، الذي «لا يتمّ في زمان واحد، ولكنه يقتضي حركة من حركات الذهن»، وانتقالًا من شيء إلى آخر. فإن كل واحد منا يعلم بالحدس أنه موجود، وأنه يفكر، وأنَّ المثلث شكل ذو ثلاثة أضلاع، وأنّ الكرة ليس لها إلاّ سطح واحد، ويعلم حقائق أخرى غير هذه.

والحدس عند ديكارت لا يختلف كثيرًا عن الحدس الذي عرفه القدماء. فهو يدل عند آرسطو على ثلاثة أشياء، وهي:

1- تصوّر الحدود قبل أن يتم بها تأليف الحكم.

2- إدراك الوحدة التي تربط عناصر التصوّر بعضها ببعض.

3- إدراك الشيء الحاضر في الذهن من حيث هو حاضر.

وهو يدل عند ابن سينا على حركة الذهن التي يصيب بها الحد

---

1 قال الجرجاني في تعريفاته: «الحدس سرعة انتقال الذهن من المبادئ إلى المطالب ويقابله الفكر».

الأوسط إذا وضع المطلوب، أو يصيب بها الحد الأكبر إذا أصيب الأوسط، «وبالجملة سرعة الانتقال من معلوم إلى مجهول» (النجاة، ص137، من طبعة القاهرة). وهذه المعاني كما ترى ليست بعيدة عن المعنى الذي ذهب إليه ديكارت، لأن الحدس عنده يدرك الطبائع البسيطة *(Natures simples)* التي يتألف منها كل شيء. والطبائع البسيطة هي الخواص الطبيعية المجرّدة التي يدركها الذهن مباشرة، ويستطيع أن يستخلص منها جميع الطبائع الأخرى. مثال ذلك الامتداد، والحركة، والشكل، والزمان. فهي قد سُمّيت بسيطة لأن معرفتها بلغت «من الوضوح والتميّز مبلغًا يمنع الذهن من تقسيمها إلى طبائع أخرى أكثر تميزًا منها»[1]. ومعرفتنا بالطبائع البسيطة خالية من الخطأ، لأن الفكرة في ذاتها صحيحة دائمًا، والخطأ لا يكون إلاّ في الحكم. قد يكون تصوّر بعض الطبائع مجتمعة أسهل من تصوّرها منفصلة، مثال ذلك أني أدرك المثلث من غير أن ألاحظ أن معناه يتضمّن معنى الزاوية، ومعنى الخط. ولكن سهولة تصوّر المثلث لا تمنع من القول أن طبيعته مركبة من طبائع أوضح منه وأبسط، وهذه الطبائع، كالامتداد، والحركة، والشكل، ليست تصورات تتألف منها الأحكام، وإنما هي حقائق بسيطة تتألف منها حقائق أخرى.

والحدس لا يقتصر على المعاني والأفكار، بل يتناول أيضًا حقائق لا تقبل الشك، كعلمك أنك موجود، وأنك تفكر، وأن الكرة ليس لها إلاّ سطح واحد. ومعنى ذلك أن الوجود والفكر هما طبيعتان بسيطتان، لا ندركهما إلاّ في موضوع، ولا نستطيع أن نعزلهما عنه إلاّ بالتجريد.

وأخيرًا بالحدس ندرك الرابطة الموجودة بين إحدى الحقائق والحقيقة التابعة لها مباشرة. مثال ذلك: إذا صح أن 1+3 = 4 وأن 2+2 = 4، لزم من ذلك أن 1+3 = 2+2، وهذا يعني أن الشيئين المساويين لشيء ثالث

---

1 قواعد لهداية العقل، القاعدة 12.

متساويان، فهذه البديهية أو الأولية إنما تجلّت للعقل لسبب إدراكه الرابطة التي بين هذه الحقائق إدراكًا حدسيًّا.

وقصارى القول أننا ندرك بالحدس ثلاثة أشياء، هي: الطبائع البسيطة، والحقائق التي لا تقبل الشك، والعلاقات التي تربط الحقائق بعضها ببعض ولذلك سمَّى ديكارت هذا الحدس نورًا طبيعيًّا *(Lumière naturelle)* أو غريزة عقلية، تُكتسَب بها معارف كافية للبرهان على قضايا كثيرة.

والفعل الثاني الذي يعتمد عليه ديكارت لبلوغ اليقين هو الاستنتاج *(Déduction)*. وهو طريقة نفهم بها جميع الحقائق التي هي نتيجة حقائق أخرى. وهذا الاستنتاج الديكارتي يختلف عن القياس المنطقي الذي وضع آرسطو قواعده، لأن القياس القديم إنما هو ارتباط بين التصورات، أما الاستنتاج فهو ارتباط بين الحقائق. ثم أن علاقة الحدود الثلاثة في القياس خاضعة لقواعد معقدة تطبق بطريقة آليّة لمعرفة الأقيسة المنتجة وغير المنتجة في حين أن الاستنتاج إنما يعرف بواسطة الحدس، معرفة بديهية. ومن خصائص القياس أنه ينحل إلى علاقات ثابتة بين تصورات ثابتة، سواء أأدركها العقل أم لم يدركها، أما الاستنتاج فهو «حركة فكرية متصلة تدرك الأشياء واحدًا بعد الآخر ادراكًا بديهيًّا»[1]. وإذن لا محل في الاستنتاج الديكارتي إلاّ للقضايا اليقينية، في حين أن القياس الارسطاطاليسي يفسح المجال للقضايا اليقينية، في حين أن القياس الارسطاطاليسي يفسح المجال لقضايا ظنيَّة واحتمالية[2]. إن غاية القياس هي البحث عن محمول يصح اسناده إلى موضوع معلوم. أما غرض الاستنتاج فهو تحديد طبيعة الموضوع نفسه. وكما أن الرياضي يعيّن الحدّ في المتواليات العددية بالاعتماد على

---

1 قواعد لهداية العقل، القاعدة 3.

2 عثمان أمين: ديكارت، ص 69؛ راجع أيضًا برهيه: تاريخ الفلسفة، المجلد الثاني، ص 59.

الأساس المولد لها، فكذلك يحدد الفيلسوف طبائع الماهيات بالاعتماد على الاستنتاج.

والاستنتاج يعتمد على الحدس، وهو أقل ثباتًا منه، لأنه يحتاج إلى زمان، وحاجته إلى الزمان قد تبعث الذهن على الوقوع في الخطأ.

والحدس والاستنتاج يرجعان في النهاية إلى فعل واحد، لأن الاستنتاج إنما هو سلسلة من الحدوس المتتابعة، أما الطريقة فمؤلفة من قواعد وأحكام مبنية على الحدس والاستنتاج معًا. فالحدس والاستنتاج هما إذن مبدآن للطريقة، وإذا شئت قل إنهما العقلُ نفسه.

وقد ذكر لنا ديكارت في كتاب «القواعد لهداية العقل» إحدى وعشرين قاعدة من قواعد الطريقة، إلاّ أنه عدل بعد ذلك عن هذا العدد الكبير لما فيه من تعقيد، وبدا له أن انصراف الناس عن المنطق القديم إنما نشأ عن كثرة قواعده وتعقيدها، وأن رؤساء الدول الذين يحكمون بلادهم بعدد قليل من القوانين أقدر على تجنّب المشكلات من الذين يحكمون البلاد بقوانين كثيرة يصعب على الناس مراعاتها. لذلك اكتفى ديكارت في مقالة الطريقة بأربع قواعد: الأولى منها مستندة إلى مبدأ الحدس، والثلاث الأخيرة مستندة إلى مبدأ الاستنتاج.

القاعدة الأولى: «أن لا أتلقَّى على الإطلاق شيئًا على أنه حقّ ما لم أتبيّن بالبداهة أنه كذلك. أي أن أُعنى بتجنّب التعجل والتشبث بالأحكام السابقة، وأن لا أدخل في أحكامي إلاّ ما يتمثّل لعقلي في وضوح وتميّز لا يكون لديّ معهما أي مجال لوضعه موضع الشك».

إن معنى هذه القاعدة واضح تمامًا. فهي تطلب من المفكر أن لا يُذعنَ إلاّ لسلطة البداهة، ومن العالم أن يتحرّر من كل سلطة، إلاّ سلطة العقل. والبداهة التي يعنيها ديكارت في هذه القاعدة ليست بداهة الأشياء الحسيّة، إنّما هي بداهة المعاني العقليّة، أي بداهة المعرفة الواضحة البيّنة. فإذا أردنا

أن نميّز الحق من الباطل في أمرٍ من الأمور، وجب علينا أن نتبيّن هذا الامر ببداهة عقولنا، لا أن نعتمد على حواسنا، أو على آراء الآخرين، لأن هذه الآراء قد تكون بديهية في نظر أصحابها لا في نظرنا. ولا يجوز اثبات الحقائق بنسبتها إلى آرسطو أو غيره، بل يجب أن تكون القضية المبحوث عنها متمثّلة في أذهاننا بأفكار واضحة بيّنة. والحقيقة إنما تعرف بشهادة الشعور، أو بالغريزة العقلية، أو بالنور الطبيعي، فلا إمام إذن سوى العقل.

وفي هذه القاعدة إشارة إلى أمرين هما السبب في كثير من الغلط والوهم: الأول هو التعجّل في الحكم، أي اطلاق الحكم من غير تثبت قبل أن يصل الذهن فيه إلى بداهة تامّة. والثاني هو التشبّث بالاحكام السابقة، أي الأحكام التي تلقيناها في الماضي دون تدبّر ورويّة، وظلّت حتى الآن عالقة بأذهاننا. وديكارت يوصينا بتجنّب هذين الأمرين، لأنهما يوقعاننا في كثير من الأوهام، ويحولان دون بلوغ الحق.

ثم ان في هذه القاعدة إشارةً إلى معيار اليقين، وهذا المعيار هو بداهة المعاني. فالمعنى لا يكون بديهيًّا إلاّ إذا كان واضحًا ومتميّزًا. والفكرة الواضحة *(Idée claire)* هي الفكرة الحاضرة المتجلية لذهن منتبه (مبادئ الفلسفة 1، 45)، وضدّها الفكرة الغامضة *(Idée obscure)*. أما الفكرة المتميّزة *(Idée distincte)* فهي الفكرة التي بلغ من وضوحها واختلافها عن كل ما عداها أنها لا تحوي في ذاتها إلاّ ما يبدو بجلاء لمن ينظر فيها كما ينبغي (مبادئ الفلسفة 1، 45)، وضدها الفكرة الملتبسة أو المبهمة *(Idée confuse)*.

وقد أوضح ليبنيز معنى الفكرة المتميّزة عند ديكارت وبيّن وجه اختلافه عن معنى الفكرة الواضحة، فقال: تكون الفكرة واضحة إذا كانت كافية للدلالة على الشيء، أو لمعرفته، وتكون غامضة إذا لم تكن كذلك. مثال ذلك: إذا كنت أبحث عن شيء، ثم عرض لي هذا الشيء فلم أتبيّنه، فمعنى

ذلك أني لا أعرف بوضوح عن أي شيء أبحث. وقد تكون الفكرة واضحة، ولا تكون مع ذلك متميّزة. مثال ذلك: أن تجد عند الصيّاد فكرة واضحة لمختلف أنواع السمك، وعند البستاني فكرة واضحة لمختلف أنواع النبات، غير أن فكرتي الصياد والبستاني لا تخلوان مع ذلك من الالتباس والإبهام، في حين أن هاتين الفكرتين «متميّزتان» عند عالم الطبيعيات الواقف على دقائق علم التشريح. إذن الفكرة المتميّزة هي الفكرة التي يدرك العقل مضمونها وعناصرها ادراكًا بيّنًا، أما الفكرة الواضحة فهي الفكرة التي نستطيع أن نتبيّنها، ونتعرّفها، بين مجموعة من الفكر. (ليبنيز، المحاولات الجديدة، الكتاب الثاني، الفصل 22).

وقد يبدو لنا أن في الكلام على شرط البداهة لغوًا لا حاجة إليه، لأننا تعودنا اليوم بتأثير الثقافة العلمية أن لا نسلّم بصحة شيء إلاّ إذا أدركناه ببداهة عقولنا. ولكن الذين يرجعون إلى عصر ديكارت، ويطالعون ما كان عليه العلماء من التقيّد بسلطان الأقدمين، يدركون قيمة هذا الشرط. فقد أراد ديكارت أن ينتزع من ذهنه كل ما تلقاه عن القدماء، وأن يعتمد على بداهة عقله في تمييز الحق من الباطل. ولم تكن ثورته على القدماء أول ثورة فكرية في الفلسفة الحديثة. فقد سبقه إلى ذلك راموز في فرنسة وبيكون في انكلترا. ولكن ثورته هذه تمتاز على غيرها بأنها لم تقتصر على التحرّر من السلطة الخارجية فحسب، بل تناولت التحرّر من سلطان العوائق الداخلية، كالهوى، والتخيّل، وحب الذات، وغير ذلك من البواعث التي تدفعنا إلى التعجّل في الحكم. فإذا أردنا أن يكون العقل حرًّا في أحكامه، وجب علينا أن نحرّره من الهوى الصادّ عن الحق. إن للعقل قانونًا خاصًّا يجب التقيد به، وهذا القانون هو البداهة.

لقد بالغ ديكارت في شرط البداهة حتى جعله أساس كل شيء، ولكن فرض هذا الشرط على كل عمل فكري قد يحدّد نطاقه، لأنه يقودنا إلى

احتقار جميع الأمور التي لم تتضح لعقولنا اتضاحًا تامًّا، ويسوقنا إلى إهمال الحقائق الاحتمالية أو الممكنة. ونحن نعلم أن البداهة لا تتوافر في كل معرفة، وأن هناك علومًا لا يمكن الوصول فيها ببداهة العقل إلى ضبط تام، كالحقائق التاريخية، والمسائل الخلقية، والسياسية، أو كالفرضيات العلمية التي نخاطر بها لتوضيح بعض الأمور المجهولة. فإذا تقيّدنا بشرط البداهة العقلية في هذه المعارف اضطررنا إلى إهمالها والاعراض عنها. إن الحقائق التاريخية ليست بديهية بذاتها، ولا هي من الحقائق التي يقيم العقل عليها برهانًا بديهيًّا، كالبراهين التي يصفها ديكارت. لذلك أعرض ديكارت ومالبرانش وغيرهما من الديكارتيين عن علم التاريخ، وشكّوا في صحته، ولذلك أيضًا أهملوا كثيرًا من مسائل الفلسفة التي يصعب الوصول فيها إلى يقين رياضي.

وفي ذلك تحديد لنطاق المعرفة، لأننا لا نستطيع في بداية البحث أن نطلب في جميع العلوم درجة واحدة من الضبط. فبعض العلوم يمكن الوصول فيه مباشرة إلى يقين تام، بعضها الآخر يكتفى فيه في أول الأمر بالاحتمال والترجيح، والاعتماد الموقت على الاحتمال في الموضوعات المعقدة خير وأبقى من الشك فيها والأعراض عنها.

القاعدة الثانية: «أن أقسّم كل واحدة من المعضّلات التي أبحثها إلى عدد من الأجزاء الممكنة واللازمة لحلّها على أحسن وجه.» إن هذه القاعدة توصينا بأن نقسم المعضلة أقسامًا كثيرة بقدر ما يلزم لإزالة كل غموض في معناها. والمعضلة تشتمل دائمًا على مسائل معقدة. فإذا نحن حاولنا تفسيرها أو حلها، دون إرجاعها إلى معضلات أبسط منها، لقينا كثيرًا من الصعوبات، فينبغي لنا إذن أن نرجع المعضلة المعقدة إلى معضلات أبسط منها، وهذه بدورها إلى أبسط منها، حتى نصل إلى المعاني البسيطة

التي لا تقبل القسمة. ومتى تمّ لنا هذا التحليل، عالجنا كل مسألة من هذه المسائل البسيطة على حدّتها.

وقد يبدو لنا في أول الأمر أنَّ تطبيق هذه القاعدة سهل، إلاّ أننا إذا أمعنا النظر فيها، علمنا أنها لا تخلو من التعقيد، وذلك أن التقسيم أو التحليل يختلف باختلاف طبيعة البحث. فإذا كنا نبحث عن طبيعة شيء معقَّد، كان معنى التقسيم ردّ هذا الشيء المعقد إلى أجزائه البسيطة، ثم دراسة كل جزء من الأجزاء التي يتألف منها الكل دراسة متتابعة. وإذا كنا نبحث عن حلّ مسألة من المسائل كان معنى التقسيم هنا الكشف عن الشروط المحدّدة لهذه المسألة، ثم دراسة هذه الشروط الواحد بعد الآخر دراسة وافية. ولما كانت كل مسألة تشتمل على مجهول، كان سبيلنا في الكشف عنه أن نحدّد علاقته بكل شرط من هذه الشروط. فتقسيم المسألة هو إذن رد مطالبها المعقدة إلى عواملها البسيطة، التي ندركها، بالحدث أو بالاستنتاج، إدراكًا واضحًا مميّزًا. مثال ذلك: إذا طلب منّا أن نرسم من نقطة خطًّا مماسًا لمنحنٍ معلوم، وجب علينا أولًا أن نفهم المطلوب، ولا يمكننا فهمه على حقيقته إلاّ إذا قسمناه، وتقسيمه إنما هو البحث عن العوامل أو الشروط المحدّدة له.

ونقول بعبارة أخرى: إذا كان الأمر المراد بحثه شيئًا من الأشياء، أدّى التقسيم إلى فحص كل جزء من أجزائه. وإذا كان الأمر المراد بحثه مسألة من المسائل، أدَّى التقسيم إلى بحث كل شرط من شروطها على حدّته. وكل شرط من هذه الشروط هو في الحقيقة مسألة جزئية داخلة في المسألة الكليّة المطلوب حلّها. وهذا التحليل يقوم على قضية مسلّم بها، وهي أنه لا يوجد في الكل شيء غير ما تشتمل عليه عناصره البسيطة. ونحن لا نفهم الكلّ فهمًا حقيقيًّا بيّنًا إلاّ عندما نكشف العناصر التي هو مؤلف منها.

والتحليل ليس إلاّ وسيلة للكشف عن هذه العناصر، أو عن هذه الطبائع البسيطة.

تلك هي قاعدة ديكارت الثانية. وهي لا تنطبق على مسائل الجبر والهندسة والميكانيك فحسب، بل تنطبق أيضًا على مسائل الحياة ومسائل ما بعد الطبيعة. لنفرض أننا نريد أن نعالج بعض القضايا الاجتماعية المعقّدة. فإن خير وسيلة لمعالجة هذه القضايا هي ردّها إلى العوامل البسيطة المؤثرة فيها. وجميع المسائل المعقّدة إذا ردّت آخر الأمر إلى العوامل البسيطة العامة، أمكن الإحاطة بها بنظرة واضحة بيّنة. هكذا نستطيع بالتحليل أن تنتقل من الظواهر المعقدة إلى المبادئ البسيطة، ومن المعلولات إلى العلل. وهكذا أيضًا نستطيع أن نتقدم إلى الأمام وأن ننتقل من المعلوم إلى المجهول.

والقاعدة الثالثة: هي «أن أرتب أفكاري، فأبدأ بأبسط الأمور وأيسرها معرفة، وأتدرّج في الصعود شيئًا فشيئًا، حتى أصل إلى معرفة أكثر الأمور تركيبًا، بل أن أفرض ترتيبًا بين الأمور التي لا يسبق بعضها بعضًا بالطبع». لقد بيّن لنا ديكارت في القاعدة الثانية كيف ينبغي لنا أن نحل مسألة من المسائل، أما في هذه القاعدة فهو يبيّن لنا ما هو الترتيب أو النظام، الذي يجب علينا اتباعه في معالجة كل مسألة.

والترتيب في معالجة المسائل أهم شيء في نظر ديكارت، وهو قد صرّح غير مرّة بأن هذه القاعدة الثالثة أهم قواعده. فممّا قاله في مقالة الطريقة: «إذا تحامى المرء أن يتلقى ما ليس من الأشياء بحق على أنه حق، وحافظ دائمًا على الترتيب اللازم لاستنتاج الأشياء بعضها من بعض، فإنه لا يجد بين تلك الأشياء بعيدًا لا يمكن إدراكه، ولا خفيًّا لا يستطاع كشفه»[1]. وفي هذا القول إشارة إلى أن تقدّم العلم متوقف على مراعاة القاعدة الأولى

1 مقالة الطريقة: القسم الثاني، ص 104.

والثالثة معًا، أما القاعدة الثانية والرابعة فليس لهما في نظره تلك الخطورة. ومما يشير إلى خطورة هذه القاعدة الثالثة أيضًا، قول ديكارت في كتاب القواعد لهداية العقل: «تقوم الطريقة كلها على النظام والترتيب، فإذا نحن رجعنا بالتدريج، من القضايا الغامضة المضطربة، إلى قضايا أبسط منها، ثم أدركنا هذه القضايا الأخيرة ببداهة العقل، وارتقينا منها بالتدريج إلى معرفة القضايا الأخرى، فإننا نكون على ثقة من اننا لم نغفل شيئًا في الطريق الذي سلكناه». فبالتحليل ننتقل من المعقَّد إلى البسيط، ومن الكل إلى الأجزاء، وبالتركيب نسلك الطريق نفسه ولكن في الاتجاه المضاد، فننتقل من البسيط إلى المعقّد، ومن الجزء إلى الكل. وكمال الطريقة ليس في التركيب الذي هو بمثابة اختبار عكسي للتحليل، وإنما هو في الترتيب المنطقي، الذي تنتظم فيه القضايا. فعلى العالم الذي يريد أن يدخل باب العلم باحثًا عن الحقيقة، أن يتشبّث بهذه القاعدة تشبث من يدخل التيه بحبل تيزه[1].

قلنا أن قاعدة ديكارت الثالثة توصينا بالانتقال من الأشياء البسيطة السهلة إلى الأشياء المعقدة وفق الترتيب المنطقي. فما هي تلك الأشياء البسيطة التي يشير إليها ديكارت في هذه القاعدة؟ إننا نجد الجواب عن هذا السؤال في كتاب القواعد لهداية الفكر، فقد جاء فيه أن الأشياء البسيطة هي الأشياء التي بلغ الوضوح والتميّز في معانيها درجة لم يبق معهما حاجة إلى متابعة تقسيمها إلى أشياء أبسط منها. وهذه الأشياء البسيطة هي ثلاثة أنواع: أفعال ذهنية محضة، وأمور مادية، ومعانٍ شائعة مشهورة. أما الأفعال الذهنية، فهي الأمور التي يفهمها العقل دون معونة أية صورة جسمية، كالشك، والجهل، والمعرفة، والإرادة، وغيرها. وأما الأمور المادية، فهي الأشياء التي لا يدركها العقل إلاّ في جسم، كالشكل،

1 بطل يوناني دخل تيه جزيرة اقريطش (كريت) وتشبث بالحبل الذي أعطته إياه أريان بنت مينوس، فاستطاع أن يقتل الوحش الذي كان هناك.

والامتداد، والحركة. وأما الشائعة المشهورة، فهي المبادئ العامة التي تنطبق على الأمور الذهنية والمادية معًا، كالوجود، والديمومة، والوحدة. ويتصل بهذا النوع الأخير معانٍ عامّة هي بمثابة روابط تصل هذه الطبائع البسيطة بعضها ببعض، كقولنا: الشيئان المساويان لشيء ثالث متساويان.

ولكن، لماذا يجب البدء بهذه الأشياء البسيطة؟ الجواب عن ذلك أن الأشياء البسيطة أسهل معرفة من غيرها، لا بل أن معرفتها، كما يقول ديكارت، مطلقة تامة. ونحن ندركها بالبديهة. لا بالنظر. وإذا كان ذلك كذلك، كان العلم كله قائمًا على إدراكنا البيّن المتميّز لكيفية اشتراك هذه الطبائع في تكوين الأشياء المعقّدة. لنوضح ذلك بمثال: لنفرض اننا نريد أن ندرس خواص جسم صلب، فماذا نصنع؟ إننا نلاحظ أولًا أن طبيعة هذا الجسم مقيّدة بالسطح المحيط به. والسطح هنا هو الشيء البسيط، إلاّ أن السطح تابع أيضًا للخط الذي يحدّه، (أو لحركة هذا الخط المولد له)، وهذا يدل على أن الخط أبسط من السطح، فإذا أردنا أن نتبع ترتيبًا حقيقيًّا في توضيح هذا الجسم، وجب علينا أن نبدأ أولًا بدراسة الخطوط، ثم ندرس بعد ذلك السطوح، وكيفية تأليفها، حتى نصل في النهاية إلى الجسم. وهو أكثر الحدود تعقيدًا في هذه السلسلة.

ولكن أنّى لنا البدء بأبسط الأمور، وأيسرها معرفة، والتدرّج فيها شيئًا فشيئًا، حتى نصل إلى أكثرها تعقيدًا، إذا كنا لا نعرف العناصر البسيطة التي يتألّف الكل منها؟ لذلك كان لا بد لنا أولًا من تحليل الكل إلى أجزائه، أو الكلّي إلى شروطه. ومتى عرفنا هذه الأجزاء، وهذه الشروط، أمكننا بعد ذلك ترتيبها، وبيان كيفية اشتراكها في تأليف الكل.

وهذا كله يدل على أن قاعدة ديكارت الثالثة مشتملة على عملين فكريين. الأول هو الرجوع إلى الوراء بطريق التحليل، والثاني هو التقدّم إلى الأمام بطريق التركيب. أما التحليل فهو تمهيد للتركيب، لأنه يكشف عن

العناصر البسيطة، ويرتبها في سلسلة خاصة، بحسب درجة بساطتها، وأما التركيب فهو ربط حدود هذه السلسلة بعضها ببعض، وترتيبها ترتيبًا منطقيًّا، ويعني ديكارت بالترتيب أن الأشياء التي تعرض أولًا يجب أن تكون معروفة دون معونة الأشياء التي تليها، وأن الأشياء التالية يجب أن تربط بالاولى وأن تُبنى عليها. وإذا لم يكن هذا الترتيب ظاهرًا وجب افتراضه على كل حال. وللترتيب نوعان: ترتيب عقلي، وترتيب حقيقي واقعي. وفي الترتيب العقلي روابط منطقية لا يظهرها الترتيب الواقعي دائمًا. وربما أمكن تعريف المنطق الصحيح كله بفكرة الترتيب هذه، بل التفكير الصحيح يقتضي ترتيب حدود البحث ترتيبًا يظهر لنا دائمًا علاقة اللاحق بالسابق، بحيث يتألف من ذلك سلاسل من الحجج والبراهين بعضها آخذ برقاب بعض. وهذا كله يقتضي تقسيم الأشياء، ثم نظمها في طبقات، ودرجها تحت مقولات، وأجناس عامّة.

والقاعدة الرابعة: هي «أن أقوم في جميع الأحوال بإحصاءات تامّة ومراجعات عامة تجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئًا». إن هذه القاعدة تطلب منّا أن نقوم بمراجعات عامّة حتى لا نغفل أي حد من الحدود المتوسطة التي تشتمل عليها المسألة. ونعني بالحدود المتوسطة جميع المسائل الفرعية التي يجب حلّها، وجميع الصعوبات التي ينبغي لنا اجتيازها، عند الانتقال من المبدأ المعلوم إلى القضية المراد إثباتها. وهي تطلب منّا أيضًا أن نقوم بإحصاءات تامّة حتى لا نغفل أي جزء من أجزاء هذه الصعوبات. وهنا لا بد لنا من الرجوع إلى القاعدة الثانية التي توصينا بإرجاع المعضلة إلى عدد من الأجزاء اللازمة لحلها. فإذا كان الأمر المطلوب «شيئًا» كان معنى الاحصاء التام هنا الإحاطة بجميع أجزاء ذلك الشيء، وإذا كان الأمر المطلوب «مسألة» كان معنى الإحصاء الإحاطة بجميع شروط تلك المسألة. وفي كلا الحالين لا بد من الاحصاء التام

لأن إهمال شرط واحد من شروط المسألة، أو إغفال جزء واحد من أجزاء الشيء، يفسد النتيجة. يقول ديكارت: «إذا كان لدي سلسلة من الروابط فإنني لا أستطيع أن أحدد بدقة هل كنت أذكرها كلها. ولذلك يجب علي أن أتصفحها مرّات كثيرة بحركة متصلة من حركات الفكر، حتى إذا تصوّرت واحدة منها بالحدس والبديهة انتقلت منها إلى غيرها. وهكذا إلى أن أتبيّن كيف أستطيع الانتقال من رابطة إلى رابطة بسرعة لا تدع مجالًا للاعتماد على الذاكرة فأحصل بذلك على حدسٍ للكل في وقت واحد» (القواعد لهداية العقل، القاعدة السابعة).

فالإحصاء أو الاستقراء الديكارتي هو الإحاطة بجميع شروط المسألة، أو الإحاطة بجميع أجزاء الكل، والتحقق أن العقل لم يغفل منها شيئًا عن سهو ولا عن خطأ.

تلك هي قواعد ديكارت. فالقاعدة الأولى هي قاعدة البداهة، والقاعدة الثانية هي قاعدة التحليل، والقاعدة الثالثة هي قاعدة التركيب، والقاعدة الرابعة هي قاعدة الإحصاء أو الاستقراء العقلي.

3- مراحل فلسفة ديكارت

يقول الأستاذ برهيه في تاريخ الفلسفة (مجلد 2، ص68) ان ديكارت قد تدرَّج أولًا من الشك إلى اليقين، أو من حكم أول يقيني هو «الكوجيتو» إلى أحكام يقينية أخرى، فهو قد أثبت أولًا وجود الفكر، ثم انتقل من إثبات وجود الفكر إلى إثبات وجود الله مباشرة، وانتهى من ذلك إلى أن الله هو الضامن لصحة أحكامنا القائمة على أفكار واضحة متميّزة، ثم انتقل بعد ذلك إلى اثبات ماهية النفس، وهي الفكر، وإلى إثبات ماهية الأجسام، وهي الامتداد، ثم انتهى أخيرًا إلى اليقين بوجود الأشياء المادية والعالم الخارجي. فهناك إذن ثلاث مراحل لفلسفته: الأولى هي مرحلة الانتقال من الشك إلى

اليقين، والثانية هي مرحلة الانتقال من النفس إلى الله، والثالثة هي مرحلة الهبوط من الله إلى العالم. ولنبحث الآن في كل من هذه المراحل الثلاث.

المرحلة الأولى: من الشك إلى اليقين

نظر ديكارت في علوم زمانه فوجدها غير وافية بمقصوده. ولما كان مطلبه إنما هو الحق الذي لا ريب فيه، كان لا بد له أولًا من رفض جميع المذاهب الشائعة، لما فيها من اختلاف واضطراب. فحاول أن يتجرّد من الماضي، وأن يشكَّ في كل ما تعلمه من قبل، وأن يمضي في هذا الشك إلى أبعد الحدود. قال: «لاحظت - وليست ملاحظتي هذه بنت اليوم - إنني تلقيت منذ سنواتي الاولى طائفة من الآراء الباطلة على أنها صحيحة. ومن أجل ذلك حكمت بأنه يجب عليَّ أن أقدم بجد مرّة واحدة في العمر، على تخليص نفسي من الآراء التي تلقَّيتها في الماضي، وأن أعاود البحث من أساسه، إذا أردت إقامة شيء ثابت وراسخ في العلوم». (التأملات - التأمل الأول) وموقفه هذا إزاء علوم زمانه يذكرنا بموقف الغزالي في «المنقذ من الضلال». قال الغزالي: «وقد كان التعطّش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني، من أوَّل أمري وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلّت عنّي ربطة التقليد، وانكسرت عليّ العقائد الموروثة، على قرب عهدٍ بسنّ الصبا إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلاّ علىالتنصّر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلاّ على التهوّد، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلاّ على الإسلام... فتحرَّك باطني إلى حقيقة الفطرة الأصلية وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين، والتمييز بين هذه التقليدات وأوائلها تلقينات وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات. فقلت في نفسي أولًا إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي. فظهر لي أن العلم اليقيني هو

الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافًا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم» (المنقذ، ص 69 من الطبعة الثانية، دمشق 1934). لقد شك ديكارت في علوم زمانه كما شك فيها الغزالي، وعزم على تخليص نفسه من كل رأي يقارنه إمكان الغلط والوهم، وكان شكّه هذا طريقة أو وسيلة للوصول إلى اليقين، وهو شك مختلف عن شك الريبيّين، الذين لا يشكون إلاّ للشك نفسه. قال: «لقد كانت غايتي أن أثق بصحة ما أعلم، وأن أبني علومي على الصخر، والصلصال، لا على المتحرّك من الرمال». وهذا القول يدل على أن مطلوبه إنما كان البحث عن حقائق الأمور، فالفرق إذن بين شكّه وشك الريبيّين عظيم جدًّا. إن شك الريبيّين غاية فلسفتهم، ونهاية استدلالهم، أما شك ديكارت فهو شك موقت، لا بل هو بداية البحث عن الحقيقة، وإذا كان شك الريبيّين تنازلًا عن حقوق الفكر، وإنكارًا للعقل، فإن شك ديكارت إيمان بالعقل، وعزم محقق على الوصول إلى اليقين. وهذا كله يدل على أن شك الريبيّين مذهب فلسفي، أما شكّ ديكارت فهو طريقة بحثٍ لا غير. ولنبيّين الآن صفة هذا الشك ومداه، ولنذكر مراحله المختلفة.

أبطل ديكارت أولًا شهادة الحواس، كما فعل الغزالي فقال ان الحواس تخدعنا أحيانًا، ومن الفطانة أن لا نثق بمن خدعنا مرة واحدة.

ثم أبطل أيضًا شهادة العقل نفسه، فقال ان العقل يخدعنا أحيانًا، وبعض الناس قد يخطئون في الاستدلال على أبسط القضايا.

ثم أثار ديكارت كالغزالي شبهة أيّدها بحالة النوم. فقد قال الغزالي: «إننا نرى في النوم أمورًا، ونتخيَّل أحوالًا، ونعتقد لها ثباتًا واستقرارًا، ثم نستيقظ من النوم، فنعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتنا ومعتقداتنا أصل ولا طائل. وإذن بم نأمن أن يكون جميع ما نتصوّره في اليقظة كالذي نتصوَّره في النوم أمرًا خياليًّا لا حاصل له؟!» (راجع المنقذ، ص 72، ومقالة الطريقة، القسم الرابع).

وزاد ديكارت على ما تقدّم، فقال: «ربما كان هناك «شيطان ماكر» يعبث بعقلي، فيريني الباطل حقًّا، والحقّ باطلًا، ويجعلني اخطئ بالرغم مما قد يكون لدي من يقين عقلي.

ولكنني أستطيع أن أحمي نفسي من هذا الشيطان الماكر، إذا عزمت منذ الآن على رفض كل قضية يخالجني الشك فيها».

فأنت ترى أن نطاق الشك عند ديكارت يمتد إلى جميع الأشياء، الحسية، والعقلية، ولن شكّه، كما قلنا، لم يكن إلاّ وسيلة. فهو يدعونا إلى إنكار ما تلقيناه من العلوم حتى يظهر لنا معيار اليقين. فإذا ما ظهر لنا هذا المعيار عدنا إلى العلوم، وأثبتناها واحدًا واحدًا. إننا لا نهدم الدار التي نسكنها إلاّ لنعيد بناءها من جديد على أساس ثابت الأركان، فهل هناك أساس ثابت يضمن لنا تشييد هذا البناء؟

إن شيئًا واحدًا يبقى في معزل عن الشك في نظر ديكارت، وهذا الشيء هو الفكر. **أنا أفكّر**: هذه حقيقة لا ريب فيها. نعم إنني أستطيع أن أشك في المحسوسات، وأستطيع أن أكذب العقليات، وأستطيع أن أشك في أنني أفكر، ولكن هذا الشك المسيطر عليَّ يقتضي بالضرورة أيضًا أن أكون مفكرًا. قد أشك في كل شيء، وأخلي ذهني من جميع الحقائق، فأشك في وجود الأرض وسكّانها، والسماء وكواكبها، وأتوقف عن كل حكم، لكنه يبقى مع ذلك لديّ شيء محقق، وهذا الشيء هو أنني أفكّر. لست أستطيع أن أنكر أنني أفكر حين أشك، وأنني، عندما أفكر أو أخطئ في التفكير، موجود بالضرورة. **أنا أفكّر، إذن أنا موجود** *(Cogito ergo sum)* (التأملات: التأمل الثاني؛ المبادئ، الباب الأول، المادة 7).

ما هي قيمة الأسباب التي حملت ديكارت على الشك؟

لقد بيّن الفلاسفة المتأخرون أن هذه الأسباب لا تورث الشك دائمًا. قالوا: إذا كانت الحواس تخدعنا أحيانًا، فإن هناك وسيلة لمعرفة الحالات

التي تخدعنا فيها. إن علماء النفس يقولون لنا ان الحواس لا تخدعنا إلاّ إذا طلبنا منها أكثر مما تستطيع أن تعطيه. فنحن نخطئ هنا لأننا نطلب من الحاسة أن تطلعنا على شيء هو من اختصاص الحواس الأخرى، أو لأننا نتوهم أن من وظيفة الحواس أن تطلعنا على طبائع الأشياء.

وإذا كان الاستدلال يخدعنا فإن المنطق يعطينا قواعد لتمييز الحق من الباطل في الأفكار، والصدق من الكذب في الأحكام. فالمنطق يعصم أفكارنا من الوقوع في الخطأ، ويُعيننا على تمييز الصحيح من الفاسد في الحدود المعرِّفة للماهيات، والحجج المفيدة للتصديقات.

وإذا كانت الأحلام تخدعنا فإنه من السهل علينا تمييز حالة اليقظة من حالة النوم. ففي اليقظة تكون التصورات متصلة والأفكار منسجمة، وتكون الإدراكات متفقة مع الذكريات ومنسجمة مع أحكام العقل.

أما إشكال الشيطان الماكر أو الإله الخدَّاع فهو إشكال لا طائل تحته. لأنه لو كان صحيحًا لما استطعنا رفعه. إن في وسع هذا الشيطان الماكر أن يوهمني بأنني أفكر حين لا أفكر في شيء، وأن يجعلني أعتقد أنني موجود حينما أكون غير موجود. دع أن فكرة الإله الخدّاع فكرة متناقضة. إن الإله لا يكون خدّاعًا، والشيطان الماكر، مهما يكن مضللًا، لا يستطيع أن يقنطنا من رحمة الله.

لقد كان في وسع ديكارت أن يورد أسبابًا أخرى للشك أقوى من هذه الأسباب، ولكنه أسرع في التشكك على النحو الذي فعله الفلاسفة من قبل، ولم يبحث عن أسباب أعمق من هذه لعلمه بأن شكه موقت سيخرج منه إلى اليقين. وهو، كما قيل، شك منهجي، لا شكّ وجودي، لا بل هو محاولة منظمة للوصول إلى اليقين. ومثل ذلك الشك أدنى إلى أن يكون نشاطًا عقليًّا مرتبًا من أن يكون ميلًا إلى الانحدار في هوّة الريب (ديكارت، عثمان أمين، ص 106). ولكن هل استطاع ديكارت أن يخرج بعد ذلك

من الشك؟ لقد كان موقف الشك الذي وقفه موقفًا هدّامًا خطرًا. وليس من السهل على من شكَّ في أحكام العقل، أن يعود إلى اليقين، بالاعتماد على أحكام العقل. نعم ان هناك حقيقة واحدة لا يمكن الشك فيها، وهذه الحقيقة هي «الكوجيتو». ولكن كيف يمكننا الرجوع إلى اليقين، ونحن قد كذَّبنا الحقائق العقلية، التي هي أساس الاستدلال، وكذبنا الحواس وأيّدنا ذلك بحالة النوم، وفرضنا شيطانًا ماكرًا يعبث بأفكارنا. لقد وضع ديكارت نفسه، بعد انكار الضروريات العقلية، موضعَ رجل يسير في الظلام وحده، فلمّا خاف أن يضلّ في سيره قطع رجليه، وثبت في الأرض، لا يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام. قال غارنيه: «لقد شك ديكارت في وجوده، وفي وجود الأجسام، وفي صدق القضايا الحسابية والهندسية، فوضع نفسه بذلك موضع العاجز عن استعادة الوثوق بهذه الحقائق، فهو لا يشبه، كما ظنّ، مهندسًا أراد أن يقيم بناء جديدًا على أساس ثابت أزال من تحته الرمل والتراب المتحرك، بل يشبه رجلًا حفر حفرة عميقة في الأرض أزال منها التراب الثابت والصخر الراسخ حتى بلغ هوّة فارغة» (Garnier, *Œuvres de Descartes,* II, p 4). وإذا كان ديكارت قد استطاع بالرغم من ذلك أن يبني فلسفته على هذا الشك الكلّي، فذلك يرجع، كما سترى، إلى كونه استنتج من الشك بغير دليل حقائق كان قد وضعها موضع الشك بغير سبب.

ومع أن ديكارت قد بالغ في اصطناع الشك حتى مدّ نطاقه إلى جميع الحقائق، فإن فكرة الشك عنده من حيث هي طريقة بحث ليست فكرة خاطئة. ومن الضروري أن نلاحظ هنا أن شك ديكارت هذا إنما هو شك صوري، لأنه لم يشك في معرفته إلاّ بعد أن ملأ نفسه من اليقين، ولم يبحث عن الحقيقة إلاّ لأنه وجدها، فأراد بذلك أن يبني الفلسفة على أساسٍ راسخ، ولكن هذا البناء الجديد الذي أقامه، إنما أنشأه على أنقاض البناء القديم الذي هدمه.

ومهما يكن من أمر، فإن هذا الشك الديكارتي شك نافع، وإذا استخدم بنظام وترتيب كان منهجًا صادقًا، وسبيلًا هاديًا إلى الحق.

المرحلة الثانية: من النفس إلى الله

ما هو هذا الوجود الذي أدركه حين أُدرك انني موجود؟ هل هو وجود عقلي، أم وجود مادي؟ إنني أعلم الآن أنني موجود مفكّر، ولا أعلم بعد هل أنا شيء غير هذا الموجود المفكر. وقولي أنني موجود مفكر يعني أنني موجود يعقل، ويشك، ويثبت، وينفي، ويريد، ولا يريد، ويُحسّ، ويتخيّل. (التأملات، التأمل الثاني). فكل هذه الظواهر هي من فعل الفكر. ولكنني، وأنا ذلك الموجود المفكر، أجهل في هذه اللحظة هل هناك عالم خارج فكري، وكل ما أعلمه الآن علم اليقين هو أنني موجود، لأنني أفكر، ولا أعلم شيئًا غير هذا.

هذا الجوهر المفكر الذي أقرّ الآن بوجوده هو جوهر متميّز عن البدن، وعن الأجسام، لا بل إن وجوده في نظري أشد وثوقًا من وجود الجسم. والسبب في ذلك أنني أعرف هذا الجوهر المفكر بالفكر نفسه. ولا أعرف الأجسام إلاّ بالفكر. فمعرفتي بالجوهر المفكر (أي النفس) هي إذن معرفة يقينية مباشرة، أما معرفتي بالجسم فهي معرفة غير مباشرة.

وإذن أول نتيجة لمبدأ «الكوجيتو» هي التمييز بين النفس والبدن. فالنفس جوهر روحاني طبيعته «الفكر»، وهذا «الفكر» لا ينطوي على شيء من الامتداد، كما أن الامتداد لا ينطوي على شيء من الفكر. وإذا كان الجسم ممتدًّا كانت طبيعته مختلفة تمام الاختلاف عن طبيعة النفس. إنني لا أستطيع الآن أن أقول هل لي بدن، وهل في الطبيعة أجسام. وغاية ما يمكن أن أقرّره في بدء هذه المرحلة هو أنني جوهر مفكّر عارٍ من الامتداد.

إن هذا «الكوجيتو»، الذي يطلعني على وجودي بأوثق الحدوس،

لا يطلعني على غير وجودي، بل يقرّر وجود نفسي المفكرة، ويتركني في عزلة تامة عن كل ما عداها من الأشياء. وهذه العزلة هي عزلة فكري الذي يدرك أنه موجود، فكيف السبيل إذن إلى الخروج من هذه العزلة، والوصول إلى إثبات وجود آخر غير وجود نفسي؟ لقد كان في وسع ديكارت أن يلتزم هذه النتيجة القصوى، وأن يكتفي بتقرير وجوده، وأن يبقى مخلصًا لهذا النوع من المثالية الذي يوافق روح منهجه. إلاّ أنه، كما سنرى، حاول الإفلات من عزلته، والتمس لفكره نقطة استناد خارج الفكر نفسه وهذه النقطة هي مصدر كل وجود، لا بل هي الضامن النهائي لكل حقيقة.

لقد كان أكثر الفلاسفة المتقدمين، إذ تمّ لهم إثبات الفكر، يبادرون إلى إثبت العالم الخارجي[1]، ثم يرتقون من وجود العالم الخارجي إلى إثبات وجود الله. فيقولون مثلًا أن العالم حادث ولكل حادث محدث، وهذا المحدث هو الله. أو يقولون أن العالم ممكن الوجود، ويرتقون من العلل المتناهية، التي اشتمل عليها العالم، إلى العلة الأولى الواجبة الوجود. أما ديكارت فقد نهج في ذلك منهجًا جديدًا، فأثبت أولًا وجود ذاته من حيث هي جوهر مفكر، ثم بدأ بالبحث عمّا يعرض له من أفكار، فوجد في نفسه فكرة مسيطرة على جميع الفكَر، وهذه الفكرة هي فكرة الكمال أو اللانهاية. ولقد صدق أحد الباحثين في قوله أن ديكارت «لم يشأ أن يعرف وجود الله بطريق العالم، بل زعم على عكس ذلك أن معرفة العالم بطريق الله أولى، فلم يعتمد على الأرض للصعود إلى السماء، بل أراد أن يهبط من السماء إلى الأرض، ولم يطلب إلى العالم أن يضمن له وجود الله، بل طلب

---

1 مثال ذلك صدر الدين الشيرازي الذي جعل المراحل في كتاب الأُسفار أربع مراحل: فالسفر الأول هو «من الخلق إلى الحق»، والسفر الثاني هو «بالحق في الحق»، والثالث هو «من الحق إلى الخلق بالحق»، والرابع هو «بالحق في الخلق».

إلى الله أن يضمن له وجود العالم» (لابرتونيير: دراسات عن ديكارت م 1، ص 36). ولإثبات وجود الله في نظر ديكارت ثلاثة أدلَّة:

الدليل الأول: إن شكّي في كثير من الأمور يدل على أنني موجود ناقص، لأن المعرفة أكثر كمالًا من الشك. وما كنت لأعرف أني موجود ناقص، لو لم تكن لديّ فكرة الموجود الكامل أو اللامتناهي. فأنا إذًا موجود ناقص يملك فكرة الكمال. فمن أين جاءتني هذه الفكرة؟ إنني لا أستطيع أن أخلق هذه الفكرة بنفسي ما دمت قد لاحظت أنني موجود ناقص، ومع ذلك فلا بدّ من أن يكون لهذه الفكرة علّة. إن العلّة المؤثّرة لها من الحقيقة والكمال ما لمعلولها على الأقل. فإذا كانت طبيعتي متناهية وناقصة، فإنه يلزم عن ذلك أنني لم أخلق بنفسي فكرة الكمال واللانهاية، لأنني موجود ناقص. وفكرة الكمال هذه ليست مستمدة من العدم. وإذن لا بد من أن يكون هناك موجود لانهائي كامل طبع هذه الفكرة على نفسي. وهذا الموجود اللانهائي الكامل هو الله.

ان نقطة الابتداء في هذا الدليل هي فكرة الكمال، وهذه الفكرة ليست تصورًا أبدعه العقل، وإنما هي معلول يجب البحث عن علته. فالمبدأ الذي استند إليه ديكارت في البحث عن علّة الكمال هو إذن مبدأ السببية، أو نتيجة من نتائح هذا المبدأ، وهي أنه يجب أن يكون للعلّة من الحقيقة والكمال ما لمعلولها على الأقل.

ما هي قيمة هذا الدليل؟ لننظر أولًا إلى مقدمتيه ونتيجته. فالمقدمة الصغرى في هذا الدليل هي حكمنا بأن لدينا فكرة الموجود الكامل أو اللانهائي. وقد اعترض على هذه المقدمة هوبس وغاسندي وكاتروس، فقالوا أن فكرة الكمال التي وجدها ديكارت في نفسه ليست موجودة لدى جميع الناس، وأن تصوّر اللامتناهي الكامل إنما هو تصوّر سلبي لفكرتَي المتناهي

والناقص اللّتين نجدهما في أنفسنا، وأن هذه الفكرة إذا وجدت في النفس فهي من صنع الذهن البشري، ألّفها من أفكار أخرى.

فأجاب ديكارت عن ذلك بقوله: إن هذه الفكرة ملازمة للعقل البشري، وإنها فطرية، وإنها موجودة عند الطفل بالقوة، وردّ عليهم أيضًا بقوله إن فكرة الكمال أو اللامتناهي ليست سلبية، وإنما هي إيجابية، كما أن التأليف بين الأشياء الناقصة لا يمكن أن ينتج فكرة الكامل، إن فكرة الكامل فكرة بسيطة، ملازمة لأذهاننا، وهي فكرة شديدة الوضوح، شديدة التميّز.

وأما المقدمة الكبرى في هذا الدليل فهي قول ديكارت: «يجب أن يكون للعلّة من الحقيقة والكمال ما لمعلولها على الأقل». فهذا القول يعني أن الأكثر لا يأتي من الأقل، وأن الوجود لا يصدر عن العدم، وفكرة الكمال هذه لا يمكن أن تأتي من العقل، لأن العقل محدود، فلا بد لها إذن من علّة خارجية تتجاوز حدود العقل. أضف إلى ذلك أن بين فكرة المتناهي وفكرة اللامتناهي فرقًا جوهريًا. وهو أن فكرة اللامتناهي ليست فكرة مؤلفة من الحقائق المتناهية المحدودة، ولا هي ذات حدود شبيهة بحدود المتناهي، وإنما هي فكرة أصلية لا نستطيع أن نصطنعها، وهي أغنى من جميع الفكَر، وأغنى من الفكر الذي ارتسمت عليه.

وهاتان المقدمتان، إذا نحن سلمنا بهما، كان لا بد لنا من قبول النتيجة، وهي أن هناك موجودًا كاملًا لا متناهيًا، طبع على عقولنا صورة الكمال واللانهاية. وهذا الموجود الكامل واللانهائي هو الله.

الدليل الثاني: أما الدليل الثاني على وجود الله فهو متمم للدليل الأول؛ يقول ديكارت فيه: «أنا أعرف الآن أنني موجود ناقص، وفي ذهني فكرة الموجود الكامل، فما هي إذن علّة وجودي؟ إنني لا أستطيع أن أتصوّر نفسي خالقًا لوجودي، لأنني لو كنت خالق وجودي لما حرمت نفسي شيئًا من الكمال الذي ينقصني، إذ الإرادة تنزع حتمًا إلى ما تظنه خيرًا أعظم.

ولو كنت قادرًا على أن أمنح نفسي جميع الكمالات، لأصبحت موجودًا كاملًا، فلست إذن خالق نفسي، لأن الذي يستطيع أن يهب الوجود، يستطيع أيضًا أن يهب الكمال. فوجودي إذن تابع لعلة تتضمن كل ما يتصوّر من الكمال، وهذه العلّة هي الله».

إن هذا الدليل مستند إلى المبادئ التالية:

1- إني أملك في نفسي فكرة اللامتناهي والكامل.

2- ان لكل معلول علّة.

3- ان الإرادة تنزع حتمًا إلى ما تظنّه خيرًا أعظم.

لقد بيّنا قيمة المبدأين الأول والثاني عند مناقشة الدليل الأول. ونقول الآن أن في المبدأ الثالث شيئًا من الضعف، لأن التجربة تكذبه أحيانًا. وغاية ما يمكن أن يقال فيه أن الإرادة كثيرًا ما تنزع إلى ما تشعر به لا إلى ما تتصوّره. وقد يتصوّر المرء الخيرَ ولا ينزع إليه، كما أنه قد ينزع إلى الخير من غير أن يتصوّره. ثم ان في هذا الدليل موازنة عجيبة بين خلق الكائن وخلق كمالاته، فديكارت يقول: «لو كنت خالق نفسي لأعطيت نفسي جميع الكمالات، ولكن الكمال صفة من صفات الوجود، وخلق الصفة أسهل من خلق الوجود نفسه».

الدليل الثالث: يُسمّى هذا الدليل بالدليل الانطولوجي *(Preuve Ontologique)* أو الدليل الوجودي. وقد سُمّي كذلك لأنه يحاول أن يستخرج وجود الله من معنى الإله نفسه، كما تستخرج خواص المثلث من تعريفه، وخلاصة هذا الدليل:

الكامل هو الذي يملك جميع الكمالات.

والوجود كمال.

إذن الكامل موجود.

إن هذا الدليل يبدأ بتعريف الكامل تعريفًا وجوديًا. ويستنتج من كمالاته

وجوب وجوده. ومعنى ذلك ان الله موجود، لأن ماهيته تتضمّن وجوده. قال ديكارت: «لا شيء في براهين الهندسة يجعلني أتيقن وجود موضوعاتها خارج الذهن. مثال ذلك: كنت أرى جيدًا أنني إذا فرضت مثلثًا، لزم من ذلك ان تكون زواياه الثلاث مساوية لزاويتين قائمتين. ولكني لم أجد في ذلك ما يجعلني أتيقن أن في العالم مثلثًا ما، في حين أنني إذا رجعت إلى امتحان معنى الموجود الكامل الذي أتصوّره، وجدت أنه يتضمّن الوجود على نحو ما يتضمّن معنى المثلث ان زواياه الثلاث مساوية لزاويتين قائمتين... ويترتب على ذلك أن وجود الله، الذي هو ذلك الكائن الكامل، لا يقل يقينًا عن أي برهان من براهين الهندسة» (مقالة الطريقة، القسم الرابع). وهذا القول يدلّ على أن ديكارت يرى أن معنى الموجود الكامل يتميّز بصفة لا يشاركه فيها غيره، وهي أن موضوعه موجود خارج الذهن، وذلك لأن الوجود الخارجي جزء مقوّم لمعنى الموجود الكامل، داخل في مفهومه. ومن التناقض أن نفرض أن الكامل المطلق يمكن أن يكون غير موجود.

إن أهم اعتراض يمكن أن يوجّه إلى هذا الدليل هو قولنا: ان ارتباط التصورات لا يكفي لإثبات المطابقة بينها وبين الأشياء الخارجية. والضرورة المنطقية ليست ضرورة واقعية. فإذا كنت لا أستطيع أن أتصوّر معنى الموجود الكامل من دون أن يكون معنى الوجود من لوازمه، فإن ذلك لا يستلزم أن يكون الكامل موجودًا بالفعل. ولقد أبطل كانت الدليل الأنطولوجي ما أبطل جميع الأدلة العقلية، وأورد على ذلك اعتراضات كثيرة لا محل لذكرها هنا.

يقول ديكارت:

«إذا كنت لا أستطيع أن أتصوّر الكامل إلاّ موجودًا فيلزم عن ذلك أن الوجود غير منفصل عنه... فهو إذن موجود حقًّا». ولكننا نجد في هذا

القول شيئًا من المغالطة، لأن تصوّر الكامل لا يستلزم أن يكون الكامل موجودًا حقًّا، وإنما الذي يلزم عن ذلك هو أن معنى الوجود المتصور في الذهن غير منفصل عن معنى الإله الكامل باعتباره متصوّرًا في الذهن أيضًا.

تلك هي براهين ديكارت الثلاثة. وهي في الحقيقة لا تختلف بعضها عن بعض إلاّ اختلافًا صوريًّا، أما مبدؤها فهو واحد، لأنها تستند كلها إلى فكرة الكمال، وترتقي من هذه الفكرة إلى إثبات الموجود اللانهائي. وربما كان الدليل الأول أوفى بمقصود ديكارت من الدليلين الآخرين، لأن الدليل الثاني لم يضف في الحقيقة إلى الدليل الأول إلاّ فكرة وجودنا، ولم يستخرج من فكرة وجودنا إلاّ فكرة الكمال التي اشتمل عليها الدليل الأول. أما الدليل الثالث فإنه، بالرغم من القياس الذي اشتمل عليه، لا يختلف في حقيقته عن الدليلين السابقين، لأنه يقوم هو أيضًا على فكرة الكمال، وعلى إدراكنا إياها ببداهة العقل. ولولا هذا الحدس العقلي لما تصوّرنا الموجود الكامل متصفًا بجميع الكمالات.

وإذا سُئلنا الآن ما هي الصفات التي يوصف بها الكائن الكامل، قلنا: إن من صفاته أن يكون لا متناهيًا، واحدًا، أزليًّا، دائمًا، مستقلاًّ بذاته، عالمًا بكل شيء، قادرًا على كل شيء، مصدر كل حقيقة وخير. وهو قد خلق الحقائق الأبدية بمحض حريته ومشيئته، وقد كان في وسعه أن يفعل غير الذي فعله، وفي وسعه أيضًا أن يغير ما أمر به، وهو قادر على أن يحدث المتناقضات، وفي مقدوره أيضًا أن يبيد العالم عندما يشاء، ولا بقاء للعالم إلاّ لأن الله يديم بقاءه، ويخلقه في كل لحظة، وليس في العالم كائن يستطيع البقاء بنفسه لحظة واحدة إلاّ بمشيئة الله. وإذا انقطع الإبداع عاد الكون إلى العدم فالله إذن مبدع، ومبقٍ، ومعنى الإبقاء عند ديكارت هو الإبداع المتصل الدائم، وما من كائن يستطيع أن يديم بقاءه، أو أن يتحرّك

أو أن يفعل بذاته ولذاته، بل الجواهر المخلوقة كلها منفعلة قابلة، لا توجد، ولا تفعل، إلاّ بتأثير علّة فاعلة واحدة، وهذه العلّة الفاعلة هي الله.

وإذا قيل: إذا كانت الحقائق الأبدية خاضعة لإرادة الله يبطلها حينما يشاء، فما قيمة قوانين الطبيعة؟ أجاب ديكارت عن ذلك بقوله أن الله ثابت لا يتغيّر، وثباته هو الذي يضمن لنا ثبات الأشياء، وثبات قوانين الطبيعة.

وممّا يزيد يقيننا في الحقائق الأبديّة ةالقوانين الطبيعيّة أن الله صادق، لا يكذب، ولا يضلّل. وصدقه هو العماد الوحيد لكل حقيقة، وهو لا يتصرّف في أمورنا تصرّف الشيطان الماكر، ولا تصرّف المخادعين.

ونظرية الصدق الإلهي في فلسفة ديكارت مطابقة لنظريته النفسية في الحكم. فالعقل عنده متناهٍ، أما الإرادة فغير متناهية. ومن هذا التباين بين العقل والإرادة ينشأ الخطأ، فنحن لا نخطئ لأن الله يضلّلنا، بل نخطئ لأن إرادتنا تتجاوز حدود عقلنا، ونحكم قبل أن تستبين لعقلنا الأمور، ولكننا إذا توقفنا علن الحكم، استطعنا بحريتنا أن نربط أفكارنا بعضها ببعض، وأن نتجنب الخطأ، ونسهم إلى حدٍّ ما في صنع الحقيقة.

وها هنا إشكال مشهور في تاريخ الفلسفة الديكارتية. وهو الإشكال المعروف باسم الدور الديكارتي. وخلاصته أننا أقمنا الدليل على وجود الله بالاعتماد على مبدإ البداهة، وهو أن كلّ ما نتصوّره بوضوح وتميّز حق. ولكننا بعد أن تمَّ لنا ذلك، عدنا إلى تصوراتنا، وقلنا أن ما نتصوّره بوضوح وتميز لا يكون حقًّا إلاّ لأن الله موجود. فنحن قد استندنا إذن إلى سلطان البداهة في إثبات وجود الله، ثم استندنا إلى وجود الله في تأييد سلطان البداهة. وهذا دور.

ولكن ديكارت قد رد على هذا الدور بقوله أنه يفرّق بين الاستدلالات العقلية أو النظرية والأصول البديهية التي تُعرف بالحدس، قال: إننا محتاجون

إلى الضمان الإلهي في الاستنتاج والذاكرة، أما في الحقائق البديهية والحدسية فنحن غير محتاجين إليه.

وهذا الرد لا يقطع مظانَّ الاشتباه، لأن ديكارت قد شك في كل شيء، شك في المحسوسات والقضايا البرهانية، كما شك في البديهيات العقلية، فشكه لم يكن مقصورًا إذن على الاستدلال. وهذا الشك في البديهيات الواضحة بذاتها مناقض لقوله أن الضمان الإلهي ليس ضروريًّا لها. فإما أن تكون البديهيات واضحة بذاتها غير محتاجة إلى الضمان الإلهي، وإما أن تكون محتاجة إلى الضمان الإلهي لعدم وضوحها بذاتها. وهذا كله دليل على أن الدورَ باقٍ رغم محاولته إبطاله. ولو فعل ديكارت ما فعله الغزالي، فعاد إلى اليقين بالنور الذي قذفه الله في القلب، لما احتاج إلى نظم الادلة، وترتيب البراهين، ولكنه أراد أن يزن كل شيء بميزان العقل والبداهة، فوقع فيما وقع فيه من الدور.

المرحلة الثالثة: من الله إلى العالم

إنني لم أثبت حتى الآن إلاّ حقيقتين هما:

1- وجود ذاتي المفكرة.

2- ووجود الله.

فأنا أعلم أنني موجود لأنني أفكر، وأعلم أيضًا علمًا يقينيًّا لا يقارنه الشك بأن الله موجود. ولولا معرفتي بالله لبقيت في عزلة عن كل شيء. فوجود الله يضمن لي وجود العالم الخارجي، ويضمن لي كل علم، وكل يقين. هذا الذي أشار إليه سكرتان بقوله أن ديكارت اعتمد على المبدأ الكلي (أي على الله) في استنباط مبادئ الأشياء، وإعادة بناء الوجود الحقيقي. ولنبيّن الآن كيف استنبط ديكارت يقينه بوجود العالم الخارجي من يقينه بوجود الله.

إن حواسنا تطلعنا على أشياء نعرف انها غير صادرة عنا. فما هي حقيقة هذه الأشياء؟ هل هي صور وأفكار حقيقية، أم هي صور وهمية؟ إنني أعلم أنني موجود، وأعلم أيضًا أن الله موجود، فلماذا لا تكون هذه الصور والأفكار صادرة عن نفسي، أو صادرة عن الله الذي طبعها على نفسي؟ ألا أستطيع أن أنكر وجود العالم الخارجي؟ ألا أستطيع أن أقول إن الله قد أحدث هذه الصور في نفسي، من دون أن يكون لها حقيقة خارجية؟ لماذا لا تكون فكرة الامتداد، والحركة، والرائحة، واللون، محدثة فيَّ بإرادة الله؟ إذا صح ذلك كان هناك وجودان لا ثالث لهما، هما نفسي المفكرة، والله. وفي هذه الحالة لا حاجة إلى القول أن هذه الصور التي في نفسي مطابقة للموجودات الخارجية الحقيقية.

ولكن الشيء الذي ينقذنا من هذه الشبهة هو أن الصور التي ندركها تحمل معها اعتقادًا راسخًا بأنها مطابقة للحقائق الخارجية، وكل تصوّر مصحوب بالتصديق. وهذا الاعتقاد بمطابقة الصور التي في الأذهان للحقائق الخارجية التي في الأعيان لا يمكن أن يكون وهمًا، لأنه لو كان كذلك لكان الله خادعًا ومضلّلًا. وإذن العالم الخارجي ليس تصوّرًا ذهنيًّا فحسب، ولا هو الله نفسه، وإنما هو ذو وجود حقيقي، مستقل عن نفسي، ومتميّز عن الله. والله قد خلق فيّ ميلًا قويًّا إلى الاعتقاد أن فكرة الامتداد التي أتصوّرها حادثة في نفسي بتأثير شيئ خارجي ممتد. ولو كان الأمر على عكس ذلك لكان الله مضللًا. إن ميلي الطبيعي القوي إلى الاعتقاد بوجود العالم الخارجي، ميل صادق لا ضلال فيه، لأنه إنما أتاني من الله، وهو الموجود الكامل الصادق الذي لا يضلّ عباده. فأنا إذن قد أيقنت بوجود الأشياء الخارجية، لأنني أيقنت بوجود الله. وأستطيع منذ الآن أن أثق بالنتائج التي تفضي إليها الاستدلالات العقلية، ما أستطيع أن أثق بالمعلومات التي تأتيني بطريق الحواس. وسبيل ذلك كله أن أراعي شرطًا واحدًا أساسيًّا، وهو

أن يكون لديّ دائمًا فكرة واضحة بيّنة متميّزة عن كل مرحلة من مراحل المعرفة. نعم إني قد أقع في الخطأ، وقد أضل طريقي، ولكنني أكون حينئذٍ أنا وحدي المسؤول عن ضلالي، لأنني حرّ، وإرادتي لا متناهية.

ينتج من كل ما تقدم أن وجود الله في نظر ديكارت هو الذي يضمن لنا وجود العالم الخارجي. ولكن ما هي حقيقة هذا العالم؟ هل وجوده الحقيقي مطابق تمام الانطباق لما تطلعنا عليه حواسنا، أم تختلف حقيقته عن هذه الظواهر التي تبدو لنا؟ إن حواسنا لا تطلعنا إلاّ على الظواهر، وهي غامضة مبهمة لا تهدينا سواء السبيل، فإذا كان هدفنا البحث عن أفكار واضحة متميّزة، فما علينا إلاّ أن نذهب إلى ما وراء هذه الظواهر. والحقيقة التي نجدها وراء هذه الظواهر هي الجوهر. وهو الذي يحمل الأعراض. لقد عرف ديكارت الجوهر بقوله أنه الشيء الذي يوجد بذاته، أو الشيء الذي وجوده لا يحتاج إلى شيء آخر يفيده الوجود. فلو صح هذا التعريف لما كان في الوجود جوهر غير الله، كما قال اسبينوزا، لأن الله وحده هو الموجود بذاته، ولا شيء في العالم يمكن أن يوجد، أو أن يبقى لحظة واحدة إلاّ بالله. إلاّ أن ديكارت لم يسلم بهذه النتائج التي يسوق إليها تعريفه للجوهر، بل صحح بعد ذلك هذا التعريف بقوله أن معنى الجوهر لا يطلق على الله وعلى مخلوقاته بصورة واحدة. فإذا أطلق على الله دلّ على الموجود بذاته، وإذا أطلق على المخلوقات دلّ على الشيء الذي يحتاج وجوده إلى وجود الله لا غير، أما الأشياء التي يحتاج وجودها إلى وجود العلل المخلوقة، فهي أعراض لا جواهر.

إننا لا نعرف الجوهر بذاته معرفة مباشرة، لأن الجوهر ليس شيئًا محسوسًا. ومن الصعب، لا بل من المحال تخيّل الجوهر، أو تصوّره عاريًا من الصفات والأعراض. ولكل جوهر في نظر ديكارت صفة أساسية تلزم عنها صفاته الأخرى وخصائصه. فالصفة الأساسية في النفس هي الفكر،

والصفة الأساسية في المادة هي الامتداد. إن كل ظاهرة من ظواهر النفس حالة من حالات الفكر، أو تغيّر من تغيراته. وما يظهر على مسرح النفس من إرادات، ورغائب، وعواطف، وتصورات، إنما هو كيفية من كيفيات الفكر، أو عرض من أعراضه. وكذلك الامتداد، فهو الصفة الأساسية المقوّمة للمادة. إن جميع خواص المادة تفرض وجود الامتداد، لا بل هي إحدى كيفيات الامتداد أو أحد تغيّراته. ومن المحال تصوّر الجسم عاريًا من الامتداد، كما أنه لا بقاء للمادة المستقلة عنه، فالامتداد هو إذن ماهية المادة. وهو وحده فكرة متميّزة واضحة، وهو وحده فكرة دائمة باقية وراء التغيرات الحسية. يقول ديكارت: «لنأخذ مثلًا قطعة من شمع العسل، حديثة العهد بالخليّة. إن هذه القطعة لم تفقد بعد حلاوة العسل، ولم يزل فيها شيء من رائحة الزهر الذي أخذَت منه؛ ثم أن لونها، وحجمها، وشكلها، أشياء ظاهرة للعيان، وهي الآن جامدة باردة نستطيع أن نلمسها، وإذا نقرنا عليها أحدثت صوتًا. ولكننا إذا وضعناها بالقرب من النار شاهدنا عند ذلك ان طعمها يتغيّر، ورائحتها تتلاشى، ولونها يتبدل، وشكلهما يضيع، وحجمها يزيد، وتنقلب إلى سائل، وتسخن حتى تكاد لا تلمس، ولا ينبعث منها صوت مهما تنقر عليها. فهل زالت قطعة الشمع، أم هي باقية بالرغم من هذه التغيرات التي طرأت عليها؟ يجب أن نقرّ بأنها باقية. هذه معرفة واضحة مميّزة؟ إن ما كنا نعرفه عنها كذلك ليس أمرًا محسوسًا، لأن الأشياء التي تقع تحت الحواس من ذوق، وشم، وبصر، ولمس، وسمع، قد تغيّرت كلها» (التأملات، التأمل الثاني). ويستنتج ديكارت من هذا المثال المشهور أن الشمعة ليست تلك الرائحة، ولا ذلك اللون، ولا تلك المقاومة، ولا ذلك الشكل، وإن الحواس لا تدركها في جوهرها، بل تدرك ظواهرها. والذهن وحده قادر على إدراك جوهر قطعة الشمع. وهذا الشيء الذي يدركه الذهن بوضوح وتميّز إنما هو امتدادها، وهو الصفة الأولى الأساسية

(Qualité première)، وهو جوهر الجسم. أما الألوان، والأصوات، والروائح، والطعوم، فهي صفات ثانية *(Qualité seconde)*، وليس لها وجود بذاتها.

وهذا كله يدل على أن ديكارت استطاع أن يجرّد المادة من جميع صفاتها، ولم يبق لها إلاّ صفة الامتداد والحركة، بل الامتداد والحركة هما وحدهما الشيئان الخارجيان الموجودان حقًّا. وينشأ عن ذلك أنهما الشيئان الوحيدان اللذان يتألف منهما موضوع علم الطبيعة. وإن كل شيء في الكون يمكن أن يفسر تفسيرًا آليًّا. «أعطني امتدادًا وحركة أصنع لك العالم.» فجميع أحوال المادة وظواهرها ترجع في نظر ديكارت إلى الحركة، والطبيعة المادية بأسرها ليست إلاّ سلسلة من الحركات.

وإذا كان العالم المادي كلّه امتدادًا، وجب أن يتصف بخواص الامتداد كلها. وهذه الخواص هي خواص هندسية تدرك وتعقل بالذهن، وهي خاضعة لشرائط البرهان الرياضي. فالمادة ترجع إلى الامتداد، والفيزياء تنحلّ إلى الهندسة. وكما أنّه لا مادّة بلا امتداد، فكذلك لا امتداد بلا مادة. وإذن العالم ملاء، لا خلاء فيه، لأن الخلاء يستلزم عدم المادة. ولما كان العالم كله ملاء كانت حركات الأجسام فيه دائرية، ذلك لأن الجسم كلما انتقل من مكان إلى آخر دفع في طريقه أجسامًا أخرى، وهذه الأجسام تدفع غيرها، حتى تعود الحركة إلى نقطة بدايتها، فجوهر الأشياء المادية واحد وهو الامتداد، وهو خاضع لقوانين الحركة، وليس في عالم المادة إلاّ علم واحد، هو علم المكانيك، وجميع العلوم الأخرى مبنية عليه.

وإذا كان الله، وهو الموجود الكامل، خالقًا للطبيعة، فإن كل شيء في العالم يجب أن يخضع للقوانين التي أرادها الله، ولما كان هذا الخالق ثابتًا لا يتغيّر، كانت كميّة الحركة في العالم ثابتة.

وهذا كله يدل على أن كل شيء في العالم المحسوس يجري بصورة آلية، أي يتم بمجرد تطبيق قوانين الحركة. فكأن العالم المادي قضية

رياضية، تنبسط وفقًا لقوانين المكانيك. وكذلك الأجسام العضوية فهي خاضعة أيضًا لهذه الآلية. وليس علم الفيزيولوجيا إلاّ علمًا فيزيائيًّا أكثر تعقيدًا. والجسم الإنساني نفسه إنما تفسّره قوانين الآلية الكلية. ومن نتائج هذه الآلية قول ديكارت «إن الحيوان آلة متحركة». فهو لا يجد في العالم، كما قدمنا، إلاّ جوهرين اثنين هما النفس المفكرة، والمادة الممتدة. ولا وسط بينهما. ولا يوجد في العالم إلاّ نوعان من القوانين: قوانين الفكر، وقوانين المادة. فكل ما ليس بنفس فهو مادة خاضعة لقوانين الحركة. وكل ما ليس بمادة فهو نفس خاضعة لقوانين الفكر. إن جسم الإنسان من حيث هو جسم يدخل في زمرة الجواهر الممتدة الخاضعة لقوانين المكانيك. وجميع الإحساسات والانطباعات الحادثة في المخ، وجميع الأهواء، إنما هي آليات مختلفة، ناشئة عن حركات الأعصاب، وعن حركة الأرواح الحيوانية، التي تنتقل من المخ إلى الأعصاب، والقلب، والعضلات، كما تنتقل صاعدة من القلب إلى المخ. وحركة الأرواح الحيوانية هذه تفسر لنا تأثير الجسم في النفس. لأن وحدة الوجود الإنساني قائمة على هذا التأثير المتبادل. وفي الإنسان يلتقي جوهر الفكر بجوهر الامتداد، ويتّحد عالم النفس بعالم المادة. فإذا أرادت النفس أن تؤثر في الجسم، أثّرت أولًا في الغدّة الصنوبرية، التي هي أشبه شيء بالوسيط بينها وبينه. وهذه الغدة الصنوبرية تتلقى الأوامر من النفس، فتوصلها إلى الأعصاب والعضلات، كما تتلقى من الأعصاب الانطباعات الواردة من العالم الخارجي، فترسلها إلى النفس. أما الحيوان فهو جسم بلا نفس مفكرة. أو هو، في الحقيقة، جوهر ممتد، خاضع لقوانين الحركة، أو آلة شبيهة بالآلات المكانيكية. فيه لوالب ودواليب وغير ذلك من الأعضاء. وإذا كان الحيوان شبيهًا بالآلة المعقدة، التي لا تتحرك إلاّ إذا شدّت لوالبها ودواليبها، كان كل شيء فيه خاضعًا

لقوانين المادة والحركة. فالجسم الحي ليس إلاّ امتدادًا ذا صفات خاصة. وهو يتحرك حركة آلية تدخل دراستها في اختصاص العالم الفيزيائي.

ينتج من كل ما تقدم أن فيزياء ديكارت مبنية على آرائه في علم ما بعد الطبيعة، أي على تصوّر المادة تصوّرًا عقليًّا محضًا. وليس للتجربة عنده إلاّ منزلة ثانوية. أما المنزلة الأولى فقد اختص بها الاستدلال العقلي. وما منح العقل الإنساني هذه الثقة إلاّ لأن العقل الإلهي متكفل به. ولكن منفعة التجربة عند ديكارت ترجع إلى أمرين: الأول أنها وسيلة من الوسائل التي تنذرنا إذا أخطأنا في استدلالنا. والثاني أنها تطلعنا على التأليف الواقعي الذي أراد الله إخراجه إلى الفعل من بين جميع التأليفات الممكنة. قال ديكارت: «لقد كان الله قادرًا على تنظيم الأشياء على وجوه مختلفة لا متناهية. وبالتجربة وحدها، لا بقوة الاستدلال، نستطيع أن نعرف أي هذه الوجوه قد اختاره الله» (مؤلفات ديكارت، طبع أدام وتانري، م9، ص134). وفي هذا القول جرأة عظيمة تدل على أن العالم الطبيعي لا يقتصر في استدلاله على تفسير العالم الحقيقي، بل يرتقي بعقله أيضًا إلى تفسير جميع العوالم الممكنة. ولقد استطاع ديكارت بالاعتماد على الاستدلال العقلي أن يكشف قانون الإنكسار المعروف، كما أنه استطاع أن يؤسس علمًا جديدًا هو علم الهندسة التحليلية، وأن يستبدل بدراسة الأشكال الهندسية دراسة التوابع الجبرية. فديكارت قد أرجع علم الهندسة إلى علم الجبر، كما أرجع الفيزياء إلى الهندسة والمكانيك. وإرجاع الهندسة إلى الجبر أدّى إلى إظهار وحدة العلم الرياضي، وإلى تصوّر الكون كله تصوّرًا رياضيًّا، وهو في ذلك متفق مع غاليله الذي قال أن كتاب العالم مكتوب بلغة الرياضيات، وأن حروفه مثلثات ودوائر وأشكال هندسية. هذا الذي أشار إليه ديكارت بقوله: «إن هذه السلاسل الطويلة من الحجج البسيطة والسهلة، التي تعوَّد علماء الهندسة استعمالها للوصول إلى أصعب براهينهم، أتاحت لي أن أتخيّل أن

جميع الأشياء التي يمكن أن تقع في متناول المعرفة الإنسانية تتعاقب على صورة واحدة» (مقالة الطريقة، القسم الثاني).

إن هذه النظرية الديكارتية قد عمّت العلم الحديث في أيّامنا هذه. لأن العلماء يفسرون الآن جميع الظواهر الفيزيائية بالحركات على النحو الذي فعله ديكارت، ويميلون إلى تطبيق الرياضيات في دراسة جميع الظواهر، فليس ديكارت إذن مؤسس الفلسفة الحديثة فحسب، وإنما هو، كما قال بعضهم، أبو الفيزياء الحديثة.

4- فلسفة الأخلاق[1]

إن معرفة الفلسفة الصحيحة، والفيزياء الحق معرفةً يقينية تعيننا على استنتاج مبادئ الأخلاق. وموضع فلسفة الأخلاق هو توجيه أفكارنا، وهداية أعمالنا على الوجه الملائم في سبيل الوصول إلى السعادة، والطريقة الوحيدة المؤدية إلى السعادة هي العمل وفقًا لمبادئ العقل.

فأول مبدأ تعلمنا إياه فلسفة الأخلاق هو أن نسلك سلوكًا موافقًا لشروط العالم الذي خلقه الإله الكامل. ولمّا كان هذا الإله الكامل غير متناهٍ كانت قدرته واسعة وقضاؤه نافذًا، وهو لكماله لا يمكن أن يكون إلاّ كريمًا. وإذن لا مردّ لما يحدث لنا، لأنه إنما يحدث من أجل خيرنا لا من أجل مضرتنا، وحدوث الآلام نفسها لا يخلو من حكمة. فيجب علينا إذن أن نقبل جميع الحوادث في ثقة تامّة، وأن نبني ثقتنا بها على محبَّة الله.

والمبدأ الثاني الذي تعلمنا إياه فلسفة ما بعد الطبيعة، هو أن نفوسنا روحية محضة، وأنها متميّزة تمامًا عن الأبدان. وكما أن مال الله هو أساس الثقة به في علم الأخلاق، ومرجع قوانين الحركة في علم الطبيعة، فكذلك التمييز بين النفس والجسد هو أساس الآلية الكلية في الطبيعة، وأساس

---

1 إننا نلخص هنا ما كتبه جيلسون في مقدمة مقالة الطريقة: طبع فرين، باريس 1925، ص 23-26.

التجرّد من الخيرات الدنيوية في عالم الأخلاق. إن النفس التي تعلم أنها مستقلة عن الجسد، تعلم بذلك أيضًا أنها أشرف منه، وأنها بطبيعتها خالدة، وأنها قادرة على أن تنال في الحياة الثانية سعادة أسمى وأعلى من السعادة التي تدركها في هذه الدنيا. وهذا كله يبطل الخوف من الموت أولًا، ويدعونا إلى احتقار أمور الدنيا وخيراتها ثانيًا. وهذان الأصلان هما قاعدتان أساسيتان من قواعد الأخلاق.

ثم أن علم الطبيعة يتمّم لنا بعد ذلك تعاليم علم ما بعد الطبيعة، فيظهر لنا عظم الكون واتساعه، وينقذ نفوسنا من الاهتمام بما لا طائل تحته من الأمور التي تتجاوز طاقتنا. إننا نعلم أن المادة امتداد، وأن الامتداد غير محدود، وأن الكون الماديّ ممتد امتدادًا لا حدَّ له. فكيف نعتقد بعد هذا أن كل ما هو موجود لم يوجد إلاّ لمصلحة الأرض، وأن الأرض نفسها لم تخلق إلاّ لمنفعة الإنسان؟ إن لهذا الاعتقاد الوهمي أثرًا سيئًا في توجيه حياتنا الخلقية، لأن الذي يعتقد أن الكون مخلوق له يظنّ أن الأرض هي مقامه الحقيقي، وأن الحياة الحاضرة هي الأفضل. ومن مال إلى هذا الاعتقاد وزن كل شيء في العالم بميزان نفسه، واعترض على قضاء الله، ووجد في صنعته وآثاره بعض العيوب. وهذا من شأنه أن يثير في نفسه القلق، وأن ينغّص عليه سعادته.

قلنا أن الطريقة الوحيدة المؤدية إلى السعادة هي إخضاع أعمالنا لحاكم العقل. فإذا كان العقل طريق السعادة، فكيف يجب أن تكون أفعالنا بالنسبة إلى غيرنا من الناس؟ إن المبدأ الأساسي الذي يجب أن يوجه سلوك الإنسان في المجتمع يلخّص فيما يلي: كل منا شخص مستقل عن غيره من الأشخاص، فمصالحه متميزة إذن عن مصالح غيره من أفراد الكون. ولكن لمّا كان هذا الشخص لا يستطيع أن يبقى وحده، وجب عليه أن يقيّد مصالحه بالمصالح المشروعة للمجموع الذي هو أحد أفراده؛ فإذا نظرنا إلى

الفرد من هذه الناحية، أدركنا أنه ليس مواطنًا من مواطني الأرض فحسب، وإنما هو مواطن في جزء معيّن من الأرض، أي فرد في مجتمع، أو عضو في دولة تحميه، أو أمة ينتسب إليها، أو أسرة تحتضنه. نعم، قد يكون من الباطل أن يلقى الإنسان كثيرًا من الأذى في سبيل القليل من الخير الذي يرجوه للآخرين. وقد يكون من الخطأ أن يلقي الرجل العظيم بنفسه في الهلاك لإنقاذ مَن هو دونه قيمةً ونفعًا، ولكن الأشنع من ذلك أن يفضّل الإنسان نفسه على غيره، وأن يعمل على حفظ بقائه من دون أن يفكر في بقاء المجموع. إن شعور الإنسان يكونه جزءًا من كل يقدّم فيه المصلحة العامّة على مصلحته الفردية، هو المنبع الأول للفضائل، لأنه يسوقنا إلى المجازفة بحياتنا في سبيل الآخرين، وإن كان شعورنا بالأسباب الباعثة على الفعل غير واضح. ولكن يشترط في خيرية الفعل أن لا يكون صادرًا عن الإعجاب بالنفس، أو عن الجهل بالمخاطر. وأعظم الأسباب التي يجب أن تبعثنا على الفعل محبة الله، والثقة به، والاعتماد عليه. فمن أسلم وجهه لله، تجرَّد من مصالحه الشخصية، ولم يشقّ عليه أن يقدم مصالح الآخرين على مصلحته.

إن هذه المبادئ توجّه سلوكنا في الحياة توجيهًا عامًّا، ولكن الأخلاق لا تكتفي بهذا التوجيه العام، بل تتوخَّى أيضًا تدبير أفعالنا الجزئية. فما هي إذن قواعد هذه الأفعال؟

هناك أمر يشوّش على الإنسان معرفة الطريق الذي يجب عليه سلوكه، وهو التردد؛ فالمتردّد لا يقدم على شيء، لأنه لا يرى بوضوح ما ينبغي له فعله. وكثيرًا ما ينتهي به الأمر إلى الاستسلام للمصادفة والاتفاق، فإذا استبان له بعد التردّد مبلغ الخطأ الذي وقع فيه، اضطرب اضطرابًا شديدًا، فهو إما أن يأسف لفوات زمن الفعل، وإما أن يندم على ما فعل، وفي كلا الحالين تنتابه الهواجس، وتضطرب حياته. وخير وسيلة لمعالجة هذه الحالة

هي التفكير في الأسباب التي تمنعنا من معرفة الطريق الذي يجب سلوكه، وهذه الأسباب هي العواطف والشهوات. إن هذه العواطف تمنعنا من تقدير الحوادث حق قدرها، فترينا الخيرات والشرور أعظم مما هي عليه في واقع الأمر. ولكن الأخلاق الصحيحة تشفينا من هذا التوهم، فتحصي لنا الأهواء، وتعرّفها، أو تعدل تأثيرها فينا. وعلم الطب، الذي يقوم على معرفة صحيحة ببدن الإنسان، يستطيع هنا أن يقدم لعلم الأخلاق أكبر المعونة. إذ يمده بالوسائل اللازمة للتأثير في الاضطرابات العضوية والانفعالات الشديدة، والسيطرة عليها في غير عنف ولا إرهاق.

ولكن هناك حالات يمتنع فيها على عقولنا - وإن كانت خالية من الهوى - أن تقرّر في يقين ما ينبغي لها أن تعمل. ففي هذه الحالات ينبغي لنا أن نوجّه أنظارنا إلى الوسط الذي نعيش فيه، وأن نشاهد عاداته وأخلاقه، وننتقدها بوعي وتبصّر، لنعرف إلى أي حد يحسن بنا اتباعها. وإذا أعوزتنا البداهة التامّة - ولشد ما تعوزنا في مثل هذه الامور - فما علينا إلاّ أن ننظم شؤوننا بشيء من الحكمة العملية الموقتة، كالتي وصفها ديكارت في مقالة الطريقة.

فالقاعدة الأولى من هذه الحكمة الموقتة أن يخضع الإنسان لقوانين بلاده، وعاداتها، ودينها، وأن يتبع العرف، والآراء المعتدلة، والأوضاع القائمة، لا الآراء المتطرفة. لأن الآراء المعتدلة في نظر ديكارت قد تكون أسلم عاقبة من غيرها. وهذه القاعدة الأول تذكرنا بقول أرسطو أن الفضيلة في الاعتدال أي في المكان الأوسط، لا في الإفراط ولا في التفريط. ولكن الفرق بين آرسطو وديكارت في ذلك أن الاعتدال عند ارسطو هو الحل النهائي النظري، في حين أنه عند ديكارت هو حل عملي موقت.

والقاعدة الثانية من هذه الحكمة الموقتة هي تجنّب التردد في المسائل العملية، والتسليم موقتًا بالآراء المشكوك فيها، واعتبارها يقينية بصورة موقتة،

ريثما ينجلي الأمر لنا. إذا ضلَّ الإنسانِ طريقه في أحد الأحراج فلا يجوز له أن يقف في مكانه، ولا أن يغيّر اتجاه سيره في كل لحظة، لأنه لو فعل ذلك لما اهتدى إلى غايته. وخير وسيلة للخروج من هذا الضلال أن يختار الرجل طريقًا واحدًا، ويتابع سيره فيه حتى النهاية. قد يظن بعضهم أن العقل يحكم في مثل هذه الحالة بالتوقف عن الفعل، ولكن ضرورات الحياة تتطلّب سرعة العمل، ولا تحتمل الإرجاء والتأجيل. فلا بدّ إذن من اختيار خطّة من الخطط، والمثابرة عليها حتى النهاية بالرغم من الشكوك والظلمات المحيطة بها. ومتى انجلى لنا اليقين أصلحنا ما وقعنا فيه من الأخطاء.

والقاعدة الثالثة هي مجاهدة النفس، وقمع شهواتها وأهوائها بدلًا من مغالبة الحظوظ والمقادير. هذا هو سر الرضى والقناعة. إن الآلام لا تنشأ إلاّ عن الرغبات غير المرضية. والمرء لا يرغب إلاّ فيما يتصوّر إمكان حدوثه. فإذا تعوّدنا أن نعتقد أنه لا سلطان لنا إلاّ على أفكارنا، لم نرغب إلاّ في الخيرات التي نقدر عليها، لا في الخيرات الخارجة عن نطاق قدرتنا. وهذه الخيرات الأخيرة إذا فقدناها لم يشق علينا ذلك أبدًا. أفيتألم الإنسان لأن الله لم يخلق له أجنحة كالطير؟ أم يتألم لأن القمر لا يكمل إلاّ مرة واحدة في الشهر؟ إن الحكمة تقضي بوجوب الإقلاع عن كل ما لا قدرة لنا عليه، ومتى رغبنا عن ذلك كله عشنا في أمن وسلام. ولكن هذه القاعدة الرواقية التي ذهب إليها ديكارت لا تخلو من المحاذير، لأنها تدعو الإنسان إلى الرضى بالواقع، وتمنعه من النضال، والكفاح، والتقدم. والواقع أن الإنسان لا يستطيع أن يقطع علائقه بالخيرات الخارجية، ولا أن ينسى وطنه، وأصدقاءه، وأسرته، وجسده، وصحته. فهو يرغب في تحسين الواقع، ماديًّا كان أو معنويًّا. وكثيرًا ما يجد أن أفكاره ليس له عليها سلطان. فإذا قنع بما قدّر له، ولم يرغب في إصلاحه، وتحسينه، لم يبلغ شيئًا من الكمال.

والقاعدة الرابعة من هذه الحكمة العملية هي أن لا يألو الإنسان جهدًا

في تثقيف عقله كلَّ أيام حياته، وأن يتقدّم في طريق الحقيقة ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، لأن البحث عن الحقيقة هو أسمى عمل يليق بالإنسان.

تلك هي مبادئ ديكارت الخلقية وهي تدل على أن اطمئنان النفس، وسعادتها، هما أوفى جزاء لحياة انتظمت وفقًا لمطالب العقل. ولم يتردّد ديكارت في التصريح بأن العقل كافٍ، إذا وجه توجيهًا حسنًا، في أن يهدي الإنسان سواء السبيل. أما الأخلاق الموقتة فهي أخلاق نسبية، أي مقيّدة بالزمان والمكان. لا تعبّر عن الحقيقة المطلقة، بل تعبّر عمّا يحسن فعله موقتًا، تبعًا للأحوال والظروف الراهنة، وانتظارًا لحال أحسن معرفة وأوثق. إن الإنسان الحكيم لا يهدم بيته القديم قبل أن يبني لنفسه بيتًا جديدًا. وهذا البيت القديم الذي يسكنه هو الأخلاق الموقتة. أما الأخلاق النهائية التي يريد ديكارت أن يشيد بناءها، فهي الأخلاق التي تقوم على الحقيقة العلمية. ومتى تمَّ لنا الكشف عن هذه الأخلاق النهائية عشنا في أمنٍ وسلام.

5- قيمة فلسفة ديكارت وآثارها

قال هيجل في كتابه «تاريخ الفلسفة»: «حقًّا أن ديكارت هو مؤسس الفلسفة الحديثة لاعتماده في مذهبه على العقل. إن تأثير هذا الرجل في عصره، وفي العصور التي تلته، قد بلغ درجة ليس فوقها زيادة لمستزيد. فهو بطل. لأنه أعاد بناء الأشياء بالرجوع إلى أوائلها، فوجد للفلسفة من جديد أرضًا حقيقية أعادها إليها بعد ضلالها ألف عام.»

فديكارت مجدّد في فلسفته، لأن فلسفته، وما تفرّع منها، تقوم بأسرها على أصول معيّنة، وتسير في بسط المسائل على نمط خاص بها، لا يشاركها فيه أحد. وهو لم يقنع بما جاء في الكتب، ولا بما وجده عند العلماء، بل أراد أن يرفض حكم السلطات أيًّا كانت، وحاول أن يتفلسف بنفسه، دون الاعتماد على أحد.

وهو مجدّد لاتخاذه الشك منهجًا، فلم يشأ أن يسلم بصحة شيء ما لم تتبيّن له صحته بالبداهة، ولم يذعن قط لأوهام الماضي وضلالاته، بل أخضع كل شيء لحاكم العقل، وألبس القضايا الفلسفية ثوبًا جديدًا. كتب ديكارت إلى الأب ميلان: «إذا كان لديك سلّة من التفاح بعضه جيّد وبعضه فاسد، مفسد للباقي، فماذا أنت فاعل؟ إنه لا بد لك من أن تفرغ السلة عن آخرها، وتتناول التفاح واحدة واحدة، لكي تعيد الجيد منها إلى السلة، وتُلقي بالفاسد في مكان الأقذار». ولكن هل استطاع ديكارت أن يفرغ السلّة عن آخرها، هل استطاع أن يقتصر في بنائه على التفاح الجيد؟ ذلك ما لا نستطيع التسليم به مطلقًا، لأن الإنسان لا يستطيع أبدًا أن يتجرّد من آثار الماضي، ولأن البناء الجديد إذا أُقيم على أساس الماضي، لم يخل من المواد القديمة التي تدخل في تركيبه.

ومع ذلك فديكارت مجدّد، لأنه أراد أن يرفع الفلسفة - بواسطة المنهج - إلى مرتبة العلم ذي القواعد المضبوطة، والحدود المرسومة.

وخير ما نستطيع أن نمدح به ديكارت هو قولنا أنه كان عالمًا من الطبقة الأولى، لا تقلّ مرتبته عن مرتبة غاليله، وپاسكال، ونيوتون. فهو مخترع الهندسة التحليلية، وطريقته في الطبيعيات مسيطرة على العلم الحديث كله، وكان لممارسته العلوم الرياضية والطبيعية أثر عظيم في كشفه عن طريقته التي أحدثت ثورة عظيمة في تاريخ الفكر، أطلق عليها بحق اسم الثورة الديكارتية، وهي ملخصة في قاعدة البداهة التي يقوم عليها إصلاحه الفلسفي.

ولعلّ مواضع التجديد في فلسفة ديكارت لا تظهر لنا إلاّ في محاولتها توليد اليقين من الشك، وأعراضها عن منطق آرسطو، وإيمانها بالعقل. فالتجديد الديكارتي، في الحقيقة، يدل على يقظة العقل البشري من نوم الغفلة، ورقدة الاتباع الأعمى، ومناهضته سطوة التقاليد، وسلطان القدماء،

حتى أقام، على أنقاض الفلسفة الموروثة، فلسفة جديدة لا تؤمن إلاّ بحرية الفكر، وبداهة العقل. فديكارت هو إذن مؤسس الفلسفة الحديثة، وموقظ الفكر الأوروبي من سباته، ويعَدّ بحق استاذ مالبرانش، وليبنيز، واسبينوزا. حتى لقد اعترف الفيلسوف الانكليزي لوك نفسه بما لديكارت من فضل عظيم على الفلسفة، فقال: «بعد أن عكف الناس على تعلّم الفلسفة وتعليمها، وفقًا لمختلف المبادئ، طول هذه المئات من السنين نهض في ركن من أركان العالم شخص غيّر وجه الأمور، فبيّن أن جميع الذين سبقوه لم يفهموا من مبادئ الطبيعة شيئًا. ونحن يلزمنا أن نقرّ بأن هذا الفيلسوف الجديد قد منحنا، للنظر في الأشياء الطبيعية، نورًا أعظم من النور الذي منحنا إياه الفلاسفة الآخرون عن بكرة أبيهم». وفي الحق أن نفوذ ديكارت قد تغلغل كثيرًا في التفكير الأوروبي الحديث، وكان لمبدأ الأفكار الواضحة المتميّزة الذي أعلنه أكبر الأثر في التفكير الفرنسي، والإنكليزي والألماني. فما كتبه العالم الأنكليزي موروس، موجهًا خطابه إلى ديكارت، قوله: «سأعلن لك رأيي ببساطة: إن جميع من سبقوك من كبار الفلاسفة أو من الواقفين على أسرار الطبيعة، هم اليوم إلى جانبك أقزام، ويعزّ عليَّ أن أكتم عنك هذه الشهادة، وأن لا أصرّح لك بما وجدت في قراءة كتبك من لذّة، وما جنيت من ثمرة شهيّة، لكي تعلم أن في الانكليز قومًا يجلّونك، ويقدّرون آثارك حق قدرها، وتخفق قلوبهم إعجابًا بسجاياك الإلهية» (مؤلفات ديكارت، آدام وتانري 5: ص 237–238). أما في المانية فقد تجلّى أثر ديكارت في فلسفة ليبنيز الذي روى نفسه من معين الفلسفة الديكارتية. ومع أن ليبنيز يفنّد في بعض الأحيان نظريات ديكارت، فإن معارضته هذه تدل على ما لديكارت من تأثير عميق في تفكيره. وإنك لتجد المثالية التي أبدعها كانْتْ موافقة لمبادئ المثالية الديكارتية، وإن كانت تختلف عنها في نتائجها. وأما في فرنسة فقد كان تأثير ديكارت

بعيد المدى، حتى أطلق العقول من عقالها، وبعث المفكرين على التحرّر من سلطان القدماء. فانبروا يتفحصون الأمور بنقد وشك، ويطالبون بالبداهة والوضوح، والتميّز، في جميع القضايا. حتى لقد قال فونتنل: «لم يكن الناس قبل ديكارت يعانون مشقّةً في استدلالهم. فما أسعد القرون الخالية، لأنها لم تعرف هذا الرجل. إنه هو الذي أتانا بذلك المنهج الجديد في الاستدلال، وهو منهج يفوق في قيمته فلسفته كلها». (فونتنل: استطراد عن القدماء والمحدثين، باريس 1688).

وبلغ من تأثير ديكارت في زمانه أن أصبح الأخذ بآرائه زيًّا من الأزياء. فسيرانو دو برجراك يصف كلف الشمس في إحدى رواياته على طريقة ديكارت، كما أن موليير يضع أفكار ديكارت على لسان أبطال رواياته. فقد جاء في روايته «**النساء العالمات**» ما يلي:

بليز: أنا من الذين ينشرح صدرهم لفكرة الجُسيمات الصغيرة، والقول بالخلاء يظهر لي صعبًا، أما القول بالمادة اللطيفة فإني أميل إليه أكثر من غيره.

تريسّوتَن: أنا أحبذ رأي ديكارت في المغناطيس.

آرماند: أنا أحب حلقاته المقفلة، ونظريّته في الدوام.

فيلامنت: أنا أحب عوالمه الهابطة.

وهذه الأقوال كلها تدل على مدى انتشار آراء ديكارت في جميع طبقات الناس. ومن طالع كتاب مقالة الطريقة الذي ترجمناه هنا، عرف أن تأثير ديكارت لا يرجع إلى عدد الحقائق الفلسفية والعلمية التي كشفها، وإنما يرجع إلى إيمانه بروحانية الإنسان، وقدسية العقل. وكتاب مقالة الطريقة ليس كتابًا فلسفيًّا فحسب، وإنما هو تصوير حقيقي لحياة الفيلسوف، وحكاية صادقة لحاله. وهو يدل على إخلاصه للحقيقة، وسموّه إلى المثل الأعلى، ورغبته في تحرير نفسه من سلطان الأقدمين، وثقته بالعقل والعلم.

6- المصادر

1. Bréhier E., *Histoire de la philosophie, tome II,* La philosophie moderne, le 17ème siècle, 1930.
2. Brunschvicg L., *Descartes,* Paris, 1937.
3. Chevalier J., *Descartes,* Paris, 1923.
4. Cresson A., *Descartes, sa vie, son œuvre, sa philosophie*, 1957.
5. Hamelin O., *Le système de Descartes,* Paris, 1921.
6. Laporte J., *Le rationalisme de Descartes,* 1947.
7. Gouhier H., *La pensée religieuse de Descartes,* Paris, 1924.
8. Gouhier H., *Descartes et la morale,* Revue de Métaphysique, 1937.
9. Koyré A., *L'idée de Dieu et les preuves de son existence chez Descartes,* 1922.
10. Milhaud G., *Descartes savant,* Paris 1921.
11. Huxley A., *Génie et Méthode de Descartes.*
12. Secretan, *Philosophie de la liberté.*
13. Dimier L., *Descartes,* Paris, 1918.
14. Espinas A., *Descartes et la morale,* 2 vol., Paris, 1925.
15. Fouillée A., *Descartes,* Paris, 1893.
16. Gilson E., *Etudes sur le rôle de la pensée médiévale dans la formation du système cartésien,* 1930.
17. Hannequin A., *La Méthode de Descartes,* Revue de Métaphysique, 1906.
18. Gibsen A. B., *The Philosophy of Descartes,* London, 1933.
19. Koyré, *Trois leçons sur Descartes,* Le Caire (Université Égyptienne), 1937.
   نقلها إلى العربية الأستاذ يوسف كرم، القاهرة، 1937.
20. مقالان عن ديكارت ليوسف كرم في مجلة المقتطف (اكتوبر - نوفمبر 1937)
21. ديكارت: تأليف الدكتور عثمان أمين، في سلسلة اعلام الفلسفة، الطبعة الثانية، القاهرة، 1946
22. مقال عن المنهج: ترجمه وشرحه وصدّره بمقدّمة الأستاذ محمود محمد الخضيري
23. Crèsson A., *Les courants de la pensée philosophique française,* Paris, 1927.
24. *Dictionnaire philosophique de Franck*, art. *Descartes*.

مَقالةُ الطَّريقَة

لِحُسن قيَادَة العَقل وَللبَحْث عَنِ الحَقيقَة في العُلُوم

مقدّمة المؤلّف

إذا بدت هذه المقالة[1] أطول من أن تُقْرَأَ كلها دفعة واحدة، فإنه من المستطاع تقسيمها ستة أقسام.

يجد القارئ في القسم الأول منها ملاحظات تتعلق بالعلوم المختلفة؛ وفي القسم الثاني القواعد الرئيسية للطريقة التي بحث عنها المؤلف؛ وفي الثالث بعض قواعد الأخلاق التي استنبطها من هذه الطريقة[2]؛ وفي الرابع الحجج التي يثبت بها وجود الله ووجود النفس، وهما ركنا مذهبه في علم ما بعد الطبيعة[3]؛ وفي الخامس ترتيب مسائل الطبيعيات التي بحث فيها، ولا سيما توضيح حركة القلب، وبعض المعضلات الأخرى المتعلقة بالطب، ثم الفرق بين نفسنا ونفس الحيوان؛ وفي القسم الأخير بيان الأمور التي يرى المؤلف شرطها للسير في مباحث الطبيعة إلى أبعد مما انتهت إليه، ثم ما هي الأسباب التي حملته على الكتابة.

---

1 خير وسيلة لتعليم الطريق ممارسة العلوم الرياضية، لأن الطريقة ليست أمرًا نظريًا يمكن تعلّمه في كتاب، وإنما هي ممارسة عملية. لذلك سمّى ديكارت كتابه هذا بمقالة الطريقة، أو القول في الطريقة، مشيرًا بذلك إلى أن الطريقة لا تعلم تعليمًا، بل تسلك سلوكًا.

2 الطريقة نظام، والنظام يتطلّب من محب الحكمة أن يتخذ في أول الأمر اخلاقًا مؤقتة، فإذا أصبح بعد ذلك حكيمًا وجد الأخلاق النهائية.

3 إن وجود الله ركن أول، لأن الله هو الضامن الوحيد لجميع اليقينيات؛ ووجود النفس ركن ثان، لأن الكوجيتو، كما سترى، يثبت حقيقة النفس وتميّزها عن الجسد، ويؤكد لنا خلودها.

Si ce discours semble trop long pour être lu en une fois, on le pourra distinguer en six parties. Et, en la première, on trouvera diverses considérations touchant les sciences. En la seconde, les principales règles de la méthode que l'auteur a cherchée. En la troisième, quelques-unes de celles de la morale qu'il a tirée de cette méthode. En la quatrième, les raisons par lesquelles il prouve l'existence de Dieu et de l'âme humaine, qui sont les fondements de sa métaphysique. En la cinquième, l'ordre des questions de physique qu'il a cherchées, et particulièrement l'explication du mouvement du cœur et de quelques autres difficultés qui appartiennent à la médecine, puis aussi la différence qui est entre notre âme et celle des bêtes. Et en la dernière, quelles choses il croit être requises pour aller plus avant en la recherche de la nature qu'il n'a été, et quelles raisons l'ont fait écrire.

القسم الأوّل
ملاحظات متعلّقة بالعلوم

العقل[1] أعدل الأشياء توزّعًا بين الناس، لأن كل فرد يعتقد أنه قد أوتي منه الكفاية، ولأن الذين يصعب ارضاؤهم بأي شيء آخر ليس من عادتهم ان يرغبوا في أكثر مما أصابوا منه[2]. وليس براجح أن يخطئ الجميع في ذلك، وإنما الراجح أن يكون هذا شاهدًا على أن قوة الإصابة في الحكم، وتمييز الحق من الباطل، وهي القوة التي يُطلق عليها في الحقيقة اسم القعل، أو النطق، واحدة بالفكرة عند جميع الناس. وهكذا، فإن اختلاف آرائنا لا ينشأ عن كون بعضنا أعقل من بعض، بل ينشأ عن كوننا نوجّه أفكارنا في طرق مختلفة ولا نطالع الأشياء ذاتها. إذ لا يكفي أن يكون الفكر جيدًا وإنما المهم أن يطبق تطبيقًا حسنًا[3]. إن أكبر النفوس مستعدّة لأكبر الرذائل، كما هي مستعدّة لأعظم الفضائل. وأولئك الذين لا يسيرون إلاّ ببطء شديد، يستطيعون، إذا سلكوا الطريق المستقيم، أن يحرزوا تقدمًا أكثر من الذين يركضون ولكنهم يبتعدون عنه[4].

أما أنا فإني لم أتوهم قطّ أن لي ذهنًا أكمل من أذهان عامّة الناس. بل كثيرًا ما تمنيت أن يكون لي ما لبعض الناس من سرعة الفكر، أو وضوح التخيّل وتميّزه، أو سعة المذاكرة وحضورها. ولست أعرف مزايا غير هذه تعين على كمال النفس، لأني أميل إلى الاعتقاد أن العقل أو الحس، ما

---

1 في الأصل: Le bon sens، أو العقل، وهو القوة اللازمة لإجادة الحكم، أي لتمييز الحق من الباطل.

2 الإنسان يشتكي من ضعف ذاكرته ولا يشتي من ضعف عقله، لأن كل انسان بعقله معجب.

3 إن عنوان مقالة الطريقة يشير إلى ذلك، لأن الغرض منها حسن قيادة العقل. فإذا سلك الناس جميعًا هذه الطريقة، وأحكم كل انسان توجيه عقله، تناقص الفرق بين الأذهان.

4 وهم لما طالعوا كتب آرسطو، وتوهموا أنهم علماء، ازدادوا بُعدًا عن العلم الحقيقي.

PREMIÈRE PARTIE

CONSIDÉRATIONS SUR LES SCIENCES

Le bon sens est la chose du monde la mieux partagée : car chacun pense en être si bien pourvu, que ceux même qui sont les plus difficiles à contenter en toute autre chose, n'ont point coutume d'en désirer plus qu'ils en ont. En quoi il n'est pas vraisemblable que tous se trompent ; mais plutôt cela témoigne que la puissance de bien juger, et distinguer le vrai d'avec le faux, qui est proprement ce qu'on nomme le bon sens ou la raison, est naturellement égale en tous les hommes ; et ainsi que la diversité de nos opinions ne vient pas de ce que les uns sont plus raisonnables que les autres, mais seulement de ce que nous conduisons nos pensées par diverses voies, et ne considérons pas les mêmes choses. Car ce n'est pas assez d'avoir l'esprit bon, mais le principal est de l'appliquer bien. Les plus grandes âmes sont capables des plus grands vices, aussi bien que des plus grandes vertus ; et ceux qui ne marchent que fort lentement, peuvent avancer beaucoup davantage, s'ils suivent toujours le droit chemin, que ne font ceux qui courent, et qui s'en éloignent.

Pour moi, je n'ai jamais présumé que mon esprit fût en rien plus parfait que ceux du commun ; même j'ai souvent souhaité d'avoir la pensée aussi prompte, ou l'imagination aussi nette et distincte, ou la mémoire aussi ample, ou aussi présente, que

دام هو الشيء الوحيد الذي يجعلنا بشرًا، ويميّزنا عن الحيوانات[1]، موجود بتمامه في كل واحد منا، متبعًا في ذلك الرأي الذائعَ بين الفلاسفة[2]، الذين يقولون أنه لا زيادة ولا نقصان إلاّ في الأعراض[3] لا في صور[4] أفراد النوع الواحد، أو طبائعهم.

ولكنني لا أخشى أن أقول أني أعتقد أنني كنت جد سعيد لوجدان نفسي، منذ سني الحداثة، في طرق قادتني إلى مطالعات وحكم ألّفت منها طريقة، يبدو لي أنني أستطيع أن اتخذها وسيلة لزيادة معرفتي بالتدريج، وللارتقاء بها شيئًا فشيئًا إلى أعلى درجة[5] يسمح ببلوغها عقلي الضعيف، ومدى حياتي القصير. ذلك لأني جَنَيت من ثمرات هذه الطريقة[6] ما جعلني أحاول دائمًا، في الأحكام التي أطلقها على نفسي، أن أميل إلى جهة الحذر أكثر من جهة الغرور. ولما نظرت بعين الفيلسوف إلى مختلف أعمال الناس ومشاريعهم، لم أجد فيها عملًا إلاّ كاد يظهر لي باطلًا وعديم النفع، فأورثني ذلك رضًى بالغًا على التقدم الذي رأيت أني أحرزته في البحث عن الحقيقة، وجعلني أعقد على المستقبل آمالًا[7] تخولني القول أنه إذا كان في مشاغل الناس من حيث هم بشر عمل ثابت الصلاح والخطورة، فهو العمل الذي تخيّرته.

---

1 العقل هو الفصل الذي يميّز نوع الإنسان من الأنواع الأخرى المندرجة تحت جنس الحيوان، والإنسان هو الحيوان الناطق، فالحيوان جنسه والناطق فصله.

2 يعني فلاسفة القرون الوسطى.

3 الأعراض (accidents): جمع عرض، وهو ما لا يقوم بذاته، أي ما يعرض في الجوهر من الصفات، مثال ذلك أن الكتابة عرض لأن الإنسان يبقى انسانًا بعد ارتفاع هذه الصفة عنه.

4 الجوهر مؤلف من صورة ومادة. وصورة الإنسان هي نفسه، ومادته جسده.

5 في هذا القول اشارة إلى العنوان الأول لمقالة الطريقة، وهو مشروع علم كلّي من شأنه أن يرق بطبيعتنا إلى أعلى درجات الكمال.

6 لم ينشر ديكارت مقالته إلاّ بعد انتهائه من تأليف الطبيعيات والإلهيات. وغرضه من هذه المقالة أن يبيّن للناس ثمرات طريقته.

7 يشير بذلك إلى ما يؤمله من تأسيس علم الطب وعلم الأخلاق.

quelques autres. Et je ne sache point de qualités que celles-ci, qui servent à la perfection de l'esprit : car pour la raison, ou le sens, d'autant qu'elle est la seule chose qui nous rend hommes, et nous distingue des bêtes, je veux croire qu'elle est tout entière en un chacun, et suivre en ceci l'opinion commune des philosophes, qui disent qu'il n'y a du plus et du moins qu'entre les *accidents*, et non point entre les *formes*, ou natures, des *individus* d'une même *espèce.*

Mais je ne craindrai pas de dire que je pense avoir eu beaucoup d'heur, de m'être rencontré dès ma jeunesse en certains chemins, qui m'ont conduit à des considérations et des maximes, dont j'ai formé une méthode, par laquelle il me semble que j'ai moyen d'augmenter par degrés ma connaissance, et de l'élever peu à peu au plus haut point, auquel la médiocrité de mon esprit et la courte durée de ma vie lui pourront permettre d'atteindre. Car j'en ai déjà recueilli de tels fruits, qu'encore qu'aux jugements que je fais de moi-même, je tâche toujours de pencher vers le côté de la défiance, plutôt que vers celui de la présomption ; et que, regardant d'un œil de philosophe les diverses actions et entreprises de tous les hommes, il n'y en ait quasi aucune qui ne me semble vaine et inutile ; je ne laisse pas de recevoir une extrême satisfaction du progrès que je pense avoir déjà fait en la recherche de la vérité, et de concevoir de telles espérances pour l'avenir, que si, entre les occupations des hommes purement hommes, il y en a quelqu'une qui soit solidement bonne et importante, j'ose croire que c'est celle que j'ai choisie.

غير أنني ربما كنت مخدوعًا، وربما كان ما ظننته ذهبًا، وماسًا، قليلًا من النحاس والزجاج. إني أعلم كم نحن عرضة للخطأ في الأمور التي تمسّنا، وكم يجب علينا أن نشتبه في أحكام أصدقائنا عندما تكون في مصلحتنا. ولكنه يطيب لي أن أبيّن في هذ المقالة ما هي الطرق التي سلكتها، وأن أمثل حياتي فيها كأنما هي صورة لها، حتى يستطيع كل انسان أن يبدي رأيه فيها، وحتى يكون اطلاعي على آراء الناس، وما يصل إليّ من صداها العام، وسيلة جديدة لتعليم نفسي[1] أضيفها إلى الوسائل التي تعودت استخدامها.

وهكذا ليس غرضي هنا أن أعلّم الطريقة التي يجب على كل انسان سلوكها لكي يحسن قيادة عقله، وإنما غرضي أن أبيّن على أي وجه حاولت، أنا نفسي، أن أقود عقلي. إن الذين يتصدّون لإسداء النصائح إلى الناس يلزمهم أن يعتبروا أنفسهم أحذق من الذين يُسدونها إليهم، وإذا قصروا في أقل الأمور كانوا جديرين باللوم. ولكن لما كان غرضي من كتابة هذا المقال أن يكون تاريخًا، أو، قل إذا شئت، قصة، قد يجد الناس فيها من الأمثلة التي يمكنهم احتذاؤها أمثلة أخرى كثيرة يحق لهم أن لا يتقيّدوا بها[2]، فإني أؤمل أن يكون هذا المقال نافعًا لبعض الناس، من دون أن يكون ضارًّا بأحد، وأن يكون الجميع راضين عنّي لصراحتي[3].

---

1 يشير بذلك إلى المصوّر آبل (Apell) الذي كان يختبئ وراء إحدى صوره ليسمع ما يقوله الناس فيها.

2 من هذه الأمثلة الشك المنهجي (Le doute méthodique)، فهو إذا ابتعد عن غايته أدى إلى كثير من المخاطر.

3 هنا ينتهي التمهيد العام لمقالة الطريقة، ويبتدئ القسم الذي يتكلم فيه ديكارت من تاريخ حياته الفكرية.

Toutefois il se peut faire que je me trompe, et ce n'est peut-être qu'un peu de cuivre et de verre que je prends pour de l'or et des diamants. Je sais combien nous sommes sujets à nous méprendre en ce qui nous touche, et combien aussi les jugements de nos amis nous doivent être suspects, lorsqu'ils sont en notre faveur. Mais je serai bien aise de faire voir, en ce discours, quels sont les chemins que j'ai suivis, et d'y représenter ma vie comme en un tableau, afin que chacun en puisse juger, et qu'apprenant du bruit commun les opinions qu'on en aura, ce soit un nouveau moyen de m'instruire, que j'ajouterai à ceux dont j'ai coutume de me servir.

Ainsi mon dessein n'est pas d'enseigner ici la méthode que chacun doit suivre pour bien conduire sa raison, mais seulement de faire voir en quelle sorte j'ai tâché de conduire la mienne. Ceux qui se mêlent de donner des préceptes, se doivent estimer plus habiles que ceux auxquels ils les donnent ; et s'ils manquent en la moindre chose, ils en sont blâmables. Mais, ne proposant cet écrit que comme une histoire, ou, si vous l'aimez mieux, que comme une fable, en laquelle, parmi quelques exemples qu'on peut imiter, on en trouvera peut-être aussi plusieurs autres qu'on aura raison de ne pas suivre, j'espère qu'il sera utile à quelques-uns, sans être nuisible à personne, et que tous me sauront gré de ma franchise.

لقد غذيت بـالآداب منذ طفولتي[1]. ولما كنت قد أقنعتُ بأنه يمكن بواسطتها اكتساب معرفة، واضحة ويقينيّة، بكل ما هو نافع في الحياة، اشتدت رغبتي في تعلّمها. ولكنني لم أكد أنهي هذه المرحلة من الدراسة[2]، وهي المرحلة التي جرت العادة أن يرفع الطالب في نهايتها إلى مرتبة العلماء، حتى غيّرت رأيي تمامًا. ذلك لأني وجدت نفسي في ارتباك من الشكوك والأخطاء بدا لي معها أنني لم أفد من محاولتي التعلّم إلاّ الكشف شيئًا فشيئًا عن جهالتي. على اني كنت في أشهر مدرسة من مدارس أوربة، حيث يظن أنه يجب أن يكون فيها علماء، هذا إذا كان على وجه الأرض في مكان ما عالم[3]، تعلّمت فيها كل ما يتعلمه الآخرون، حتى انني لم أقنع بما كانوا يعلموننا إياه، فتصفحت كل ما وقع في يدي من كتب في العلوم التي كانوا يعتبرونها أعجب العلوم وأندرَها[4]. وكنت أعرف مع ذلك ما يحكم عليَّ به الآخرون. فما رأيتهم قط وضعوني في منزلة دون منزلة رفاقي، مع أن بعضهم كان يُهَيَّأ لملء مناصب أساتذتنا. وأخيرًا كان يخيّل إليَّ أن عصرنا لم يكن أقل ازدهارًا وخصبًا بالعقول المنتجة من أي عصر من العصور السابقة. فخوّلني هذا الامر حرية الحكم على جميع الناس بالقياس إلى نفسي، وجعلني أعتقد أنه ليس في العالم مذهب يحقق ما منيت به من قبل.

---

1 أي منذ العاشرة من سنّه لأنه ولد في 31 آذار عام 1596 ودخل مدرسة لافليش عام 1606.

2 أنهى ديكارت دراسته في مدرسة لافليش عام 1614، ثم درس الحقوق بعد ذلك في بواتيه خلال سنتين، فمرحلة الدراسة التي يشير إليها هنا تنتهي إذن عام 1616.

3 بقي ديكارت مخلصًا لمدرسة لافليش اليسوعية كل ايام حياته، وهو يشهد هنا بفضل تلك المدرسة التي تعلّم فيها الفلسفة خيرًا مما تعلمِ في أية مدرسة أُخرى.

4 يطلق اسم العلوم العجيبة (curieuses) على العلوم التي تسمى اليوم بالعلوم الخفية (occultes)، كالنجوم، والسحر، والطلسمات، وغيرها. أما قوله «وأندرها» فيشير إلى قلّة الطالبين لها.

J'ai été nourri aux lettres dès mon enfance, et pource qu'on me persuadait que, par leur moyen, on pouvait acquérir une connaissance claire et assurée de tout ce qui est utile à la vie, j'avais un extrême désir de les apprendre. Mais, sitôt que j'eus achevé tout ce cours d'études, au bout duquel on a coutume d'être reçu au rang des doctes, je changeai entièrement d'opinion. Car je me trouvais embarrassé de tant de doutes et d'erreurs, qu'il me semblait n'avoir fait autre profit, en tâchant de m'instruire, sinon que j'avais découvert de plus en plus mon ignorance. Et néanmoins j'étais en l'une des plus célèbres écoles de l'Europe, où je pensais qu'il devait y avoir de savants hommes, s'il y en avait en aucun endroit de la terre. J'y avais appris tout ce que les autres y apprenaient ; et même, ne m'étant pas contenté des sciences qu'on nous enseignait, j'avais parcouru tous les livres, traitant de celles qu'on estime les plus curieuses et les plus rares, qui avaient pu tomber entre mes mains. Avec cela, je savais les jugements que les autres faisaient de moi ; et je ne voyais point qu'on m'estimât inférieur à mes condisciples, bien qu'il y en eût déjà entre eux quelques-uns, qu'on destinait à remplir les places de nos maîtres. Et enfin notre siècle me semblait aussi fleurissant, et aussi fertile en bons esprits, qu'ait été aucun des précédents. Ce qui me faisait prendre la liberté de juger par moi de tous les autres, et de penser qu'il n'y avait aucune doctrine dans le monde qui fût telle qu'on m'avait auparavant fait espérer.

وما كنت مع ذلك لأغمط حق التمارين التي يُعنون بها في المدارس، لأني كنت أعلم أن اللغات[1] التي تعلم فيها ضرورية لفهم كتب القدماء، وأن طلاوة القصص توقظ الفكر، وأن وقائع التاريخ الجديرة بالذكر تسمو به، وأنها، إذا قرئت بتمحيص، تعيّن على تكوين الحكم، وأن قراءة جميع الكتب الجيدة أشبه شيء، بمحادثة مؤلفيها، الذين هم أفضل الرجال في العصور الماضية، لا بل هي محادثة متخيّرة، لا يكشفون لنا فيها إلاّ عن أحسن أفكارهم، وأن للبلاغة قوةً وجمالًا لا مثيل لهما، وأن للشعر رقة وحلاوة رائعتين جدًّا، وأن في الرياضيات اختراعات جدّ دقيقة تنفع في ارضاء النفوس المستطلعة، كما تنفع في تيسير جميع الفنون وفي تخفيف تعب الناس، وأن الكتب التي تبحث في الأخلاق[2] تشتمل على كثير من التعليم، وعلى كثير من الإرشاد إلى الفضيلة، وان علم اللاهوت[3] يؤهلنا للجَنَّة، وإن الفلسفة[4] تعيننا على القول في كل شيء قولًا شبيهًا بالحقيقة، يجعل مَن هم أقل منّا علمًا يعجبون بنا، وأن علم القانون وعلم الطب[5]، والعلوم الأخرى، تجلب الجاه والثروة[6] للذين يثقفونها، وانه خيرٌ لنا أخيرًا

1 يعني اللاتينية واليونانية، والترتيب الذي اتبعه ديكارت في ذكر هذه العلوم هنا هو الترتيب الدراسي.

2 أي كتب القدماء الباحثة في الأخلاق كتاب سنيك (Sénèque) وغيره.

3 هو علم الحقائق المنزلة (Théologie).

4 كانت الفلسفة تدرس في السنوات الثلاث الأخيرة من مدرسة لافليش على الترتيب الآتي: في السنة الأولى: المنطق. وفي السنة الثانية: الفيزياء. وفي السنة الثالثة: علم ما بعد الطبيعة والأخلاق، وهي فلسفة آرسطو وشروح توما الأكويني عليها.

5 درس ديكارت علم القانون في جامعة پواتيه خلال سنتين (1614 — 1616)، ولا شك أنه ابتدأ بدراسة مبادئ الطب في هذه الجامعة أيضًا. ولما كان هذان العلمان لا يدرّسان في مدرسة لافليش، كانت مرحلة الدراسة التي أشار إليها في مقالة الطريقة تشتمل أيضًا على دراسته في جامعة پواتيه.

6 علم القانون يأتي بالجاه، والطب يأتي بالثروة.

Je ne laissais pas toutefois d'estimer les exercices, auxquels on s'occupe dans les écoles. Je savais que les langues, qu'on y apprend, sont nécessaires pour l'intelligence des livres anciens ; que la gentillesse des fables réveille l'esprit ; que les actions mémorables des histoires le relèvent, et qu'étant lues avec discrétion, elles aident à former le jugement ; que la lecture de tous les bons livres est comme une conversation avec les plus honnêtes gens des siècles passés, qui en ont été les auteurs, et même une conversation étudiée, en laquelle ils ne nous découvrent que les meilleures de leurs pensées que l'éloquence a des forces et des beautés incomparables ; que la poésie a des délicatesses et des douceurs très ravissantes ; que les mathématiques ont des inventions très subtiles, et qui peuvent beaucoup servir, tant à contenter les curieux qu'à faciliter tous les arts, et diminuer le travail des hommes ; que les écrits qui traitent des mœurs contiennent plusieurs enseignements et plusieurs exhortations à la vertu qui sont fort utiles ; que la théologie enseigne à gagner le ciel ; que la philosophie donne moyen de parler vraisemblablement de toutes choses, et se faire admirer des moins savants ; que la jurisprudence, la médecine et les autres sciences apportent des honneurs et des richesses à ceux qui les cultivent ; et enfin, qu'il est bon de les avoir toutes examinées, même les plus superstitieuses et les plus

أن نخبرها كلها، حتى أكثرها خرافة وبطلانًا[1]، لنعرف قيمتها الحق، ونعصم أنفسنا من خداعها.

ولكنني كنت أعتقد أنني أنفقت وقتًا كافيًا في تعلّم اللغات، بل في قراءة الكتب القديمة، وما فيها من قصص وأساطير. وليس هناك فرق بين محادثة رجال العصور الأخرى والسياحة[2]. انه من الخير لنا أن نعرف أشياء عن أخلاق الأمم المختلفة، حتى يكون حكمنا على أخلاقنا أصح، وحتى لا نرى أن كل ما خالف عاداتنا مضحك، ومضادّ للعقل، كما هي عادة الذين لم يَـرَوْا شيئًا[3]. ولكن الإنسان إذا قضى زمانًا طويلًا في السياحة أصبح غريبًا في بلده. ومَن أكثر من النظر في عادات العصور الخالية، ظلّ بحكم العادة كثير الجهل بالأمور التي تجري في عصره. أضف إلى ذلك أن القصص تجعلنا نتخيّل إمكان ما ليس ممكنًا من الحوادث، حتى أن أصدق الروايات، إذا لم تبدل قيمة الأشياء، ولم تبالغ في خطورتها كي تجعلها أجدر بأن تقرأ، فهي على الأقل تكاد تهمل أخس الظروف وأقلها شهرة. ومن ثم فإن ما بقي منها لا يمثّل الواقع. والذين يسيّرون أخلاقهم على القواعد المستنبطة منها يكونون عرضة للوقوع في الغلوّ الذي وقع فيه فرسان قصصنا[4]، وللتطلع إلىمقاصد تفوق طاقتهم.

لقد كنت عظيم التقدير للبلاغة، مولعًا بالشعر. ولكني رأيت أن كليهما أقرب إلى أن يكونا موهبة من مواهب النفس، لا ثمرة من ثمرات الدرس. ومن كان أقوى الناس حجة، يرتب أفكاره على أحسن وجه كيما تجيء

---

1 أي علم النجوم، وعلم السحر، والطلسمات.

2 من عاش مع رجال العصور الماضية كان كمن يعيش مع الغرباء.

3 الذين لم يروا شيئًا هم الذين لا تجاوز معارفهم حدود بلادهم.

4 Paladins de nos romans، وهو يشير هنا إلى رولان (Roland) أو إلى لانسلو (Lancelot) أو إلى قصة Amadis de Gaule.

fausses, afin de connaître leur juste valeur et se garder d'en être trompé.

Mais je croyais avoir déjà donné assez de temps aux langues, et même aussi à la lecture des livres anciens, et à leurs histoires, et à leurs fables. Car c'est quasi le même de converser avec ceux des autres siècles, que de voyager. Il est bon de savoir quelque chose des mœurs de divers peuples, afin de juger des nôtres plus sainement, et que nous ne pensions pas que tout ce qui est contre nos modes soit ridicule, et contre raison, ainsi qu'ont coutume de faire ceux qui n'ont rien vu. Mais lorsqu'on emploie trop de temps à voyager, on devient enfin étranger en son pays ; et lorsqu'on est trop curieux des choses qui se pratiquaient aux siècles passés, on demeure ordinairement fort ignorant de celles qui se pratiquent en celui-ci. Outre que les fables font imaginer plusieurs événements comme possibles qui ne le sont point ; et que même les histoires les plus fidèles, si elles ne changent ni n'augmentent la valeur des choses, pour les rendre plus dignes d'être lues, au moins en omettent-elles presque toujours les plus basses et moins illustres circonstances : d'où vient que le reste ne paraît pas tel qu'il est, et que ceux qui règlent leurs mœurs par les exemples qu'ils en tirent, sont sujets à tomber dans les extravagances des paladins de nos romans, et à concevoir des desseins qui passent leurs forces.

J'estimais fort l'éloquence, et j'étais amoureux de la poésie, mais je pensais que l'une et l'autre étaient des dons de l'esprit, plutôt que des fruits de l'étude. Ceux qui ont le raisonnement le plus fort, et qui digèrent le mieux leurs pensées, afin de les

واضحة ومصقولة، كان أقدر دائمًا على الإقناع بما يقول، وإن لم يتكلم إلاّ بلغة العوامّ، ولم يتعلّم قط علم الخطابة. ومن كان رائع الخيال، يحسن التعبير عن أفكاره بأجمل الأساليب المرصعة وألطفها، كان من خيرة الشعراء، وإن كانت صناعة الشعر[1] مجهولة لديه.

كنت معجبًا بالرياضيات خاصة لما في حججها من يقين وبداهة، ولكني لم أكن مدركًا بعد فائدتها الحقيقية. ولما رأيت أنها لا تنفع إلاّ في الصناعات الميكانيكية، عجبت لأمرها كيف تكون أسسها ثابتة ومتينة إلى هذا الحدّ، ولا يشاد عليها بناء أسمى من هذا البناء[2]. وكنت بالعكس أشبّه كتابات الوثنيين القدماء، الباحثة في الأخلاق، بقصور بالغة الجمال والفخامة لم تُبْنَ إلاّ على الرمل والوحل. انهم يرفعون الفضائل إلى أعلى الدرجات، ويظهرونها أحقّ بالتقدير من كل شيء في العالم. ولكنهم لا يرشدوننا إلى معرفتها. وكثيرًا ما يطلقون أجمل الأسماء على أمرٍ، ولا يكون هذا الأمر إلاّ فقدان الحس، أو الكبرياء، أو اليأس، أو قتل الأبرياء[3].

وكنت أجلّ علومنا اللاهوتية، وأطمع في الجنّة كأي انسان آخر. ولكني لمّا علمت علمًا مؤكدًا أن طريقها مفتوح لأجهل الناس، ما هو مفتوح لأعلمهم، وإن الحقائق المنزلة التي تهدي إلى الجنة هي فوق نطاق عقولنا، لم أجرؤ على إخضاعها لاستدلالات عقلي الضعيف، لاعتقادي ان محاولة

---

1 يشير هنا إلى «صنعة الشعر» لهوراس (Horace).

2 كان تعليم الرياضيات في مدرسة لافليش موجهًا نحو تطبيقاتها العلمية في الجغرافية، وتخطيط المياه، وصناعة انشاء الحصون، واستعمال الآلات.

3 في هذا الكلام اشارة إلى الفلسفة الرواقية، وهي الفلسفة التي تريد أن يتجرد الحكيم من أهوائه وعواطفه، وأن يتحمّل الآلام الحسية دون الاهتمام بها. وقد أشار ديكارت بقوله «فقدان الحس» إلى أن الفضيلة عند الرواقيين مجرّدة عن الأهواء، وبقوله «الكبرياء» إلى أن الحكيم في نظرهم من مرتبة الآلهة، وبقوله «اليأس» إلى تسويغهم الانتحار، وبقوله «قتل الأبرياء» إلى قصة بروتوس الذي حكم على أولاده بالموت، وأشرف بنفسه على تنفيذ الحكم.

rendre claires et intelligibles, peuvent toujours le mieux persuader ce qu'ils proposent, encore qu'ils ne parlassent que bas breton, et qu'ils n'eussent jamais appris de rhétorique. Et ceux qui ont les inventions les plus agréables, et qui les savent exprimer avec le plus d'ornement et de douceur, ne laisseraient pas d'être les meilleurs poètes, encore que l'art poétique leur fût inconnu.

Je me plaisais surtout aux mathématiques, à cause de la certitude et de l'évidence de leurs raisons, mais je ne remarquais point encore leur vrai usage, et, pensant qu'elles ne servaient qu'aux arts mécaniques, je m'étonnais de ce que, leurs fondements étant si fermes et si solides, on n'avait rien bâti dessus de plus relevé. Comme, au contraire, je comparais les écrits des anciens païens, qui traitent des mœurs, à des palais fort superbes et fort magnifiques, qui n'étaient bâtis que sur du sable et sur de la boue. Ils élèvent fort haut les vertus, et les font paraître estimables par-dessus toutes les choses qui sont au monde ; mais ils n'enseignent pas assez à les connaître, et souvent ce qu'ils appellent d'un si beau nom, n'est qu'une insensibilité, ou un orgueil, ou un désespoir, ou un parricide.

Je révérais notre théologie, et prétendais, autant qu'aucun autre, à gagner le ciel ; mais ayant appris, comme chose très assurée, que le chemin n'en est pas moins ouvert aux plus ignorants qu'aux plus doctes, et que les vérités révélées, qui y conduisent, sont au-dessus de notre intelligence, je n'eusse osé les soumettre à la faiblesse de mes raisonnements, et je pensais que, pour entreprendre de les

الفحص عنها فحصًا ناجحًا تحتاج إلى أن يُمَدّ الإنسان من السماء بعونٍ خارق للعادة، وإلى أن يكون من مرتبة فوق مرتبة البشر.

ولن أقول عن الفلسفة إلاّ شيئًا واحـدًا، وهو أنني لما رأيت أن الذين زاولوها كانوا من أفضل العقلاء الذين عاشوا منذ كثير من العصور، وأنها مع ذلك ليس فيها أمر لا جدال فيه، وبالتالي غير مشكوك فيه، لم أكن قط من الغرور بحيث أؤمل النجاح فيها أحسن من الآخرين. ولما لاحظت كذلك أن للعلماء في المسألة الواحدة آراءً مختلفةً لا يكون الحق إلاّ في واحد منها، حكمت ببطلان كل أمر لم يكن إلاّ شبيهًا بالحقيقة[1].

أما العلوم الأخرى التي تستمد مبادئها من الفلسفة[2] فقد رأيت أنها لم تستطع إقامة بناء ثابت على أسس واهية. ولم يكن ما تغري به من الجاه والربح كافيًا لحملي على تعلمها، لأنني لم أكن أشعر، ولله الحمد، بأنني في حالة تضطرني إلى اتخاذ العلم مهنة أحسن بها رزقي. ومع أنه لم يكن من شأني أن أحتقر المجد كما يفعل الكلبيون[3]، فإنني لم أكن اعبأ إلاّ قليلًا بمجد لا يمكن كسبه إلاّ بالباطل. وأما العلوم الباطلة فقد رأيت أنني بلغت من معرفة قيمتها حدًّا صانني من الانخداع بوعود الكيميائي، وتكهنات المنجم، وضلالات الساحر، ومن الوقوع في حبائل الذين يمدحون أنفسهم، وديدنهم التظاهر بأكثر مما يعلمون.

---

1 كان فلاسفة القرون الوسطى يفرقون بين الحق، والشبيه بالحق، والباطل. فالحق الضروري لا يوجد إلاّ في الرياضيات المحضة، وفي علم ما بعد الطبيعة، وفي مباحث الطبيعيات المجرّدة عن المادة. وأما الشبيه بالحقيقة أو المحتمل فهو موجود في مباحث الطبيعيات المتصلة بالمادة. ولكن ديكارت جعل جوهر المادة امتدادًا هندسيًّا؛ فقلب الفيزياء إلى علم رياضي؛ وأخرج بذلك معنى المحتمل من ميدان العلم الطبيعي.

2 يستند علم الحقوق إلى علم الأخلاق، وعلم الطب إلى علم الطبيعيات.

3 اللكبيون (Les Cyniques) هم أتباع ديوجنيس الكلبي.

examiner et y réussir, il était besoin d'avoir quelque extraordinaire assistance du ciel, et d'être plus qu'homme.

Je ne dirai rien de la philosophie, sinon que, voyant qu'elle a été cultivée par les plus excellents esprits qui aient vécu depuis plusieurs siècles, et que néanmoins il ne s'y trouve encore aucune chose dont on ne dispute, et par conséquent qui ne soit douteuse, je n'avais point assez de présomption pour espérer d'y rencontrer mieux que les autres ; et que, considérant combien il peut y avoir de diverses opinions, touchant une même matière, qui soient soutenues par des gens doctes, sans qu'il y en puisse avoir jamais plus d'une seule qui soit vraie, je réputais presque pour faux tout ce qui n'était que vraisemblable.

Puis, pour les autres sciences, d'autant qu'elles empruntent leurs principes de la philosophie, je jugeais qu'on ne pouvait avoir rien bâti, qui fût solide, sur des fondements si peu fermes. Et ni l'honneur, ni le gain qu'elles promettent, n'étaient suffisants pour me convier à les apprendre ; car je ne me sentais point, grâces à Dieu, de condition qui m'obligeât à faire un métier de la science, pour le soulagement de ma fortune ; et quoique je ne fisse pas profession de mépriser la gloire en cynique, je faisais néanmoins fort peu d'état de celle que je n'espérais point pouvoir acquérir qu'à faux titres. Et enfin, pour les mauvaises doctrines, je pensais déjà connaître assez ce qu'elles valaient, pour n'être plus sujet à être trompé, ni par les promesses d'un alchimiste, ni par les prédictions d'un astrologue, ni par les impostures d'un magicien, ni par les artifices ou la vanterie d'aucun de ceux qui font profession de savoir plus qu'ils ne savent.

لذلك فإني، عندما سمحت لي السنّ بتحرير نفسي من ربقة ملعميَّ، هجرت كل الهجر دراسة الآداب، وكذلك لمّا عزمت على أن لا أطلب من العلم إلاّ ما يمكن وجوده في نفسي، أو في كتاب العالم الكبير. أنفقت بقية شبابي في السياحة، وفي رؤية القصور والجيوش، وفي مخالطة الناس من مختلف الأمزجة والطبقات، وفي اكتساب التجارب المختلفة، وفي التفكير أينما كنت في الأشياء التي كانت تعرض لي، تفكيرًا يمكنني من استخلاص بعض الفائدة منها؛ لأنه كان يبدو لي أنني أستطيع أن أجد من الحق، في الاستدلالات التي يجيء بها كل انسان على الامور التي تهمه، والتي سرعان ما يُعاقب على نتائجها إذا اخطأ في الحكم، أكثر مما أجد في الاستدلالات التي يُدلي بها أحد النظار[1] وهو في مكتبه على أمور نظريّة لا طائل تحتها، ولا نتيجة لها، إلاّ ما قد تورثه إيّاه من الغرور، على مقدار بعدها عن العُرف العام، ولكثرة ما تضطره إلى بذله من الفكر والحيلة في سبيل تقريبها من الحقيقة. وكنت إلى ذلك شديد الرغبة في أن أتعلم كيف أميّز الحق من الباطل، لأكون على بصيرة من أعمالي، وأسير على أمنٍ في حياتي.

وفي الحق إني لما اقتصرت على ملاحظة أخلاق الناس، لم أجد فيها ما يطمئن نفسي، بل وجدت فيها من التباين قَدرَ ما وجدت من قبل في آراء الفلاسفة. وكان أكبر ما حصلته من فوائدها أني، لما رأيت أمورًا كثيرة تُجمع الأمم العظيمة الأخرىعلى قبولها وتأييدها، بالرغم من أنها تبدو لنا مخالفة للصواب، ومضحكة، تعلمت من ذلك إلاّ أؤمن بصحة أمرٍ إيمانًا راسخًا، ما دام هذا الأمر مبنيًّا على التقليد والعادة[2]. وهكذا خلّصت نفسي

1 في الأصل: (Homme de lettres)، ويعني به صاحب العقل النظري وهو ضد العامل، أو الصانع، الذي لا يشاهد أخطاءه إلاّ بالتجريب.

2 هذا الرأي مستمد من م. مونتني؛ راجع: Montaigne, Essais, Edition Pierre Villey, t. I, pp. 121, 127, 148, 277, t. II, p. 148.

C'est pourquoi, sitôt que l'âge me permit de sortir de la sujétion de mes précepteurs, je quittai entièrement l'étude des lettres. Et me résolvant de ne chercher plus d'autre science, que celle qui se pourrait trouver en moi-même, ou bien dans le grand livre du monde, j'employai le reste de ma jeunesse à voyager, à voir des cours et des armées, à fréquenter des gens de diverses humeurs et conditions, à recueillir diverses expériences, à m'éprouver moi-même dans les rencontres que la fortune me proposait, et partout à faire telle réflexion sur les choses qui se présentaient, que j'en pusse tirer quelque profit. Car il me semblait que je pourrais rencontrer beaucoup plus de vérité, dans les raisonnements que chacun fait touchant les affaires qui lui importent, et dont l'événement le doit punir bientôt après, s'il a mal jugé, que dans ceux que fait un homme de lettres dans son cabinet, touchant des spéculations qui ne produisent aucun effet, et qui ne lui sont d'autre conséquence, sinon que peut-être il en tirera d'autant plus de vanité qu'elles seront plus éloignées du sens commun, à cause qu'il aura dû employer d'autant plus d'esprit et d'artifice à tâcher de les rendre vraisemblables. Et j'avais toujours un extrême désir d'apprendre à distinguer le vrai d'avec le faux, pour voir clair en mes actions, et marcher avec assurance en cette vie.

Il est vrai que, pendant que je ne faisais que considérer les mœurs des autres hommes, je n'y trouvais guère de quoi m'assurer et que j'y remarquais quasi autant de diversité que j'avais fait auparavant entre les opinions des philosophes. En sorte que le plus grand profit que j'en retirais, était que, voyant plusieurs choses qui, bien qu'elles nous semblent fort extravagantes et ridicules,

شيئًا فشيئًا من كثير من الضلالات التي تستطيع أن تخمد عقلنا الفطري[1]، وتنقص من قدرتنا على الفهم. ولكني بعد أن أنفقت على تلك الحال عدّة سنوات في دراسة كتاب العالم، وفي محاولة اكتساب بعض التجارب، عزمت ذات يوم على تناول نفسي بالدرس، وعلى استعمال جميع قواي العقلية في اختيار الطرق التي يجب عليَّ سلوكها. ويبدو لي أنني نجحت في ذلك نجاحًا لم أكن لألقاه لو أنني لم أبتعد عن بلادي، ولا عن كتبي.

1 في الأصل: نورنا الطبيعي Notre lumière naturelle.

ne laissent pas d'être communément reçues et approuvées par d'autres grands peuples, j'apprenais à ne rien croire trop fermement de ce qui ne m'avait été persuadé que par l'exemple et par la coutume ; et ainsi je me délivrais peu à peu de beaucoup d'erreurs, qui peuvent offusquer notre lumière naturelle, et nous rendre moins capables d'entendre raison. Mais après que j'eus employé quelques années à étudier ainsi dans le livre du monde et à tâcher d'acquérir quelque expérience, je pris un jour résolution d'étudier aussi en moi-même, et d'employer toutes les forces de mon esprit à choisir les chemins que je devais suivre. Ce qui me réussit beaucoup mieux, ce me semble, que si je ne me fusse jamais éloigné, ni de mon pays, ni de mes livres.

القسم الثاني
قواعِدُ الطَّريقَة

كنت إذ ذاك في ألمانيا، حيث استدعتني ظروف الحرب التي لم تنته بعد[1]. ولما كنت عائدًا إلى الجيش من حفلة تتويج الامبراطور[2]، أوقفني بدء الشتاء في قرية لم أجد فيها من مخالطة الناس ما يلهيني. ولم يكن لديَّ لحسن الحظ أيّ هم أو هوى يقلقني، فكنت ألبث النهار كله وحدي، في غرفة دافئة، أجد فيها كلّ فراغ لتأمل أفكاري[3]. وكان أول ما لاحظته من هذه الأفكار أن الأعمال المؤلفة من أقسام كثيرة أنجزتها أيدي صناع مختلفين، كثيرًا ما تكون أقل كمالًا من التي نهض بها صانع واحد[4]. لذلك تجد المباني التي شرع فيها مهندس واحد وأتمَّها أجمل في العادة، وأحسن نظامًا من التي عمل على ترقيعها الكثيرون، باستخدام جدران قديمة انشئت من قبل لغايات أخرى. وكذلك المدن القديمة، التي لم تكن في البدء إلاّ قرى، ثم أصبحت بتعاقب الزمان مدنًا كبيرة، فهي في العادة فاسدة الترتيب

---

1 هي حرب الثلاثين سنة التي انتهت عام 1648 بمعاهدة وستفاليا.

2 هو فردينان الثاني، توج امبراطورًا في فرانفورت عام 1619، ودامت حفلات تتويجه من 20 تموز إلى 9 أيلول 1619.

3 عندما غادر ديكارت هولاندة وعد صديقه بيكمان بانفاق أوقات فراغه في تأليف هندسة جديدة. فلما حبس نفسه في هذه الحجرة الدافئة، انكشفت له أسس علم عجيب. وكان ذلك ليلة 10-11 تشرين الثاني عام 1619، أصابه فيها هيجان نفسي غريب وطارت نفسه حماسة. أما الأسس التي انكشفت لديكارت في هذه الليلة، فهي أن مجموع العلوم وحدة مؤتلفة في الفلسفة، أي في المعرفة التي نستقيها من أنفسنا، وأن الله قد أناط بديكارت مهمة بنائها.

4 يورد ديكارت هنا خمسة أمثلة لإثبات رأيه وهي: 1- المباني التي أنشأها مهندس واحد. 2- المدن التي خططها مهندس واحد. 3- الدساتير التي وضعها شارع واحد. 4- العلوم التي أسسها رجل واحد. 5- آراء الرجل الذي يخضع أحكامه السابقة لميزان العقل.

SECONDE PARTIE

RÈGLES DE LA MÉTHODE

J'étais alors en Allemagne, où l'occasion des guerres qui n'y sont pas encore finies m'avait appelé ; et comme je retournais du couronnement de l'empereur vers l'armée, le commencement de l'hiver m'arrêta en un quartier où, ne trouvant aucune conversation qui me divertit, et n'ayant d'ailleurs, par bonheur, aucuns soins ni passions qui me troublassent, je demeurais tout le jour enfermé seul dans un poêle, où j'avais tout loisir de m'entretenir de mes pensées. Entre lesquelles, l'une des premières fut que je m'avisai de considérer, que souvent il n'y a pas tant de perfection dans les ouvrages composés de plusieurs pièces, et faits de la main de divers maîtres, qu'en ceux auxquels un seul a travaillé. Ainsi voit-on que les bâtiments qu'un seul architecte a entrepris et achevés ont coutume d'être plus beaux et mieux ordonnés que ceux que plusieurs ont tâché de raccommoder, en faisant servir des vieilles murailles qui avaient été bâties à d'autres fins. Ainsi ces anciennes cités, qui, n'ayant été au commencement que des bourgades, sont devenues, par succession de temps, de grandes villes, sont ordinairement si mal compassées, au prix de ces

إذا قورنت بتلك المدن المنظمة التي يخططها على الأرض مهندس واحد. ومع أنك إذا نظرت إلى عماراتها كل واحدة على حدتها، وجدت فيها من الفن مثل ما في عمارات المدن الأخرى أو أكثر، فإنك إذا رأيت كيف رتبت، ها هنا بناء عظيم، وهناك بناء صغير، على وجه يجعل الطرق معوجة وغير متساوية، قلت أن الذي رتبها على هذا الوجه إنما هو الاتفاق[1]، لا إرادة رجال اعملوا فيها عقولهم، وإذا لاحظت مع ذلك أنه كان في كل زمان مراقبون وكُلَ إليهم أمر ملاحظة المباني الخاصة، ليجعلوها صالحة لتجميل المدن، عرفت جيدًا أنه من الصعب أن يقوم المرء بأعمال كاملة، ما دام عمله مقصورًا على إنجاز أعمال الآخرين. وكذلك الشعوب التي كانت فيما سلف نصف متوحشة، ولم تتمدن إلاّ شيئًا فشيئًا، ولم تسنَّ قوانينها إلاّ حسبما كانت تضطرها إليها مزعجات الجرائم والمنازعات، فقد خيّل إليَّ أنها لا يمكن أن تكون كاملة النظم كالشعوب التي راعت منذ بدء اجتماعها دساتير شارعٍ حكيم. كما أنه من المؤكد أن هيكل الدين الصحيح الذي شرع الله وحده أحكامه يجب أن يكون إلى الحد الذي لا يُبارى أحسنَ نظامًا من كل ما عداه. وإذا تحدثنا عن الأمور الإنسانية، فإني أعتقد أنه إذا كانت اسبارطة كثيرة الازدهار في الماضي، فليس السبب في ذلك صلاح كل قانون من قوانينها على حدة، لأن كثيرًا منها كان غريبًا جدًّا، ومخالفًا للأخلاق الحسنة[2]، وإنما السبب في ذلك أن واضعها كان

1 في الأصل: fortune، أي البخت، وقد ترجمناه بالاتفاق لأن هذا اللفظ ورد بالمعنى نفسه في «تفسير ما بعد الطبيعة لابن رشد» (الجزء 3، ص 1456 — 1465 من طبعة بويج). راجع أيضًا كتاب «النجاة» لابن سينا، ص 351، مصر 1331. وكتاب «الهوامل والشوامل» لأبي حيان التوحيدي المسألة 34، وفيها الكلام في البخت والاتفاق من ص 94 إلى 108؛ و«الرسالة الجامعة»، جزء 1، ص 55.

2 مثال ذلك أن الاسبارطيين كانوا يضعون الأطفال المشوهين على جبل تايجت (Taygète) ويتركونهم هناك حتى يدركهم الموت؛ ومثال ذلك أيضًا أنهم كانوا يمدحون الأطفال الذين يستطيعون أن يسرقوا الأطعمة من دون أن يعلم بهم أحد.

places régulières qu'un ingénieur trace à sa fantaisie dans une plaine, qu'encore que, considérant leurs édifices chacun à part, on y trouve souvent autant ou plus d'art qu'en ceux des autres ; toutefois, à voir comme ils sont arrangés, ici un grand, là un petit, et comme ils rendent les rues courbées et inégales, on dirait que c'est plutôt la fortune, que la volonté de quelques hommes usant de raison, qui les a ainsi disposés. Et si on considère qu'il y a eu néanmoins de tout temps quelques officiers, qui ont eu charge de prendre garde aux bâtiments des particuliers, pour les faire servir à l'ornement du public, on connaîtra bien qu'il est malaisé, en ne travaillant que sur les ouvrages d'autrui, de faire des choses fort accomplies. Ainsi je m'imaginai que les peuples qui, ayant été autrefois demi-sauvages, et ne s'étant civilisés que peu à peu, n'ont fait leurs lois qu'à mesure que l'incommodité des crimes et des querelles les y a contraints, ne sauraient être si bien policés que ceux qui, dès le commencement qu'ils se sont assemblés, ont observé les constitutions de quelque prudent législateur. Comme il est bien certain que l'état de la vraie religion, dont Dieu seul a fait les ordonnances, doit être incomparablement mieux réglé que tous les autres. Et pour parler des choses humaines, je crois que, si Sparte a été autrefois très florissante, ce n'a pas été à cause de la bonté de chacune de ses lois en particulier, vu que plusieurs étaient fort étranges, et même contraires aux bonnes mœurs, mais à cause que, n'ayant été inventées que par un seul, elles tendaient toutes à même fin. Et ainsi je pensai que les sciences des livres, au moins celles dont les raisons ne sont que probables, et qui n'ont aucunes démonstrations, s'étant composées et grossies peu à peu

شخصًا واحدًا، فجعلها ترمي جميعها إلى غاية واحدة. وكذلك رأيت أن علوم الكتب، أو على الأقل تلك التي لا تشتمل إلاّ على الحجج الاحتمالية[1] لا على البراهين، لما كانت قد أُلِّفت، ثم ضخمت قليلًا قليلًا بما أضيف إليها من آراء كثير من الأشخاص المختلفين، فإنها لم تجيء قريبة من الحقيقة قرب الاستدلالات البسيطة، التي يستطيع أن يؤلفها بالفطرة رجل عاقل[2] فيما يعرض له من الأمور. وكذلك رأيت أنه، نظرًا لأننا كنا جميعًا أطفالًا قبل أن نصبح رجالًا، ولأننا احتجنا إلى أن نظلّ زمانًا طويلًا، يسيّرنا حكم شهواتنا وإرشاد مؤدبينا، وهما في الأغلب مضادان أحدهما للآخر، لا ينصحاننا دائمًا بالأصلح من الأمور، فإنه من المحال تقريبًا أن يكون لأحكامنا من الصفاء والمتانة ما كان يمكن أن يكون لها، لو أننا استعملنا عقلنا تمامًا منذ ميلادنا، ولم نسيَّر قطّ إلا به[3].

وفي الحق، إننا لا نشاهد أن بيوت مدينة تهدم جميعها، لمجرد الرغبة في إعادة بنائها على نظام آخر، أو لتصيير طرقها أجمل، ولكننا نشاهد أن كثيرين يهدمون بيوتهم لإعادة بنائها، وأنهم إنما يضطرون إلى ذلك أحيانًا عندما تكون بيوتهم على خطر السقوط بنفسها، أو تكون غير ثابتة القواعد. وقياسًا على ذلك أيقنت أنه ليس من المعقول أن يضع أحد الناس خطة لإصلاح دولة بتغيير كل شيء فيها من أساسه، وأن يقلبها رأسًا على عقب لتقويم المعوجّ من أمورها، ولا أن يصلح أيضًا مجموعة العلوم، أو النظام المقرّر في المدارس لتعليمها. ولكنني، فيما يتعلق

---

1 يستثني ديكارت من ذلك كتب اقليدس، وأرخميدس، وبابوس.

2 أي الرجل الذي لا يستخدم إلاّ عقله.

3 يشبه ديكارت عقل الطفل بقطعة من النسيج التي لم يصور عليها شيء بعد، ويشبه الحس والميول الطبيعية والمؤدب بمصورين مختلفين يعملون معًا على تصوير صورة واحدة. إلاّ أن حواسنا ناقصة، وغريزتنا عمياء، ومؤدبينا عاجزون. فلا بدّ اذن لإكمال الصورة من تدخل العقل، وهو المصور الحاذق الذي يصلح بألوانه الأخيرة ما أفسده المصورون الأولون.

des opinions de plusieurs diverses personnes, ne sont point si approchantes de la vérité que les simples raisonnements que peut faire naturellement un homme de bon sens touchant les choses qui se présentent. Et ainsi encore je pensai que, pource que nous avons tous été enfants avant que d'être hommes, et qu'il nous a fallu longtemps être gouvernés par nos appétits et nos précepteurs, qui étaient souvent contraires les uns aux autres, et qui, ni les uns ni les autres, ne nous conseillaient peut-être pas toujours le meilleur, il est presque impossible que nos jugements soient si purs, ni si solides qu'ils auraient été, si nous avions eu l'usage entier de notre raison dès le point de notre naissance, et que nous n'eussions jamais été conduits que par elle.

Il est vrai que nous ne voyons point qu'on jette par terre toutes les maisons d'une ville, pour le seul dessein de les refaire d'autre façon, et d'en rendre les rues plus belles ; mais on voit bien que plusieurs font abattre les leurs pour les rebâtir, et que même quelquefois ils y sont contraints, quand elles sont en danger de tomber d'elles-mêmes, et que les fondements n'en sont pas bien fermes. A l'exemple de quoi je me persuadai, qu'il n'y aurait véritablement point d'apparence qu'un particulier fit dessein de réformer un Etat, en y changeant tout dès les fondements, et en le renversant pour le redresser ; ni même aussi de réformer le corps

بجميع الآراء التي أخذت بها إلى ذلك العهد، لم أجد بدًّا من محاولة انتزاعها من ذهني دفعة واحدة، وذلك لاستبدل بها غيرها مما هو خير منها، أو لأعيدها هي نفسها إليه بعد ذلك[1]، بعد أن أكون قد سوّيتها بميزان العقل. ولقد اعتقدت اعتقادًا راسخًا أنني سأنجح بهذه الوسيلة في سياسة حياتي على وجه أفضل مما لو لم أبنِ إلاّ على أسس قديمة، ولم أعتمد إلاّ على مبادئ أذعنت لها في حداثتي، من دون أن أمتحن صدقها أبدًا. لأنني وإن وجدت في هذا الأمر صعوبات شتى[2] إلاّ أنها لم تكن مع ذلك دون علاج، ولم تكن أيضًا لتقارن بالصعوبات التي نجدها في إصلاح ما يمسّ الجمهور من أحقر الأشياء. إنه لمن الصعب إقامة هذه الأجسام الكبيرة إذا هوت، أو حفظها إذا تزعزعت، وسقوطها لا يكون إلاّ عنيفًا. أما عيوبها، إذا كان فيها عيوب - ومجرد الاختلاف الذي بينها يكفي للتوكيد أن في كثير منها عيوبًا - فإن الاستعمال قد لطفها كثيرًا، لا بل هو قد جنّبها أو صحّح منها، بصورة غير محسوسة، كثيرًا مما لا يمكن تلافيه إلاّ بالحكمة[3]. وأخيرًا فإن الإنسان يكاد دائمًا يتحمل بقاء هذه العيوب أكثر مما يحتمل تغييرها، كما ان الطرق المتلوّية بين الجبال تصبح شيئًا فشيئًا، لكثرة التردد عليها، مستوية وممهدة إلى حدّ يجعل سلوكها أوفق للسائر من اتباع طريق مستقيم يتسلق فيه الصخور، ثم ينحدر إلى بطون الوهاد.

---

1 يشبه ديكارت هذا الفعل بعمل رجل وجد في سلته تفاحًا فاسدًا وتفاحًا جيدًا فرأى أن خير وسيلة يمكنه الأخذ بها للتفريق بين الجيد والفاسد هي أن يلقي أولاً بجميع ما في السلة إلى الأرض، وأن يفحص التفاح بعد ذلك، ويعيد الجيد منه إلى السلة، ويترك الفاسد.

2 من هذه الصعوبات التعرض للشك المطلق بعد انتزاع جميع الآراء السابقة من الفكر، ومنها بناء الأخلاق على العلوم الأخرى التي لم تتم بعد، في حين أن الحياة لا تتحمل هذا التأجيل.

3 هذا الرأي مقتبس من مونتني؛ راجع: Essais, 1, ch. XXIII, de la coutume et de ne changer aisément une loi reçue, éd. P. Villey, t I, pp. 152 – 156.

des sciences, ou l'ordre établi dans les écoles pour les enseigner ; mais que, pour toutes les opinions que j'avais reçues jusques alors en ma créance, je ne pouvais mieux faire que d'entreprendre, une bonne fois, de les en ôter, afin d'y en remettre par après, ou d'autres meilleures, ou bien les mêmes, lorsque je les aurais ajustées au niveau de la raison. Et je crus fermement que, par ce moyen, je réussirais à conduire ma vie beaucoup mieux que si je ne bâtissais que sur de vieux fondements, et que je ne m'appuyasse que sur les principes que je m'étais laissé persuader en ma jeunesse, sans avoir jamais examiné s'ils étaient vrais. Car, bien que je remarquasse en ceci diverses difficultés, elles n'étaient point toutefois sans remède, ni comparables à celles qui se trouvent en la réformation des moindres choses qui touchent le public. Ces grands corps sont trop malaisés à relever, étant abattus, ou même à retenir, étant ébranlés, et leurs chutes ne peuvent être que très rudes. Puis, pour leurs imperfections, s'ils en ont, comme la seule diversité qui est entre eux suffit pour assurer que plusieurs en ont, l'usage les a sans doute fort adoucies ; et même il en a évité ou corrigé insensiblement quantité, auxquelles on ne pourrait si bien pourvoir par prudence. Et enfin, elles sont quasi toujours plus supportables que ne serait leur changement : en même façon que les grands chemins, qui tournoient entre des montagnes, deviennent peu à peu si unis et si commodes, à force d'être fréquentés, qu'il est beaucoup meilleur de les suivre que d'entreprendre d'aller plus droit, en grimpant au-dessus des rochers, et descendant jusques au bas des précipices.

لذلك لا أستطيع أبدًا أن أحبذ تلك الأمزجة المضطربة والقلقة، التي لا تبرح تُعمل الفكر في وضع خطط جديدة للإصلاح، مع أنها ليست مدعوّة بحكم نسبها ومكانتها إلى إدارة الأعمال العامة. ولو رأيت أن في هذا المقال أقل شيء يتيح اتهامي بذلك الجنون، لندمت كثيرًا على السماح بنشره. إن قصدي لم يمتد قط إلى أبعد من العمل على إصلاح أفكاري الخاصة، والبناء على أساس كله من وضعي وإذا كنت أعرض عليكم هنا نموذجًا من عمل أنا راضٍ عنه بعض الشيء، فليس المقصود بذلك اني أريد أن أنصح أحدًا بتقليده. إن الذين اختصهم الله بنعمته أكثر منّي، قد يكون لهم مقاصد أسمى من مقصدي. ولكني أخشى أن يكون هذا العمل في منتهى الجرأة بالنسبة إلى الكثيرين. إن مجرّد العزم على التجرّد من جميع الآراء التي اعتقدها المرء من قبل ليس مثالًا يجب على كل انسان احتذاؤه[1]. والعالم يكاد يكون مؤلفًا من نوعين من العقول لا يصلحان أبدًا لاحتذاء هذا المثال. أما النوع الأول فيشتمل على الذين يورثهم ادعاؤهم بما ليس فيهم، من الحذق، عجزًا عن منع أنفسهم من التهوّر في الحكم، ولا يكون لهم من الصبر ما يعينهم على قيادة أفكارهم كلها في نظام. ومن ثم فإنهم لو أعطوا أنفسهم مرة حرية الشك في المبادئ التي نقلوها، وابتعدوا عن الطريق العام، لما استطاعوا أن يلزموا الصراط المستقيم الذي يجب سلوكه، ولظلوا في ضلال كل أيام حياتهم. وأما النوع الثاني فيشتمل على الذين أوتوا من العقل والتواضع ما يكفيهم للحكم بأنهم أقل قدرة على تمييز الحق من الباطل[2] من بعض الذين يستطيعون أن يكونوا لهم معلمين. فهم أولى باتباع آراء هؤلاء من أن يبحثوا هم أنفسهم عمّا هو أحسن منهم.

1 يشير هنا إلى المخاطر التي تنشأ عن طريقة الشك الكلي، إذا أخذ بها جميع الناس.

2 إن جميع الناس متساوون في قوة العقل، وقادرون على تمييز الحق من الباطل، ولكنهم ليسوا متساوين في قوة الاختراع، فمساواة الناس في قوة العقل لا تمنع إذن تباينهم في قوة الاختراع، والتخيل، والذاكرة وغيرها.

C'est pourquoi je ne saurais aucunement approuver ces humeurs brouillonnes et inquiètes, qui, n'étant appelées, ni par leur naissance, ni par leur fortune, au maniement des affaires publiques, ne laissent pas d'y faire toujours, en idée, quelque nouvelle réformation ; et si je pensais qu'il y eût la moindre chose en cet écrit, par laquelle on me pût soupçonner de cette folie, je serais très marri de souffrir qu'il fût publié. Jamais mon dessein ne s'est étendu plus avant que de tâcher à réformer mes propres pensées, et de bâtir dans un fonds qui est tout à moi. Que si, mon ouvrage m'ayant assez plu, je vous en fais voir ici le modèle, ce n'est pas, pour cela, que je veuille conseiller à personne de l'imiter. Ceux que Dieu a mieux partagés de ses grâces auront peut-être des desseins plus relevés ; mais je crains bien que celui-ci ne soit déjà que trop hardi pour plusieurs. La seule résolution de se défaire de toutes les opinions qu'on a reçues auparavant en sa créance, n'est pas un exemple que chacun doive suivre ; et le monde n'est quasi composé que de deux sortes d'esprits auxquels il ne convient aucunement. A savoir, de ceux qui, se croyant plus habiles qu'ils ne sont, ne se peuvent empêcher de précipiter leurs jugements, ni avoir assez de patience pour conduire par ordre toutes leurs pensées : d'où vient que, s'ils avaient une fois pris la liberté de douter des principes qu'ils ont reçus, et de s'écarter du chemin commun, jamais ils ne pourraient tenir le sentier qu'il faut prendre pour aller plus droit, et demeureraient égarés toute leur vie. Puis, de ceux qui, ayant assez de raison, ou de modestie, pour juger qu'ils sont moins capables de distinguer le vrai d'avec le faux, que quelques autres par lesquels ils peuvent être instruits, doivent bien plutôt se contenter de suivre les opinions de ces autres, qu'en chercher eux-mêmes de meilleures.

أما أنا، فلو لم يكن لي إلاّ أستاذ واحد، ولم أعرف الاختلافات التي وقعت في كل زمان بين آراء أكبر العلماء، لكنت أُعَدُّ بلا ريب في زمرة هؤلاء الرجال. ولكنني لما كنت قد تعلمت منذ أيام المدرسة أنه ما من أمر غريب وبعيد الصديق يمكننا تخيّله إلاّ قال به أحد الفلاسفة، وكنت بعد ذلك قد عرفت في رحلاتي أن جميع الذين لهم عواطف مخالفة لعواطفنا ليسوا من أجل ذلك برابرة ولا متوحشين، وأن الكثيرين منهم إنما يستخدمون عقولهم مثلنا أو أكثر منا، وأن الرجل نفسه إذا كان له عقله ذاته، ونشأ منذ طفولته بين الفرنسيين أو الألمانيين، فإنه يختلف عمّا قد يكون عليه لو أنه نشأ بين الصينيين أو الكانيباليين[1]، وكيف أن الشيء الواحد – وبخاصة في أزياء ملابسنا – الذي أعجبنا قبل عشر سنين، والذي قد يعجبنا أيضًا قبل أن تمضي عشر سنين، يبدو لنا الآن شاذًّا ومضحكًا، بحيث نجد أن الاعتياد والتقليد هما اللذان يقنعاننا أكثر من أيّ معرفة يقينية، وأن كثرة الأصوات ليست دليلًا ذا قيمة على الحقائق التي يصعب كشفها، لأنه من الأقرب إلى الاحتمال أن يجدها رجل واحد، من أن يجدها شعب بأسره، – لذلك كله لم أستطع أن أختار رجلًا تُفضّل آراؤه على آراء الآخرين، ووجدتني مضطرًّا إلى أن أتولّى توجيه نفسي بنفسي.

ولكنني، كمثل رجل يسير وحده في الظلمات، عزمت على أن أسير ببطء شديد، وأن اتخذ كثيرًا من الحيطة في جميع الأمور. ولئن كنت لم أتقدّم إلاّ قليلًا جدًّا، لقد صنتُ نفسي على الأقل من السقوط. حتى انني لم اشأ البتة أن أبدأ بنبذ أيّ رأي من الآراء التي انتقلت في وقتٍ ما إلى نفسي بغير طريق العقل، إلاّ إذا أنفقت وقتًا كافيًا في إعداد خطة العمل الذي توليته، وفي البحث عن الطريقة الصحيحة الموصلة إلى جميع الأشياء التي يقدر عليها عقلي.

---

1 هم المتوحشون أي أكلة لحوم البشر.

Et pour moi, j'aurais été sans doute du nombre de ces derniers, si je n'avais jamais eu qu'un seul maître, ou que je n'eusse point su les différences qui ont été de tout temps entre les opinions des plus doctes ; mais ayant appris, dès le collège, qu'on ne saurait rien imaginer de si étrange et si peu croyable, qu'il n'ait été dit par quelqu'un des philosophes ; et depuis, en voyageant, ayant reconnu que tous ceux qui ont des sentiments fort contraires aux nôtres, ne sont pas, pour cela, barbares ni sauvages, mais que plusieurs usent, autant ou plus que nous, de raison ; et ayant considéré combien un même homme, avec son même esprit, étant nourri dès son enfance entre des Français ou des Allemands, devient différent de ce qu'il serait s'il avait toujours vécu entre des Chinois ou des cannibales ; et comment, jusques aux modes de nos habits, la même chose qui nous a plu il y a dix ans, et qui nous plaira peut-être encore avant dix ans, nous semble maintenant extravagante et ridicule ; en sorte que c'est bien plus la coutume et l'exemple qui nous persuadent, qu'aucune connaissance certaine, et que néanmoins la pluralité des voix n'est pas une preuve qui vaille rien pour les vérités un peu malaisées à découvrir, à cause qu'il est bien plus vraisemblable qu'un homme seul les ait rencontrées que tout un peuple, je ne pouvais choisir personne dont les opinions me semblassent devoir être préférées à celles des autres, et je me trouvai comme contraint d'entreprendre moi-même de me conduire.

Mais, comme un homme qui marche seul et dans les ténèbre, je me résolus d'aller si lentement, et d'user de tant de circonspection en toutes choses, que, si je n'avançais que fort peu, je me garderais bien, au moins, de tomber. Même je ne voulus point commercer

لقد درست قليلًا، وأنا في سني الحداثة[1]، من بين أقسام الفلسفة المنطق، ومن بين أقسام الرياضيات التحليلَ الهندسي والجبرَ، وهي ثلاثة فنون أو علوم خيّل إليّ أنها ستمدني بشيء من العون للوصول إلى مطلبي. ولكنني عندما اختبرتها تبيّن لي، فميا يتعلق بالمنطق، أن أقيسته وأكثر تعاليمه[2] الأخرى لا تنفعنا في تعلّم الأمور بقدر ما تعيننا على أن نشرح لغيرنا من الناس ما نعرفه منها، أو هي كصناعة لول[3] تعيننا على الكلام دون تفكير عن الأشياء التي نجهلها. ومع أن هذا العلم يشتمل في الحقيقة على كثير من القواعد الصحيحة والمفيدة[4]، فإن فيه أيضًا قواعد أخرى كثيرة ضارّة وزائدة. وهي مختلطة بالأولى، بحيث يصعب فصلها عنها، كما يصعب استخراج تمثال ديانا أو مينيرڤا من قطعة من المرمر لم تنحت بعد. ثم أنه فيما يختص بتحليل القدماء[5]، وبعلم الجبر عند المحدثين[6]، ففضلًا عن انهما لا يشتملان إلاّ على أمور مجرّدة جدًّا، وليس لهما كما يبدو

---

1 أي في مدرسة لافليش.

2 مثال ذلك: قواعد الجدل، وقواعد الخطابة، وغيرها.

3 ريمون لول (Raymond Lulle) راهب فرنسيسكاني (1932—1315)، وهو مؤلف كتاب «الصناعة» المشتمل على حقيقة المسيحية، والرد على منكريها، وقد بالغ تلاميذ لول في هذه الصناعة حتى قلبوها إلى آلة يبرهنون بها على كل شيء. ومما هو جدير بالذكر أن ديكارت اجتمع بأحد هؤلاء التلاميذ عام 1619 في نزل بدورديخت (Dordecht) فوجد لسانه أعلم من دماغه، لأنه كان يفتخر بأنه يستطيع أن يتكلم ساعة كاملة في كل موضوع، وأنه يستطيع أن يجيئك في الساعة الثانية بكلام مضاد للأول في الموضوع نفسه، وهكذا دواليك.

4 من هذه القواعد: قواعد القياس، وقاعدة الانتقال من المعلوم إلى المجهول، وقاعدة تقسيم المعضلات إلخ...

5 المقصود بتحليل القدماء الطريقة التي سلكها علماء اليونان لحل المسائل الهندسية، وهي مذكورة في الترجمة اللاتينية للمجموعات الرياضية التي ألفها بابوس. تقوم هذه الطريقة على فرض المسألة محلولة، وعلى البحث عن الشروط السابقة التي تجعل هذا الحل ممكنًا، ولا تزال تنتقل من شرط سابق إلى شرط أسبق، حتى تنتهي إلى حقيقة برهانية، أو إلى مبدإ أول، فهي إذن ضد طريقة التركيب التي تنقل الفكر من المبادئ إلى النتائج.

6 هو جبر كلاڤيوس (Clavius) الذي درسه ديكارت في مدرسة لافليش.

à rejeter tout à fait aucune des opinions, qui s'étaient pu glisser autrefois en ma créance sans y avoir été introduites par la raison, que je n'eusse auparavant employé assez de temps à faire le projet de l'ouvrage que j'entreprenais, et à chercher la vraie méthode pour parvenir à la connaissance de toutes les choses dont mon esprit serait capable.

J'avais un peu étudié, étant plus jeune, entre les parties de la philosophie, à la logique, et, entre les mathématiques, à l'analyse des géomètres et à l'algèbre. Trois arts ou sciences qui semblaient devoir contribuer quelque chose à mon dessein. Mais, en les examinant, je pris garde que, pour la logique, ses syllogismes et la plupart de ses autres instructions servent plutôt à expliquer à autrui les choses qu'on sait, ou même, comme l'art de Lulle, à parler, sans jugement, de celles qu'on ignore, qu'à les apprendre. Et bien qu'elle contienne, en effet, beaucoup de préceptes très vrais et très bons, il y en a toutefois tant d'autres, mêlés parmi, qui sont ou nuisibles ou superflus, qu'il est presque aussi malaisé de les en séparer, que de tirer une Diane ou une Minerve hors d'un bloc de marbre qui n'est point encore ébauché. Puis, pour l'analyse des anciens et l'algèbre des modernes, outre qu'elles ne s'étendent qu'à des matières fort abstraites, et qui me semblent d'aucun usage, la première est toujours si astreinte à la considération des figures, qu'elle ne peut exercer l'entendement sans fatiguer beaucoup l'imagination ; et on s'est tellement assujetti, en la dernière, à certaines règles et à certains chiffres, qu'on en a fait

أي استعمال، فإنّ الأول مقصور دائمًا على ملاحظة الأشكال، لا يستطيع أن يمرّن الذهن دون أن يتعب الخيال. أما الثاني فإنه مقيّد بقواعد وأرقام جعلت منه فنًّا مبهمًا وغامضًا يشوّش العقل، بدلًا من أن يكون علمًا يثقفه. هذا ما حملني على التفكير في وجوب البحث عن طريقة أخرى تجمع بين مزايا هذه العلوم الثلاثة، وتكون خالية من عيوبها. وكما أن كثرة القوانين تهيئ في الأغلب سُبُل الرذيلة، بحيث تكون الدولة أحسن نظامًا عندما تكون قوانيها أقلّ عددًا، ويكون الناس أكثرَ مراعاة لها، فكذلك رأيت أنه، بدلًا من هذا العدد الكبير من القواعد التي يتألف منها المنطق، يمكنني أن أكتفي بالقواعد الأربع الآتية، شريطة أن أعزم عزمًا صادقًا[1] وثابتًا على أن لا أخلّ مرةً واحدةً بمراعاتها.

الأولى[2]: ان لا أتلقى على الإطلاق شيئًا على أنه حق ما لم أتبيّن بالبداهة أنه كذلك، أي أن أُعْنَى بتجنّب التعجّل والتشبث بالأحكام السابقة[3]، وأن لا أدخل في أحكامي إلاّ ما يتمثّل لعقلي في وضوح وتميّز[4] لا يكون لديّ معهما أيّ مجال لوضعه موضع الشكّ.

1 الحكم تابع للإرادة، ما أوهامنا إلاّ عادات سيئة متأصلة في إرادتنا، فإذا أردنا أن نتحرر منها وجب علينا أن نريد ذلك، ونعزم عليه عزمًا صادقًا، لا أن نتعلم قواعد الطريقة لا غير، لأن معرفة تطبيق الطريقة لا تعصم من الاخلال بقواعدها إلاّ إذا انضمّت إليها الإرادة.

2 تسمى القاعدة الأولى بقاعدة البداهة، والبديهي هو الأمر الذي تظهر حقيقته للعقل مباشرة. وهو مضاد: 1 للباطل، و2 للمحتمل القريب من الحقيقة. فقاعدة البداهة تخرج إذن من ميدان الفلسفة كل ما هو باطل ومحتمل. وتقتصر على الحقائق الضرورية.

3 التعجل (précipitation): هو الحكم على الشيء قبل أن يصل العقل فيه إلى البداهة واليقين. والتشبث بالأحكام السابقة (prévention) هو أن يكوّن للمرء في بعض المسائل أحكام يتشبث بها قبل النظر فيها. وهذه الأحكام اما أن ترجع إلى زمن الطفولة، واما أن نأخذها من غيرنا بالتقليد. ويسمى الرأي المبني على التشبث وهمًا.

4 وضوح الفكرة (clarté): هو الأثر الذي يحدثه إدراك تلك الفكرة ادراكًا مباشرًا عندما تكون حاضرة في الذهن، وضده الغموض. وهو تذكر إدراكنا السابق لمضمون الفكرة. وكلما كان التذكر أكذب كان الغموض أشد.

un art confus et obscur, qui embarrasse l'esprit, au lieu d'une science qui le cultive. Ce qui fut cause que je pensai qu'il fallait chercher quelque autre méthode, qui, comprenant les avantages de ces trois, fût exemple de leurs défauts. Et comme la multitude des lois fournit souvent des excuses aux vices, en sorte qu'un État est bien mieux réglé lorsque, n'en ayant que fort peu, elles y sont fort étroitement observées ; ainsi, au lieu de ce grand nombre de préceptes dont la logique est composée, je crus que j'aurais assez des quatre suivants, pourvu que je prisse une ferme et constante résolution de ne manquer pas une seule fois à les observer.

Le premier était de ne recevoir jamais aucune chose pour vraie, que je ne la connusse évidemment être telle ; c'est-à-dire, d'éviter soigneusement la précipitation et la prévention ; et de ne comprendre rien de plus en mes jugements, que ce qui se présenterait si clairement et si distinctement à mon esprit, que je n'eusse aucune occasion de le mettre en doute.

والثانية: أن أقسم كل واحدة من المعضلات التي أبحثها إلى عدد من الأجزاء الممكنة واللازمة لحلها على أحسن وجه[1].

والثالثة[2]: أن أرتب أفكاري، فأبدأ بأبسط الأمور وأيسرها معرفة[3]، وأتدرج في الصعود شيئًا فشيئًا حتى أصل إلى معرفة أكثر الأمور تركيبًا[4]، بل أن أفرض ترتيبًا بين الأمور التي لا يسبق بعضها بعضًا بالطبع.

والأخيرة: أن أقوم في جميع الأحوال بإحصاءات كاملة ومراجعات عامة تجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئًا[5].

أما تميّز الفكرة (distinction) فهو اشتمالها على جميع العناصر الخاصة بها، وعدم اشتمالها على أي عنصر لا يخصها. يقول ديكارت: «أعني بالمتميزة(distincte) الفكرة التي بلغ وضوحها واختلافها عن كل ما عداها انها لا تحوي في ذاتها إلاّ ما يبدو بجلاء لمن ينظر فيها كما ينبغي» [مبادىء الفلسفة 1: 45]. وضد التميّز الالتباس (confusion)؛ ويكون في الفكرة التباس بقدر ما يكون الإدراك الواضح لمضمونها مختلطًا بأفكار أخرى لم تدرك إلّا بغموض، وإذن لا يمكن أن تكون الفكرة متميّزة من دون أن تكون واضحة، بل الفكرة التي لا تشتمل إلاّ على عناصر واضحة لا تكون إلاّ متميّزة. ولكن الفكرة الواضحة قد تختلط بعناصر غير واضحة فتكون إذن واضحة من دون أن تكون متميزة.

1 تسمى هذه القاعدة بفاعل التحليل (analyse).

2 تسمى هذه القاعدة بقاعدة التركيب (synthèse).

3 تكون الفكرة أيسر معرفة من غيرها عندما تكون متقدمة على غيرها في سلسلة الاستدلال. والفكرة الأيسر معرفة تكون في الوقت نفسه أكثر بداهة. فإذا كانت الفكرة (ب) متقدمة على الفكرة (ج) في سلسلة الاستدلال، كانت الأولى أيسر معرفة من الثانية، وأكثر منها بداهة ويقينًا، وأقرب منها إلى المبادئ الأولى.

4 للفكر في سلاسل الاستنتاج مراتب. فالفكرة المتقدمة أبسط من المتأخرة. والمتأخرة أكثر تركيبًا من المتقدمة. وبعض الفكر كفكرة الإله، والنفس، والجسم، التي لا يمكن إرجاعها إلى فكر أبسط منها تسمى بالطبائع البسيطة (natures simples). والقاعدة الثالثة من قواعد ديكارت توجب الإبتداء بالطبائع البسيطة، والتدرج في الصعود شيئًا فشيئًا إلى الطبائع المركبة.

5 تسمى هذه القاعدة بقاعدة الاستقراء أو الاحصاء، وهي تدعونا إلى أن نستوثق من أننا لم نغفل أي جزء من أجزاء المشكلة التي نريد حلها، وأن نستعرض جميع استدلالاتنا بحركة متصلة. يقول ديكارت: «إذا كان لدي سلسلة من الروابط، فأنا لا أستطيع أن أحيط بها كلها إلاّ إذا تصفحتها مرات بحركة متصلة من حركات الفكر، بحيث إذا تصوّرت واحدة منها بالحدس انتقلت إلى أخرى، وإذا كان الانتقال سريعًا انقلب الاستنتاج إلى حدس».

Le second, de diviser chacune des difficultés que j'examinerais, en autant de parcelles qu'il se pourrait, et qu'il serait requis pour les mieux résoudre.

Le troisième, de conduire par ordre mes pensées, en commençant par les objets les plus simples et les plus aisés à connaître, pour monter peu à peu, comme par degrés, jusques à la connaissance des plus composés ; et supposant même de l'ordre entre ceux qui ne se précèdent point naturellement les uns les autres.

Et le dernier, de faire partout des dénombrements si entiers, et des revues si générales, que je fusse assuré de ne rien omettre.

إن هذه السلاسل الطويلة من الحجج البسيطة والسهلة، التي تَعَوَّد علماء الهندسة استعمالها للوصول إلى أصعب براهينهم، أتاحت لي أن أتخيّل أن جميع الأشياء، التي يمكن أن تقع في متناول المعرفة الإنسانية، تتعاقب على صورة واحدة، وأنه إذا تحامى المرء أن يتلقى ما ليس منها بحق على أنه حق، وحافظ دائمًا على الترتيب اللازم لاستنتاجها بعضها من بعض، فإنه لا يجد بين تلك الأشياء بعيدًا لا يمكن إدراكه ولا خفيًّا لا يستطاع كشفه[1]. ولم أجد كبير عناء في البحث عن الأمور التي يجب الابتداء بها، لأنني كنت أعرف من قبل أن الابتداء إنما يكون بأبسط الأشياء وأسهلها معرفة[2]. ولما رأيت أن بين الذين بحثوا من قبل عن الحقيقة في العلوم لم يستطع أحد غير الرياضيين أن يهتديَ إلى بعض البراهين، أي إلى بعض الحجج اليقينية والبديهية، لم أشكَّ أبدًا في أن ذلك لم يتيسر لهم إلاّ بطريق الأمور التي عالجوها، ولم أؤمل منها أي فائدة أخرى سوى تعويد عقلي مؤالفة الحقائق البديهية[3]، ونَبْذ الحجج الباطلة. ولكن مطلوبي لم يكن قط من أجل ذلك أن أتعلّم جميع العلوم الخاصة التي يطلق عليها عامّة اسم الرياضيات[4]. لأني لما رأيت أنها، بالرغم من اختلاف موضوعاتها، متفقة جميعها في الاقتصار على البحث في النسب أو العلاقات[5] الموجودة بينها، أدركت أنه من الخير لي أن أقتصر على النظر في هذه العلاقات

---

1 المعرفة الرياضية هي المثل الأعلى للمعرفة، ووحدة العلوم عند ديكارت لا تنفصل زمانيًّا ولا منطقيًّا عن شمول الطريقة الرياضية لجميع المعارف البشرية.

2 عملاً بأحكام القاعدة الثالثة.

3 إن المسائل الرياضية البسيطة تكفي لتعويد العقل مؤالفة الحقائق البديهية، شريطة أن يتمرن الذهن على حلها.

4 كانوا يقسمون الرياضيات إلى رياضيات محضة (كعلم الحساب، والهندسة)، ورياضيات مختلطة (كعلم الفلك والموسيقى، والضوء الهندسي، والميكانيك)، ولكن ديكارت يرى أن هذه العلوم واحدة في نظر العقل وان اختلفت بحسب موضوعاتها.

5 تقع النسبة بين الحدين عندما تستطيع أن تقول أن أحدهما مساوٍ للآخر أو أعظم منه أو أصغر.

Ces longues chaînes de raisons, toutes simples et faciles, dont les géomètres ont coutume de se servir, pour parvenir à leurs plus difficiles démonstrations, m'avaient donné occasion de m'imaginer que toutes les choses, qui peuvent tomber sous la connaissance des hommes, s'entre–suivent en même façon et que, pourvu seulement qu'on s'abstienne d'en recevoir aucune pour vraie qui ne le soit, et qu'on garde toujours l'ordre qu'il faut pour les déduire les unes des autres, il n'y en peut avoir de si éloignées auxquelles enfin qu'on ne parvienne, ni de si cachées qu'on ne découvre. Et je ne fus pas beaucoup en peine de chercher par lesquelles il était besoin de commencer : car je savais déjà que c'était par les plus simples et les plus aisées à connaître ; et considérant qu'entre tous ceux qui ont ci–devant recherché la vérité dans les sciences, il n'y a eu que les seuls mathématiciens qui ont pu trouver quelques démonstrations, c'est-à-dire quelques raisons certaines et évidentes, je ne doutais point que ce ne fût par les mêmes qu'ils ont examinées ; bien que je n'en espérasse aucune autre utilité, sinon qu'elles accoutumeraient mon esprit à se repaître de vérités, et ne se contenter point de fausses raisons. Mais je n'eus pas dessein, pour cela, de tâcher d'apprendre toutes ces sciences particulières, qu'on nomme communément mathématiques ; et voyant qu'encore que leurs objets soient différents, elles ne laissent pas de s'accorder toutes, en ce qu'elles n'y considèrent autre chose que les divers rapports ou proportions qui s'y trouvent, je pensai qu'il valait mieux que j'examinasse seulement ces proportions en général, et sans les supposer que dans les sujets qui serviraient à m'en rendre la connaissance

عامّة، دون افتراض وجودها إلاّ في الموضوعات التي تعين على تسهيل معرفتي بها، ودون تقييدها بها البتة، حتى تزداد قدرتي فيما بعد على تطبيقها في جميع الموضوعات الأخرى التي توافقها. ثم إني لما تنبهت لتلك العلاقات، وتبيّن لي أن معرفتها تحتاج تارة إلى النظر في كل واحدة منها على حدة[1]، وتحتاج تارة أخرى إلى الجمع بينها[2] أو إلى النظر في كثير منها معًا، رأيت أنه لإجادة النظر في كل واحدة منها على حدّة يجب فرضها خطوطًا، لأن الخطوط أبسط الأشياء[3]، وليس فيما يتصوّره خيالي، وتدركه حواسي ما هو أكثر تميزًا منها، ولكن للجمع بينها أو للنظر في كثير منها معًا يجب التعبير عنها برموز هي في أقصى درجات الإيجاز[4]. وبهذه الوسيلة أمكنني أن أقتبس من الجبر والتحليل الهندسي خير ما فيهما، وأن أصحح عيوب كل منهما بالآخر[5].

وإني لأجرؤ في الحقيقة على القول أن المراعاة الدقيقة لهذا العدد القليل من القواعد التي اخترتها سهلت عليَّ كثيرًا حلّ جميع المسائل التي يتناولها هذان العلمان بالبحث. حتى أنني خلال شهرين أو ثلاثة[6] قضيتها في امتحانها، مبتدئًا بأبسط الأمور وأعمّها، ومستعينًا بكل حقيقة وجدتها على كشف غيرها من الحقائق، لم أنته إلى حلّ كثير من المسائل التي

---

1 يتم هذا النظر بإدراك العلاقات البسيطة إدراكًا حدسيًّا مباشرًا.

2 يتم هذا الجمع بواسطة الذاكرة كما في حالة الإحصاء أو الاستقصاء.

3 الخطوط أبسط من الأعداد، لأنك تستطيع أن تعبّر بها عن جميع المقادير، أما الأعداد فإنك لا تستطيع أن تعبر بها إلاّ عن المقادير المشتركة القياس، أضف إلى ذلك أن العلاقة الموجودة بين خطين لا تنحصر في هذين الخطين وحدهما، لأنها قد توجد بين سطحين، أو بين حجمين أيضًا.

4 يعني برموز جبرية موجزة. وقد استعمل ديكارت حروف الهجاء للدلالة على الكميات المعلومة، واستعمل الحرفين X, Y للدلالة على الكميات المجهولة؛ أما الإشارات الجذرية أو الشيئية (cossiques) التي كانوا يستعملونها إلى ذلك العهد للدلالة على القوة فقد استبدل بها ديكارت أرقامًا كتبها فوق الحدود هكذا (a^2, b^2).

5 ان الهندسة التحليلية التي اخترعها ديكارت بفضل طريقته تجمع بين مزايا الهندسة ومزايا الجبر.

6 خلال شهر كانون الأول عام 1619، وشهري كانون الثاني وشباط عام 1620.

plus aisée ; même aussi sans les y astreindre aucunement, afin de les pouvoir d'autant mieux appliquer après à tous les autres auxquels elles conviendraient. Puis, ayant pris garde, que pour les connaître, j'aurais quelquefois besoin des les considérer chacune en particulier, et quelquefois seulement de les retenir, ou de les comprendre plusieurs ensemble, je pensai que, pour les considérer mieux en particulier, je les devais supposer en des lignes, à cause que je ne trouvais rien de plus simple, ni que je pusse plus distinctement représenter à mon imagination et à mes sens ; mais que, pour les retenir, ou les comprendre plusieurs ensemble, il fallait que je les expliquasse par quelques chiffres, les plus courts qu'il serait possible ; et que, par ce moyen, j'emprunterais tout le meilleur de l'analyse géométrique et de l'algèbre, et corrigerais tous les défauts de l'une par l'autre.

Comme, en effet, j'ose dire que l'exacte observation de ce peu de préceptes que j'avais choisis, me donna telle facilité à démêler toutes les questions auxquelles ces deux sciences s'étendent, qu'en deux ou trois mois que j'employai à les examiner, ayant commencé par les plus simples et plus générales, et chaque vérité que je trouvais étant une règle qui me servait après à en trouver d'autres, non seulement je vins à bout de plusieurs que j'avais jugées autrefois très difficiles, mais il me sembla aussi, vers la fin, que je pouvais déterminer, en celles même que j'ignorais, par

كنت أحسبها من قبل صعبة فحَسْبُ، بل بدا لي أيضًا في النهاية أنني أستطيع أن أعيّن بأي وسيلة وإلى أي حد يمكنني حلّ المسائل التي كنت أجهلها. وقد يظهر لكم أني غير عابث إذا لاحظتم أنه ليس للشيء الواحد إلاّ حقيقة واحدة، وإن من يجدها يعلم عنها كل ما يستطاع علمه، وأنه إذا تعلّم طفل علم الحساب مثلًا وجمع بعض الأعداد بحسب قواعده، فإنه يستطيع أن يثق بأنه وجد، فيما يختص بالمجموع الذي هو بصدده، كل ما يستطيع العقل البشري أن يجده. لأن الطريقة التي تعلّم المرء اتباع الترتيب الصحيح، والاحصاء الدقيق، لجميع ظروف الشيء المبحوث عنه، تشتمل على كل ما يهب اليقين لقواعد علم الحساب.

ولكن أعظم ما أرضاني من هذه الطريقة هو ثقتي معها باستعمال عقلي في كل شيء، إن لم يكن على الوجه الأكمل، فعلى أحسن ما في استطاعتي على الأقل[1]. دعْ أنني كنت أشعر وأنا أمارس هذه الطريقة بأن عقلي كان يتعود شيئًا فشيئًا تصوّر موضوعاته، تصورًا أشدّ وضوحًا، وأقوى تميزًا. ولما كنت لم أقصر هذه الطريقة على مادة خاصة، عللت نفسي بتطبيقها تطبيقًا مفيدًا أيضًا في معضلات العلوم الأخرى[2]، كما طبقتها في مسائل الجبر. ولست أعني بذلك أنني أقدمت أولًا على امتحان كل ما يعرض لي من مسائل العلوم، لأن هذا نفسه مخالف للنظام الذي توجبه الطريقة[3]، ولكنني لما لاحظت أن مبادئ هذه العلوم يجب أن تكون كلها

1 يرى ديكارت، مع الرواقيين، ان السعادة تقوم على ارضاء الرغبات، وعلى الاعتقاد أن رغباتنا التي لا سبيل إلى ارضائها مخالفةٌ للعقل. ومن المزايا التي انفرد بها قوله أن السلوك العملي، والمنهج العقلي، شيء واحد، وأن اكتساب الحقيقة شرط أساسي للسعادة، ويكفي أن يفرق المرء بين ما يستطيع ادراكه وما لا يستطيع ادراكه من الحقائق، وأن يسعى لامتلاك ما هو داخل منها في نطاق ادراكه، حتى يدرك الخير الحقيقي.

2 وخصوصًا علم الطبيعيات.

3 يعني البدء بأبسط الأمور، وترتيب الأفكار.

quels moyens, et jusques où, il était possible de les résoudre. En quoi je ne vous paraîtrai peut-être pas fort vain, si vous considérez que, n'y ayant qu'une vérité de chaque chose, quiconque la trouve en sait autant qu'on en peut savoir ; et que, par exemple, un enfant instruit en l'arithmétique, ayant fait une addition suivant ses règles, se peut assurer d'avoir trouvé, touchant la somme qu'il examinait, tout ce que l'esprit humain saurait trouver. Car enfin la méthode qui enseigne à suivre le vrai ordre, et à dénombrer exactement toutes les circonstances de ce qu'on cherche, contient tout ce qui donne de la certitude aux règles d'arithmétique.

Mais ce qui me contentait le plus de cette méthode, était que, par elle, j'étais assuré d'user en tout de ma raison, sinon parfaitement, au moins le mieux qui fût en mon pouvoir ; outre que je sentais, en la pratiquant, que mon esprit s'accoutumait peu à peu à concevoir plus nettement et plus distinctement ses objets, et que, ne l'ayant point assujettie à aucune matière particulière, je me promettais de l'appliquer aussi utilement aux difficultés des autres sciences, que j'avais fait à celle de l'algèbre. Non que, pour cela, j'osasse entreprendre d'abord d'examiner toutes celles qui se présenteraient ; car cela même eût été contraire à l'ordre qu'elle prescrit. Mais, ayant pris garde que leurs principes devaient tous

مستمدّة من الفلسفة التي لم اهتد فيها بعد إلى أيّ مبدأ يقيني، رأيت أنه يجب عليَّ أولًا أن أحاول تقرير أصول يقينية في الفلسفة. ولما كان هذا الأمر أهم شيء في العالم، وكان التعجل والتشبث بالأحكام السابقة أعظم ما يجب أن يخشاه المرء، رأيت أنه يجب عليَّ أن لا أمضي فيه إلى نهايته ما لم أبلغ من العمر سنًّا أنضج من الثالثة والعشرين التي بلغتها وقتئذٍ[1]، وما لم أنفق أولًا كثيرًا من الوقت في إعداد نفسي له، سواء أكان ذلك بأن أنزع من عقلي جميع الآراء الفاسدة التي تلقيتها من قبل، أم بأن أجمع تجارب كثيرة أجعلها فيما بعد مادة استدلالاتي، وأن أتمرَّن دائمًا على الطريقة التي رسمتها لنفسي[2] لها، حتى يزاد رسوخي فيها.

---

1 ولد ديكارت في 31 آذار عام 1596 وكان عمره يوم أنهى تأملاته في الغرفة الدافئة بألمانيا (أي قبل نهاية شتاء 1619 – 1620) أربعة وعشرين عامًا.

2 هذا التمرين ضروري، لأن الطريقة إنما تكتسب بالعمل لا بالنظر.

être empruntés de la philosophie, en laquelle je n'en trouvais point encore de certains, je pensai qu'il fallait, avant tout, que je tâchasse d'y en établir ; et que, cela étant la chose du monde la plus importante, et où la précipitation et la prévention étaient le plus à craindre, je ne devais point entreprendre d'en venir à bout, que je n'eusse atteint un âge bien plus mûr que celui de vingt-trois ans, que j'avais alors ; et que je n'eusse, auparavant, employé beaucoup de temps à m'y préparer, tant en déracinant de mon esprit toutes les mauvaises opinions que j'y avais reçues avant ce temps-là, qu'en faisant amas de plusieurs expériences, pour être après la matière de mes raisonnements, et en m'exerçant toujours en la méthode que je m'étais prescrite, afin de m'y affermir de plus en plus.

القسم الثالث
قواعِدُ الأخْلاق

وأخيرًا، فما لا يكفي المرء قبل البدء بتجديد بناء المسكن الذي يقيم فيه، أن يهدمه، وأن يعدّ المواد[1] والمهندسين[2]، أو أن يمرّن نفسه أيضًا أن يكون له مسكن آخر يستطيع أن يأوي إليه في راحة خلال الزمن الذي يعمل فيه على تجديد المسكن الأول، كذلك لكي لا أظلّ متردّدًا في أعمالي، بينما عقلي يضطرني إلى التردّد في أحكامي، ولكي أحيا مع ذلك منذ الآن أسعد حياة أستطيع إليها سبيلًا، كان عليَّ أن أضع لنفسي أخلاقًا موقتة لا تشتمل إلاّ على ثلاث قواعد أو أربع، أريد الآن أن أطلعكم عليها[3].

الأولى: أن أطيع قوانين بلادي وعاداتها، متسمكًا[4] بالديانة التي أنعم الله عليَّ بالنشوء فيها منذ طفولتي[5]، وأن أسيّر نفسي في كل شيء آخر تبعًا لأكثر الآراء اعتدالًا، وأبعدها عن التطرّف، مما أجمع على الأخذ به في العمل أعقل الذين كان عليَّ أن أعيش معهم. لأني لما أخذت مذ ذاك في أن لا أقيم لآرائـي الخاصة أي وزن، لرغبتي في وضعها كلها موضع

---

1 المواد هي التجارب التي جمعها وبنى عليها استدلالاته.

2 المهندس هو النظام أو الطريقة.

3 الأخلاق كالطب والميكانيك تستلزم معرفة كاملة بالعلوم الأخرى، فهي إذن تاج العلوم. ولكن ديكارت لم يضع أخلاقه النهائية لأنه لم يستطع إتمام طبيعياته. ومع ذلك فإن القواعد التي ذكرها في هذا المقال تعبّر عن أخلاقه النهائية. ولو أتم مذهبه في الأخلاق لما نقض هذه القواعد الموقتة. وكل قاعدة من الأخلاق الموقتة مطابقة لمبدإ نظري من الأخلاق النهائية.

4 أي معتصمًا بها وثابتًا في المحافظة عليها.

5 دعا ريفيوس ديكارت مرة إلى اعتناق الديانة البروتستانية، فأجابه: «ديانتي هي ديانة مليكي»، ثم دعاه إلى ذلك مرة ثانية فأجاب: «دياني هي ديانة مرضعيّ».

TROISIÈME PARTIE

RÈGLES DE LA MORALE

Et enfin, comme ce n'est pas assez, avant de commencer à rebâtir le logis où on demeure, que de l'abattre, et de faire provision de matériaux et d'architectes, ou s'exercer soi-même à l'architecture, et outre cela d'en avoir soigneusement tracé le dessin ; mais qu'il faut aussi s'être pourvu de quelque autre, où on puisse être logé commodément pendant le temps qu'on y travaillera ; ainsi, afin que je ne demeurasse point irrésolu en mes actions, pendant que la raison m'obligerait de l'être en mes jugements, et que je ne laissasse pas de vivre dès lors le plus heureusement que je pourrais, je me formai une morale par provision, qui ne consistait qu'en trois ou quatre maximes, dont je veux bien vous faire part.

La première était d'obéir aux lois et aux coutumes de mon pays, retenant constamment la religion en laquelle Dieu m'a fait la grâce d'être instruit dès mon enfance, et me gouvernant, en toute autre chose, suivant les opinions les plus modérées, et les plus éloignées de l'excès, qui fussent communément reçues en pratique par les mieux sensés de ceux avec lesquels j'aurais à vivre. Car, commençant dès lors à ne compter pour rien les miennes propres,

الاختبار، أيقنت أنه ليس في مقدوري أن أفعل أحسن من اتباع آراء أعقل الناس[1]. ومع أنه ربما كان عند الفرس والصينيين ما عندنا من أصحاء العقول، فقد بدا لي أنه من الأنفع لي أن أنظم سلوكي وفقًا لسلوك الذين سأعيش معهم، وأنه يجب عليّ لمعرفة حقيقة آرائهم أن أنظر إلى ما يفعلون لا إلى ما يقولون. وليس السبب في ذلك أن فساد أخلاقنا قد قلل من عدد الذين يريدون أن يقولوا كل ما يعتقدون ولكن سبب ذلك أيضًا أن الكثيرين يجهلون ما يريدون، لأنه لما كان فعل الفكر، الذي به نعتقد شيئًا من الأشياء، مختلفًا عن الفعل الذي به نَعرفُ أننا نعتقد ذلك الشيء، كان كل من هذين الفعلين حاصلًا عندنا في الغالب دون الآخر[2]. ولم أتخيَّر من بين الآراء المقبولة على السواء إلاّ الآراء الأكثر اعتدالًا، لأنها دائمًا هي الأوفق للعمل، والأحسن على الأرجح[3]، ما دام من شأن كلّ تطرف أن يكون سيئًا، ولأنني إذا وقعت إذ ذاك في الخطأ، كنت أقل بُعدًا أيضًا عن الطريق القويم، مما لو تخيرت أحد الطرفين، وكان الطريق الذي يجب سلوكه هو الطريق الآخر.

ولقد عددت من أمثلة التطرف على الأخص جميع العهود التي يُنقص المرء بها شيئًا من حريته[4]. ولم يكن ذلك لإنكاري حق القوانين التي تتوخى معالجة تردّد النفوس الضعيفة فتسوّغ للمرء، إذا كان له غرض صالح، أو إذا كان له في سبيل أمن المعاملات غرض سواء لا صالح ولا سيئ، أن يتقيّد

---

1 إذا كانت الأخلاق الحقيقية مهولة وجب على العاقل أن يجعل سلوكه مطابقًا لسلوك أعقل الناس في بلده، ولكن إذا عرفت مبادئ الأخلاق الحقيقية، فإن العاقل يستمد قواعد سلوكه من عقله. وهكذا يدرك الحق فيتبعه، ويعرف الباطل فيجتنبه.

2 ذلك لأن كل اعتقاد حكم، والحكم يتعلق بالإرادة. أما المعرفة فتتعلق بالعقل. فليس غريبًا إذن أن يختلف أمران أحدهما تابع للإرادة والآخر تابع للعقل، وأن يوجد أحدهما دون الآخر.

3 أي على وجه الاحتمال، أو على وجه القريب من الحقيقة: **Vraisemblablement**.

4 أي قدرته على تغيير ما عزم عليه.

à cause que je les voulais remettre toutes à l'examen, j'étais assuré de ne pouvoir mieux que de suivre celles des mieux sensés. Et encore qu'il y en ait peut-être d'aussi bien sensés, parmi les Perses ou les Chinois, que parmi nous, il me semblait que le plus utile était de me régler selon ceux avec lesquels j'aurais à vivre ; et que, pour savoir quelles étaient véritablement leurs opinions, je devais plutôt prendre garde à ce qu'ils pratiquaient qu'à ce qu'ils disaient, non seulement à cause qu'en la corruption de nos mœurs il y a peu de gens qui veuillent dire tout ce qu'ils croient, mais aussi à cause que plusieurs l'ignorent eux-mêmes ; car l'action de la pensée par laquelle on croit une chose, étant différente de celle par laquelle on connaît qu'on la croit, elles sont souvent l'une sans l'autre. Et entre plusieurs opinions également reçues, je ne choisissais que les plus modérées, tant à cause que ce sont toujours les plus commodes pour la pratique, et vraisemblablement les meilleurs, tout excès ayant coutume d'être mauvais ; comme aussi afin de me détourner moins du vrai chemin, en cas que je faillisse, que si, ayant choisi l'un des extrêmes, c'eût été l'autre qu'il eût fallu suivre. Et, particulièrement, je mettais entre les excès toutes les promesses par lesquelles on retranche quelque chose de sa liberté, non que je désapprouvasse les lois qui, pour remédier à l'inconstance des esprits faible, permettent, lorsqu'on a quelque bon dessein, ou même, pour la sûreté du commerce, quelque dessein qui n'est qu'indifférent, qu'on fasse des vœux ou des contrats qui obligent à y persévérer, mais à cause que je ne

بنذور أو عقود تضطره إلى الثبات على ذلك[1]، بل كان ذلك لأني لم أجد في العالم شيئًا يبقى على حال واحدة، ولأني، فيما يختص بحالي، كنت أؤمل أن أزيد أحكامي كمالًا، لا أن أجعلها أسوأ، ولو كنت أحبّذ أمرًا في وقتٍ ما، وكان هذا التحبيذ يضطرني إلى اعتبار هذا الأمر صالحًا أيضًا فيما بعد، وإن كان ذلك بعد زوال هذا الصلاح عنه، أو بعد كَفّي عن اعتباره كذلك، لرأيت أني أقترف بذلك خطأً فادحًا مخالفًا للعقل.

والثانية: أن أكون أكثر ما أستطيع حزمًا وعزمًا في أعمالي، وأن لا يكون اتّباعي أكثر الآراء شكًّا، إذا عزمت عليها، أقل ثباتًا من استمساكي بها فيما لو كانت مؤكَّدة[2]، مقلّدًا بذلك المسافرين الذين يجب عليهم، إذا ضلّوا في أحد الأحراج، أن لا يهيموا على وجوههم سائرين تارةً في جهة وتارةً في أخرى، ولا أن يقفوا في مكان واحد، وإنما ينبغي لهم دائمًا أن يسيروا أكثر ما يستطيعون نحو جهة واحدة، وأن لا يغيّروا اتجاههم لأسباب ضعيفة، وإن كان الاتفاق وحده هو الذي حملهم في بداية الأمر على اختياره. لأنهم إذا لم ينتهوا بهذه الواسطة إلى حيث يريدون تمامًا، فإنهم سيبلغون على الأقل في النهاية مكانًا يكونون فيه على الأرجح أحسن حالًا مما لو ظلّوا في وسط غابة. وهكذا لما كانت أعمال الحياة لا تحتمل في الأغلب أي تأجيل، كان من الحقائق البالغة اليقين أن توجب على أنفسنا اتباع أكثر الآراء رجحانًا، عندما يكون تمييز الأصح منها خارجًا عن نطاق قدرتنا[3]. حتى أننا، وإن لم نلاحظ أن في بعضها احتمالًا أكثر من بعض،

---

1 أي أنه لا ينكر قيمة القوانين الدينية التي تسوغ للمرء أن ينذر على نفسه القيام بعمل يثاب عليه، ولا قيمة القوانين المدنية التي توجب عليه التقيد بالعقود التجارية وغيرها.

2 ان هذه القاعدة مستمدة من الأخلاق الرواقية. وهي تدل في الأخلاق الموقتة على العزم في ثبات على اتباع كل رأي أشار به العقل.

3 إن الحياة تضطرنا إلى العمل السريع، وتتطلب منا أن نختار، حتى لو كانت أسباب اختيارنا غير واضحة.

voyais au monde aucune chose qui demeurât toujours en même état, et que, pour mon particulier, je me promettais de perfectionner de plus en plus mes jugements, et non point de les rendre pires, j'eusse pensé commettre une grande faute contre le bon sens, si, pour ce que j'approuvais alors quelque chose, je me fusse obligé de la prendre pour bonne encore après, lorsqu'elle aurait peut-être cessé de l'être, ou que j'aurais cessé de l'estimer telle.

Ma seconde maxime était d'être le plus ferme et le plus résolu en mes actions que je pourrais, et de ne suivre pas moins constamment les opinions les plus douteuses, lorsque je m'y serais une fois déterminé, que si elles eussent été très assurées ; imitant en ceci les voyageurs qui, se trouvant égarés, en quelque forêt, ne doivent pas errer en tournoyant, tantôt d'un côté, tantôt d'un autre, ni encore moins s'arrêter en une place, mais marcher toujours le plus droit qu'ils peuvent vers un même côté, et ne le changer point pour de faibles raisons, encore que ce n'ait peut-être été au commencement que le hasard seul qui les ait déterminés à le choisir ; car, par ce moyen, s'ils ne vont justement où ils désirent, ils arriveront au moins à la fin quelque part, où vraisemblablement ils seront mieux que dans le milieu d'une forêt. Et ainsi, les actions de la vie ne souffrant souvent aucun délai, c'est une vérité très certaine que, lorsqu'il n'est pas en notre pouvoir de discerner les plus vraies opinions, nous devons suivre les plus probables ; et même qu'encore que nous ne remarquions point davantage de probabilité aux unes qu'aux autres, nous devons néanmoins

فإنه يجب علينا مع ذلك أن نأخذ ببعضها، وأن نعتبره بعد ذلك بالغ الصدق واليقين لا مشكوكًا فيه من حيث علاقته بالعمل، لأن السبب العقلي الذي حملنا على الأخذ به هو بعينه كذلك[1]. وهذا كان كافيًا إذن لإنقاذي من جميع حالات الندم والتأنيب، وهي أحوال من شأنها أن تقلق ضمائر النفوس الضعيفة والمتقلّبة[2]، التي تنصرف دون ثبات إلى فعل أمور على أنها صالحة، ثم تحكم بعد ذلك بأنها سيئة.

أما الثالثة فهي أنه من الأجدر بي أن أعمل دائمًا على مغالبة نفسي، لا على مغالبة الحظ، وأن أغيّر رغباتي، لا أن أغيّر نظام العالم، وبالجملة أن أتعود الاعتقاد أنه لا شيء في متناول قدرتنا تمامًا سوى أفكارنا، بحيث أننا إذا فعلنا خير ما نقدر عليه، فيما يختص بالأشياء الخارجية، فإن كلّ ما ينقصنا من أسباب النجاح يكون بالنسبة إلينا مستحيلًا على الإطلاق[3]. وقد بدا لي أن هذا وحده كان كافيًا لمنعي من أن أريد في المستقبل شيئًا لا أستطيع الحصول عليه[4]، كما كان كافيًا لأن يجعلني راضيًا مرضيًا. لأنه لما كانت ارادتنا لا تميل بالطبع إلاّ إلى الأشياء التي يصوّرها لها الذهن ممكنة بوجه من الوجوه، فإنه من المؤكد أننا، إذا عددنا جميع الخيرات الخارجة عنا متساوية البُعد عن قدرتنا، لم يكن أسفنا على حرماننا، بغير ذنب منا، خيراتٍ

---

1 قد يكون مجال الشك في بعض الآراء واسعًا، ولكن الحياة تضطرنا إلى الأخذ بها كما لو كانت يقينية. فالعقل قد يشك في رأي، ويجده مقارنًا للغلط والوهم، ولكنه إذا لم يهتد إلى رأي آخر أفضل منه، فليس على الإرادة إلاّ أن تأخذ بالرأي الأول، وتتمسك به، وتعتبره حقًّا لا ريب فيه.

2 إن الاضطراب الذي يولده الندم في نفوسنا لا يتفق وشروط السعادة في الأخلاق الموقتة، ولا في الأخلاق النهائية.

3 ليس لنا سلطان إلاّ على أفكارنا، أما الحوادث الخارجية فلا يكون لنا عليها قدرة إلاّ عندما تكون تابعة لأفكارنا؛ فاستطاعة الإنسان تشمل إذن أفكاره، والحوادث الخارجية التابعة لأفكاره. وكل ما خلا ذلك فهو خارج عن نطاق قدرته.

4 إذا كنت لا تريد إلاّ ما تستطيع نيله، استطعت أن تنال كل ما تريد. وإذا رضيت بحدوث الأشياء على ما هي به، كان حدوثها مطابقًا دائمًا لما تريد.

nous déterminer à quelques-unes, et les considérer après, non plus comme douteuses, en tant qu'elles se rapportent à la pratique, mais comme très vraies et très certaines, à cause que la raison qui nous y a fait déterminer se trouve telle. Et ceci fut capable dès lors de me délivrer de tous les repentirs et les remords, qui ont coutume d'agiter les consciences de ces esprits faibles et chancelants, qui se laissent aller inconstamment à pratiquer, comme bonnes, les choses qu'ils jugent après être mauvaises.

Ma troisième maxime était de tâcher toujours plutôt à me vaincre que la fortune, et à changer mes désirs que l'ordre du monde, et généralement, de m'accoutumer à croire qu'il n'y a rien qui soit entièrement en notre pouvoir que nos pensées, en sorte qu'après que nous avons fait notre mieux, touchant les choses qui nous sont extérieures, tout ce qui manque de nous réussir est, au regard de nous, absolument impossible. Et ceci seul me semblait être suffisant pour m'empêcher de rien désirer à l'avenir que je n'acquisse, et ainsi pour me rendre content. Car notre volonté ne se portant naturellement à désirer que les choses que notre entendement lui représente en quelque façon comme possibles, il est certain que, si nous considérons tous les biens qui sont hors de nous comme également éloignés de notre pouvoir, nous n'aurons pas plus de regrets de manquer de ceux qui semblent être dus à notre naissance, lorsque nous en serons privés sans notre faute, que nous avons de ne posséder pas les

يظهر أننا مدينون بها لمولدنا، أشد من أسفنا على أننا لا نملك بلاد الصين أو المكسيك، وأننا إذا عملنا، كما يقولون، بفضيلة الضرورة، لم نرغب في أن نكون أصحاء ونحن مرضى، ولا احرارًا ونحن في السجن، أكثر من رغبتنا الآن في أن تكون لنا أجسام من مادة قليلة الفساد كالماس، أو أن تكون لنا أجنحة نطير بها كالطير. ولكنني أعترف بأن المرء محتاج إلى تمرين طويل، وإلى كثير من تكرار التأمل، حتى يتعوّد النظر من هذه الناحية إلى جميع الأشياء. وأعتقد أنه على هذا الأساس خاصة يقوم سر أولئك الفلاسفة[1] الذين استطاعوا في سالف الأزمان أن ينجوا من سيطرة الحظ، وأن ينازعوا آلهتهم السعادة، بالرغم من الآلام والفقر[2]، لأنهم كانوا، لانشغالهم دائمًا بملاحظة الحدود التي فرضتها عليهم الطبيعة، يقتنعون تمام الاقتناع بأنه ليس لهم سلطان إلاّ على أفكارهم، وأن ذلك وحده كان كافيًا لمنعهم من أن يكون لهم ميل إلى أي شيء آخر. وكانوا يتصرفون في أفكارهم تصرفًا مطلقًا إلى حدٍّ كان يحق لهم معه أن يَعُدّوا أنفسهم أغنى، وأقدر، وأكثر حرية، وأسعد[3] من أي انسان آخر حَبَتْه الطبيعة والحظ بكل ما هو ممكن، إلاّ أنه لو لم يعتنق تلك الفلسفة لما تصرف قط هذا التصرف في كل ما يريد.

ورأيت، أخيرًا، نتيجة لهذه الأخلاق، أن أختبر مشاغل الناس المختلفة في هذه الحياة لأختار أفضلها. ولئن كنت لا أريد أن أقول شيئًا عن مشاغل الآخرين، لقد رأيت أنني لا أستطيع أن أفعل خيرًا من المثابرة على العمل الذي اهتديت إليه، أي أن انفق كل حياتي في تثقيف عقلي، وأن أتقدم على قدر ما أستطيع في معرفة الحقيقة تبعًا للطريقة التي رسمتها لنفسي. لقد شعرت بسرور بالغ منذ ابتدائي باستخدام هذه الطريقة، حتى اعتقدت أنه ليس

---

1 يعني الفلاسفة الرواقيين.

2 يشير هنا إلى قول الرواقيين أن الحكيم يدرك السعادة التي تنعم بها الآلهة.

3 يشير إلى المثل الرواقي القائل: الحكيم وحده غني، وقوي، وحر، وسعيد.

royaumes de la Chine ou du Mexique ; et que faisant, comme on dit, de nécessité vertu, nous ne désirerons pas davantage d'être sains, étant malades, ou d'être libres, étant en prison, que nous faisons maintenant d'avoir des corps d'une matière aussi peu corruptible que les diamants, ou des ailes pour voler comme les oiseaux. Mais j'avoue qu'il est besoin d'un long exercice, et d'une méditation souvent réitérée pour s'accoutumer à regarder de ce biais toutes les choses ; et je cris que c'est principalement en ceci que consistait le secret de ces philosophes qui ont pu autrefois se soustraire de l'empire de la fortune et, malgré les douleurs et la pauvreté, disputer de la félicité avec leurs dieux. Car, s'occupant sans cesse à considérer les bornes qui leur étaient prescrites par la nature, ils se persuadaient si parfaitement que rien n'était en leur pouvoir que leurs pensées, que cela seul était suffisant pour les empêcher d'avoir aucune affection pour d'autres choses ; et ils disposaient d'elles si absolument, qu'ils avaient en cela quelque raison de s'estimer plus riches, et plus puissants, et plus libres, et plus heureux, qu'aucun des autres hommes qui, n'ayant point cette philosophie, tant favorisés de la nature et de la fortune qu'ils puissent être, ne disposent jamais ainsi de tout ce qu'ils veulent.

Enfin, pour conclusion de cette morale, je m'avisai de faire une revue sur les diverses occupations qu'ont les hommes en cette vie, pour tâcher à faire choix de la meilleure ; et sans que je veuille rien dire de celles des autres, je pensai que je ne pouvais mieux que de continuer en celle-là même où je me trouvais, c'est-à-dire, que d'employer toute ma vie à cultiver ma raison, et m'avancer, autant que je pourrais, en la connaissance de la vérité, suivant la

في استطاعة المرء أن يجد في هذه الحياة سرورًا أحلى من هذا السرور، ولا أكثر منه براءة. ولما كنت أكشف كل يوم بهذه الطريقة عن بعض الحقائق التي بدا لي أنها هامة، ومجهولة في العادة عند سائر الناس، كان الرضى الذي نلته منها يملأ كل نفسي إلى حد جعل ما بقي من الأشياء لا ينال مني شيئًا. أضف إلى ذلك أن القواعد الثلاث السابقة لم تكن مبنيةً إلاّ على رغبتي في مواصلة تعليم نفسي[1]، لأن الله وهب كل واحد منا نورًا يميّز به الحق من الباطل. ولولا عزمي على إعمال فكري الخاص في اختبار آراء الآخرين يوم يحين اختبارها، لما اعتقدت أنه يجب عليَّ الاقتناع بها لحظة واحدة. وكذلك لولا أملي أني لن أضيع أي فرصة للوصول إلى ما هو أفضل من هذه الآراء، إن كان هناك ما هو أفضل، لما عرفت من أجل ذلك أن أحرر نفسي من هواجس التردد في اتباعها. وأخيرًا لو لم اتبع طريقًا رأيت نفسي فيه واثقًا بتحصيل جميع المعارف التي أنا أهل لها، ومتيقنًا كذلك، وبالوسيلة نفسها، بتحصيل جميع الخيرات التي قد تدخل في نطاق قدرتي، لما عرفت أن أحدَّ من رغباتي، ولا أن أكون راضيًا. لأن ارادتنا لا تميل إلى اتباع شيء، أو إلى الفرار منه، إلاّ بحسب ما يمثله الذهن لها من صلاح هذا الشيء أو فساده. ويكفي أن يجيد المرء الحكم، لكي يجيد العمل، وأن يكون حكمه أصدق حكم مستطاع، ليفعل أيضًا أحسن ما يستطاع فعله[2]، أي ليكتسب جميع الفضائل، ويكتسب معها جميع الخيرات الأخرى التي يمكنه تحصيلها. وإذا ما اعتقد المرء أن ذلك واقع، لم يعجزه أن يكون سعيدًا[3].

---

1 أي أنه اتخذ هذه القواعد وسيلة للكشف عن قواعد أخرى أفضل منها، ولولا ذلك لما كان الأخذ بها مطابقًا للحق.

2 العمل الصالح تابع للحكم الصادق، لأن الإرادة لا تستطيع أن تمتنع عن اختيار طريق الخير عندما يدلها العقل عليه في وضوح وبداهة. ويكفي لذلك أن يكون الحكم الصادق مصحوبًا بعزم الإرادة على اتباع ما يشير به العقل دائمًا.

3 في الأصل: On ne saurait manquer d'être content أي لا يعجزه أن يكون راضيًا.

méthode que je m'étais prescrite. J'avais éprouvé de si extrêmes contentements, depuis que j'avais commencé à me servir de cette méthode, que je ne croyais pas qu'on en pût recevoir de plus doux ni de plus innocents en cette vie ; et découvrant tous les jours par son moyen quelques vérités qui me semblaient assez importantes et communément ignorées des autres hommes, la satisfaction que j'en avais remplissait tellement mon esprit que tout le reste ne me touchait point. Outre que les trois maximes précédentes n'étaient fondées que sur le dessein que j'avais de continuer à m'instruire : car Dieu nous ayant donné à chacun quelque lumière pour discerner le vrai d'avec le faux, je n'eusse pas cru me devoir contenter des opinions d'autrui un seul moment, si je ne me fusse proposé d'employer mon propre jugement à les examiner lorsqu'il serait temps ; et je n'eusse su m'exempter de scrupule en les suivant, si je n'eusse espéré de ne perdre pour cela aucune occasion d'en trouver de meilleures en cas qu'il y en eût ; et enfin je n'eusse su borner mes désirs ni être content, si je n'eusse suivi un chemin par lequel, pensant être assuré de l'acquisition de toutes les connaissances dont je serais capable, je le pensais être par même moyen de celle de tous les vrais biens qui seraient jamais en mon pouvoir ; d'autant que, notre volonté ne se portant à suivre ni à fuir aucune chose que selon que notre entendement la lui représente bonne ou mauvaise, il suffit de bien juger pour bien faire, et de juger le mieux qu'on puisse, pour faire, et de juger le mieux qu'on puisse pour faire aussi tout son mieux, c'est-à-dire, pour acquérir toutes les vertus, et ensemble tous les autres biens qu'on puisse acquérir ; et lorsqu'on est certain que cela est, on ne saurait manquer d'être content.

ثم إنني بعد أن استوثقت من هذه القواعد ووضعتها جانبًا وحقائقَ الإيمان، التي كان لها دائمًا المنزلة الاولى في نفسي، رأيت انني أستطيع الخلاص بحرية مما تبقّى من آرائي. ولما كنت آمل أنني أستطيع أن أحقّق هذه الغاية بمخالطة الناس أحسن مما أستطيع تحقيقها بالمكوث زمانًا طويلًا في حجرتي التي انكشفت لي فيها جميع هذه الأفكار، عاودت السفر، والشتاء لم ينته بعد[1]. ولم أفعل خلال السنوات التسع التالية[2] شيئًا إلاّ الطواف هنا وهناك[3] في العالم، محاولًا أن أكون مشاهدًا لا ممثلًا في جميع المسرحيات الهزلية التي تمثّل فيه. ولما فكّرت خاصة فيما يمكن أن يجعل الشيء عرضة للشك، ويحملنا على الوقوع في الخطأ، نزعت من عقلي جميع الأخطاء التي أمكنها التسرب فيه من قبل. وما كنت في ذلك مقلدًا الريبيّين[4]، الذين لا يشكون إلاّ للشك، ويتظاهرون دائمًا بالتردد، لأن غرضي كله كان، على عكس ذلك، لا يرمي إلاّ إلى الظفر باليقين، وإلى الاعراض عن الأرض المتحركة والرمل، في سبيل العثور على الصخر والصلصال[5]. ويبدو لي أنني نجحت في ذلك بعض النجاح، لأنني لما حاولت أن أكشف عمّا في القضايا التي كنت

---

1 كان ذلك خلال شهر آذار أو نيسان من عام 1620.

2 أي بين عام 1619 وعام 1628، وهو تاريخ عودة ديكارت إلى هولاندة.

3 إننا لا نعرف على وجه التفصيل جميع الأماكن التي زارها ديكارت خلال هذه السنوات التسع. ولكننا نعلم علمًا مؤكدًا أن ديكارت كان في رن (Rennes) في 3 نيسان 1622، وأنه رحل إلى ايطاليا في عام 1623، وإلى پواتو (Poitou) في شهر حزيران عام 1625، وإلى باريس في شهر تموز عام 1626، وإلى بريتاني (Bretagne) في كانون الثاني وآذار من عام 1628، وأنه عاد ثانية إلى باريس، وأقام فيها حتى سفره إلى هولاندة.

4 يشير هنا إلى ريبية پيرون (Pyrrhon) كما فسّرها مونتني (Montaigne)، وإلى ريبية مونتني نفسه.

5 يعني بالأرض المتحركة والرمل، المعرفة الحسية. إن المذاهب الفلسفية المبنية على هذا الأساس تتهدم بسرعة، وتسوق إلى الريبية.

Après m'être ainsi assuré de ces maximes, et les avoir mises à part avec les vérités de la foi, qui ont toujours été les premières en ma créance, je jugeai que pour tout le reste de mes opinions je pouvais librement entreprendre de m'en défaire. Et d'autant que j'espérais en pouvoir mieux venir à bout en conversant avec les hommes qu'en demeurant plus longtemps renfermé dans le poêle où j'avais eu toutes ces pensées ; l'hiver n'était pas encore bien achevé que je me remis à voyager. Et en toutes les neuf années suivantes je ne fis autre chose que rouler çà et là dans le monde, tâchant d'y être spectateur plutôt qu'acteur en toutes les comédies qui s'y jouent et faisant particulièrement réflexion en chaque matière sur ce qui la pouvait rendre suspecte et nous donner occasion de nous méprendre, je déracinais cependant de mon esprit toutes les erreurs qui s'y étaient pu glisser auparavant. Non que j'imitasse pour cela les sceptiques, qui ne doutent que pour douter, et affectent d'être toujours irrésolus : car, au contraire, tout mon dessein ne tendait qu'à m'assurer et à rejeter la terre mouvante et le sable pour trouver le roc ou l'argile. Ce qui me réussissait, ce me semble, assez bien, d'autant que, tâchant à découvrir la fausseté ou l'incertitude des propositions que j'examinais, non par de faibles conjectures, mais par des raisonnements clairs et assurés, je n'en rencontrais point de si douteuses, que je n'en tirasse toujours quelque conclusion assez certaine, quand ce n'eût été que cela même qu'elle ne contenait rien de certain. Et comme en abattant un vieux logis, on en réserve ordinairement les démolitions pour

امتحنها من الكذب أو الارتياب، معتمدًا في ذلك على حجج واضحة ويقينية، لا على احتمالات ضعيفة، لم أجد قضية فيها الكثير من الارتياب إلاّ استخرجت منها نتيجة فيها بعض اليقين، وإن لم تكن هذه النتيجة سوى العلم أن تلك القضية لا تحتوي على أمر يقيني. وما جرت العادة أن يحافظ المرء وهو يهدم مسكنًا قديمًا على أنقاض البناء لاستخدامها في بناء مسكن جديد، فكذلك قمت، وأنا أهدم جميع آرائي التي حكمت بأنها ضعيفة الأساس، بملاحظات مختلفة، وحصَّلت تجارب كثيرة أفادتني منذ ذلك الحين في اتخاذ آراء أكثر منها يقينًا. أضف إلى ذلك أنني واصلت التمرّن على الطريقة التي رسمتها لنفسي، لأنني، فضلًا عن عنايتي بتوجيه جميع أفكاري على العموم وفقًا لقواعد هذه الطريقة، كنت أدّخر لنفسي من وقت إلى آخر بعض ساعات أخصصها لممارسة هذه القواعد في معضلات الرياضيات، لا بل في بعض المسائل الأخرى، التي كنت أستطيع أن أقلبها إلى معضلات شبيهة بالمعضلات الرياضية، وذلك بفصلها عن مبادئ العلوم الأخرى، التي لم أجد فيها من المتانة ما يفي بمقصودي، كما سترونني فاعلًا في كثير من المسائل المشروحة في هذا الكتاب[1]. وهكذا، فإن حياتي وإن كانت لا تختلف بحسب الظاهر عن حياة الذين لا عمل لهم إلاّ المضي في حياة حلوة بريئة، يعكفون فيها على التمييز بين اللذات والرذائل، ويلجأون إلى جميع الملاهي الشريفة في سبيل التمتع بأوقات فراغهم دون ملل، فإني لم أتوانَ عن الثبات في مطلبي، ولا عن التقدم في معرفة الحقيقة، تقدمًا ما كنت لأبلغه، لو أنني اقتصرت على مطالعة الكتب، ومخالطة أهل الأدب.

---

1 يشير هنا إلى قوانين الانكسار التي شرحها في بحث الضوء، وإلى أسباب قوس قزح التي شرحها في علم الأنواء، وهذان موضوعان عالجهما ديكارت مع الهندسة في كتاب واحد أصدره مع مقالة الطريقة عام 1637، ولم يكن كتاب مقالة الطريقة إلاّ مقدمة عامة لهذا الكتاب.

servir à en bâtir un nouveau, ainsi, en détruisant toutes celles de mes opinions que je jugeais être mal fondées je faisais diverses observations et acquérais plusieurs expériences, qui m'ont servi depuis à en établir de plus certaines. Et, de plus, je continuais à m'exercer en la méthode que je m'étais prescrite ; car, outre que j'avais soin de conduire généralement toutes mes pensées selon ses règles, je me réservais de temps en temps quelques heures, que j'employais particulièrement à la pratiquer en des difficultés de mathématique, ou même aussi en quelques autres que je pouvais rendre quasi semblables à celles des mathématiques, en les détachant de tous les principes des autres sciences que je trouvais pas assez fermes, comme vous verrez que j'ai fait en plusieurs qui sont expliquées en ce volume[1]. Et ainsi, sans vivre d'autre façon, en apparence, que ceux qui, n'ayant aucun emploi qu'à passer une vie douce et innocente, s'étudient à séparer les plaisirs des vices, et qui, pour jouir de leur loisir sans s'ennuyer, usent de tous les divertissements qui sont honnêtes, je ne laissais pas de poursuivre en mon dessein, et de profiter en la connaissance de la vérité, peut-être plus que si je n'eusse fait que lire des livres, ou fréquenter des gens de lettres.

---

1 La *Diplomatique*, les *Météores* et la *Géométrie* parurent d'abord dans le même volume que le *Discours*.

ومع ذلك فقد مضت هذه السنوات التسع قبل أن استقرّ على أي رأي فيما يتعلق بالمعضلات التي اعتاد رجال العلم[1] أن يتجادلوا فيها، وقبل أن أبدأ بالبحث عن أسس فلسفة أثبت من الفلسفة العامية[2]. ولقد دعتني تجربة الكثيرين من ذوي العقول الممتازة[3]، الذين التمسوا قبلي هذا المطلب، ولم ينجحوا فيه، على ما أرى، إلى تخيّل ما فيه من الصعوبات الكثيرة، بحيث أني لو لم أرَ بعض الناس يذيعون خبر وصولي في ذلك المطلب إلى غايتي، لما أقدمت بهذه السرعة على الشروع فيه. ولست أدري على أي شيء بنوا هذا الرأي. وإذا كان لأقوالي أثر فيما تقوّلوه عليَّ، فإني لم أضمّن هذه الأقوال إلاّ الاعتراف بجهلي في سذاجة أصرح مما تعوّده أولئك الذين لم يدرسوا إلاّ قليلًا. وربما كان ذلك ناشئًا أيضًا عن إظهار أسباب شكي في كثير من الأشياء التي يعدها الآخرون يقينية، لا عن تمدحي بأي علم. ولكن لما كان لي من شمم النفس ما يجعلني آبى أن يصفني الناس بما ليس فيَّ، رأيت أنه ينبغي لي أن اتخذ جميع الوسائل لاستحقاق الشهرة التي مُنِحْتها. ولقد مضت الآن ثمانية أعوام على ازماعي الابتعاد، بدافع هذه الرغبة، عن جميع الأماكن التي يمكن أن يكون لي فيها معارف، وعلى اعتزالي الناس هنا في بلد وَطَّد فيه طول مدة الحروب[4] نظامًا يبدو لي معه أن الجيوش التي استبقيت في ذلك البلد لا تعمل إلاّ على تمكين الناس من الاستمتاع بثمرات السلم في كثير من الأمن والطمأنينة. هناك استطعت في غمرة

---

1 أي علماء القرون الوسطى.

2 أي فلسفة القرون الوسطى.

3 يشير هنا إلى بطرس دولارامي (Pierre de la Ramée) (1515–1572) وهو عالم رياضي أصلح المنطق، وإلى فرانسيس بيكون (1561–1626) وبحثه في أحياء العلوم على أساس تجريبي.

4 هذه الحروب هي حروب التحرّر من النير الاسباني، بدأت عام 1572 وانتهت عام 1648 بمؤتمر مونستر (Munster).

Toutefois, ces neuf ans s'écoulèrent avant que j'eusse encore pris aucun parti, touchant les difficultés qui ont coutume d'être disputées entre les doctes, ni commencé à chercher les fondements d'aucune philosophie plus certaine que la vulgaire. Et l'exemple de plusieurs excellents esprits, qui, en ayant eu ci-devant le dessein, me semblaient n'y avoir pas réussi, m'y faisait imaginer tant de difficulté, que je n'eusse peut-être pas encore sitôt osé l'entreprendre, si je n'eusse vu que quelques-uns faisaient déjà courre le bruit que j'en étais venu à bout. Je ne saurais pas dire sur quoi ils fondaient cette opinion ; et si j'y ai contribué quelque chose par mes discours, ce doit avoir été en confessant plus ingénument ce que j'ignorais, que n'ont coutume de faire ceux qui ont un peu étudié, et peut-être aussi en faisant voir les raisons que j'avais de douter de beaucoup de choses que les autres estiment certaines, plutôt qu'en me vantant d'aucune doctrine. Mais ayant le cœur assez bon pour ne vouloir point qu'on me prît pour autre que je n'étais, je pensai qu'il fallait que je tâchasse, par tous moyens, à me rendre digne de la réputation qu'on me donnait ; et il y a justement huit ans, que ce désir me fit résoudre à m'éloigner de tous les lieux où je pouvais avoir des connaissances, et à me retirer ici, en un pays où je pouvais avoir des connaissances, et à me retirer ici, en un pays où la longue durée de la guerre a fait établir de tels ordres, que les armées qu'on y entretient ne semblent servir qu'à faire qu'on y jouisse des fruits de la paix avec d'autant plus de sûreté, et où parmi la foule d'un grand peuple fort actif, et plus

شعب عظيم، جم النشاط، يُعنى بأعماله الخاصة أكثر مما يتطلع إلى أعمال الآخرين، أن أعيش وحيدًا ومنعزلًا عن الناس، كما لو كنت في الصحارى الخالية، دون أن أحرَم أي رخاء من رخاء المدن الغاصّة بالسكان[1].

1 يشير هنا إلى مدينة أمستردام التي شعر فيها بالعزلة بين الجماهير، كما لو كان في وسط غابة لا يرى إلاّ الأشجار والحيوانات.

soigneux de ses propres affaires, que curieux de celles d'autrui, sans manquer d'aucune des commodités qui sont dans les villes les plus fréquentées, j'ai pu vivre aussi solitaire et retiré que dans les déserts les plus écartés.

القسم الرابع
أُسُس عِلم ما بَعْد الطبيعَة

لست أدري هل يجب عليّ أن أحدثكم عن التأملات الأولى التي تيسّرت لي هناك[1]، لأن في هذه التأملات من كثرة التجريد[2] والبُعد عن المألوف ما يجعلها غير موافقة لذوق جميع الناس. ومع ذلك فإني أجد نفسي بوجه ما مضطرًّا إلى التحدث عنها, حتى يستطاع الحكم على الأسس التي اخترتها هل هي ذات متانة كافية. لقد لاحظت منذ زمن أن المرء محتاج في بعض الأحيان، فيما يختص بالأخلاق، إلى الأخذ بآراء يعلم أنها غير يقينية، ولكنه يتبعها مع ذلك كما لو كانت يقينية، وقد سبق القول في ذلك. ولكن لما كنت إذ ذاك راغبًا في التفرغ للبحث عن الحقيقة، رأيت أنه يجب عليّ أن أفعل ضد ذلك تمامًا، وأن أعتبر كل ما أستطيع أن أتوهم فيه أقلّ شك باطلًا على الإطلاق، وذلك لأرى إن كان لا يبقى لديَّ بعد ذلك شيء خالص من الشك تمامًا. وهكذا فإني، لما رأيت أن حواسنا تخدعنا أحيانًا، فرضت أن لا شيء هو في الواقع على الوجه الذي تُصوّره لنا الحواسّ. وكذلك لما وجدت أنَّ هناك رجالًا يخطئون في استدلالاتهم، حتى في أبسط مسائل الهندسة، ويأتون فيها بالمغالطات، وإني كنت عرضة للزلل في ذلك كغيري من الناس، اعتبرت باطلًا كل استدلال كنت أحسبه من قبل برهانًا صادقًا. وأخيرًا، لما لاحظت أن جميع الأفكار، التي تعرض لنا في اليقظة، قد ترد علينا في النوم، من دون أن يكون

---

1 يشتمل هذا القسم على خلاصة التأملات الفلسفية، التي بدأ ديكارت بوضع أصولها خلال الأشهر التسعة التي أُعقبت عودته إلى هولاندة (تشرين الثاني 1628 – تموز 1629).

2 اقتبس ديكارت هذه الحجج من الريبيين، واتخذها أساسًا لتهديم كل معرفة حسية. أما المعرفة العقلية، كمعرفتنا بذاتنا المفكرة، فإن هذه الحجج لا تنال منها شيئًا.

QUATRIÈME PARTIE

FONDEMENTS DE LA MÉTAPHYSIQUE

Je ne sais si je dois vous entretenir des premières méditations que j'y ai faites ; car elles sont si métaphysiques et si peu communes, qu'elles ne seront peut-être pas au goût de tout le monde. Et toutefois, afin qu'on puisse juger si les fondements que j'ai pris sont assez fermes, je me trouve en quelque façon contraint d'en parler. J'avais dès longtemps remarqué que, pour les mœurs, il est besoin quelquefois de suivre des opinions qu'on sait être fort incertaines, tout de même que si elles étaient indubitables, ainsi qu'il a été dit ci-dessus ; mais, pour ce qu'alors je désirais vaquer seulement à la recherche de la vérité, je pensai qu'il fallait que je fisse tout le contraire, et que je rejetasse, comme absolument faux, tout ce en quoi je pourrais imaginer le moindre doute, afin de voir s'il ne resterait point, après cela, quelque chose en ma créance, qui fût entièrement indubitable. Ainsi, à cause que nos sens nous trompent quelquefois, je voulus supposer qu'il n'y avait aucune chose qui fût telle qu'ils nous la font imaginer. Et parce qu'il y a des hommes qui se méprennent en raisonnant, même touchant les plus simples matières de géométrie, et y font des paralogismes, jugeant que j'étais sujet à faillir, autant qu'aucun autre, je rejetai comme fausses toutes les raisons que j'avais prises auparavant pour démonstrations, et enfin, considérant que toutes les mêmes

واحد منها صحيحًا، عزمت على أن أتظاهر[1] بأن جميع الأمور التي دخلت عقلي لم تكن أصدق من ضلالات أحلامي. ولكنني سرعان ما لاحظت، وأنا أحاول على هذا المنوال أن أعتقد بطلان كل شيء، انه يلزمني ضرورةً، أنا صاحب هذا الاعتقاد، أن أكون شيئًا من الأشياء. ولما رأيت أن هذه الحقيقة: أنا أفكر، إذن أنا موجود، هي من الرسوخ بحيث لا تزعزعها فروض الريبيين[2]، مهما يكن فيها من شطط، حكمت بأنني أستطيع مطمئنًا أن اتخذها مبدأ أول[3] للفلسفة التي كنت أبحث عنها.

---

1 يعني بذلك: أفرض. وهذا التعبير يدل على أن شك ديكارت إنما هو شك مقصود اصطنعه لنفسه بحرية في سبيل الوصول إلى اليقين. فشكه إذن شك منهجي لا شك مطلق.

2 قال ديكارت في مبادئ الفلسفة (Principes de Philosophie, VI): «من التناقض أن نفرض أن المفكر لا يوجد في الوقت الذي هو فيه يفكر»، وقال أيضًا: «إننا لا نستطيع أن نفترض أننا غير موجودين حين نشك في جميع الأشياء» (مبادئ الفلسفة، الباب الأول، مادة 7، التأملات). وتسمى قاعدة ديكارت هذه «أنا أفكر، إذن أنا موجود»، بالكوجيتو (Cogito ergo sum)، وهي في نظره حقيقة بديهية. ولكي تكون الحقيقة بديهية، يجب أن تكون في معزل عن الشك، والكوجيتو هو، على حد تعبير ديكارت، «أوثق الحقائق والمبادئ التي تعرض لمن يقود أفكاره بترتيب» (مبادئ الفلسفة، الباب الأول، مادة 7)، بل الشك فيه برهان عليه، لأن الشك يستلزم التفكير، والتفكير يقتضي الوجود، وهذا الكوجيتو الديكارتي لا يخلو من موافقة لبعض أقوال القديس أوغسطين الذي قال في ردّه على الريبيين: «إذا أخطأت فأنا موجود» [أوغسطين، مدينة الله، 26]. ولكن ديكارت استخدم الكوجيتو في غير ما استخدمه فيه القديس أوغسطين. إن بداهة الكوجيتو عنده ترجع إلى القول أن تجمع أسباب الشك لدي لا تزيدني إلاّ وثوقًا بصحة وجودي، لأنني لا أستطيع أن أشك إلاّ إذا كنت موجودًا: إذا شككت فأنا موجود.

3 إن الكوجيتو مبدأ أول، لأن التصديق به لا يحتاج إلى أي مبدأ آخر، في حين أن التصديق بجميع المبادئ الأخرى يستلزم أولاً التصديق بالكوجيتو. ولقد أخطأ غسندي في زعمه أن الكوجيتو قياس منطقي حذفت مقدمته الكبرى، وهي «كل من فكر فهو موجود»، فكأن الكوجيتو قياس على الوجه الآتي: كل من فكر فهو موجود، وأنا أفكر، إذن أنا موجود، وهذا خطأ، لأن لفظ «إذن» لا يقتصر في الكوجيتو على ربط النتيجة بالمقدمة، بل يشير هنا إلى ما بين الفكر والوجود من صلة وثيقة، ونحن ندرك هذه الصلة بالحدس لا بالقياس. فالأصل في الكوجيتو ليس إذن هذه القضية العامة: «كل من فكر فهو موجود»، وإنما هو الإدراك المباشر للصلة الوثيقة التي بين الفكر والوجود.

pensées, que nous avons étant éveillés, nous peuvent aussi venir, quand nous dormons, sans qu'il y en ait aucune, pour lors, qui soit vraie, je me résolus de feindre que toutes les choses qui m'étaient jamais entrées en l'esprit n'étaient non plus vraies que les illusions de mes songes. Mais, aussitôt après, je pris garde, que pendant que je voulais ainsi penser que tout était faux, il fallait nécessairement que moi, qui le pensais, fusse quelque chose. Et remarquant que cette vérité : *je pense, donc je suis,* était si ferme et si assurée, que toutes les plus extravagantes suppositions des sceptiques n'étaient pas capables de l'ébranler, je jugeai que je pouvais la recevoir, sans scrupule, pour le premier principe de la philosophie, que je cherchais.

ثم اني أنعمت النظر بانتباه في ما كنت عليه[1]، فرأيت أنني أستطيع أن أفرض أن ليس لي أي جسم، وأنه ليس هناك أيّ عالم، ولا أيّ حيّز أشغله، ولكنني لا أستطيع من أجل ذلك أن أفرض أنني غير موجود، لأن شكي في حقيقة الأشياء الأخرى يلزم عنه بضد ذلك، لزومًا بالغ البداهة واليقين، أن أكون موجودًا، في حين أنني، لو وقفت عن التفكير، وكانت جميع متخيلاتي الباقية حقًّا، لما كان لي أي مسوغ للاعتقاد انني موجود[2]. فعرفت من ذلك أنني جوهر[3] كل ماهيته أو طبيعته لا تقوم إلاّ على الفكر، ولا يحتاج في وجوده إلى أي مكان، ولا يتعلق بأي شيء مادّي، بمعنى أن «الأنا» أي النفس التي أنا بها ما أنا، متميزة تمام التميّز عن الجسم[4]، لا بل أن معرفتنا بها أسهل، ولو بطل وجود الجسم على الطلاق لظلّت النفس موجودةً بتمامها.

ثم إني نظرت بعد ذلك بوجهٍ عام فيما تتطلبه القضية من شروط لتكون صحيحة ويقينية. ولما كنت قد وجدت قضية علمت أنها موصوفة بهذه الصفة، رأيت أنه يجب عليّ أيضًا أن أعلَم على أي شيء يقوم هذا اليقين. فلاحظت أنه لا شيء في قولي: أنا أفكر، إذن أنا موجود، يضمن لي أنني

---

1 إن اليقين الأول الذي استخرجه ديكارت من الكوجيتو هو وجود النفس، واستقلالها عن البدن.

2 وبعبارة أخرى: إذا كنت أفكر فأنا موجود، حتى لو كان العالم الخارجي غير موجود. وإذا كان العالم الخارجي موجودًا، وكنت لا أفكر، فإنني لا أكون موجودًا. إن الذي يقود فكره بترتيب يعلم إذن أن وجود الفكر مستقل عن وجود الجسم.

3 إن في نفوسنا ظواهر نفسية كثيرة، فنحن نشك، وننفي، ونريد، ونحس، ونتخيّل، وجميع هذه الظواهر تشترك جميعًا في نسبتها إلى الجوهر المفكر. والجوهر المفكر هو النفس، أما الجوهر الممتد فهو الجسم.

4 إن القاعدة الأولى من قواعد ديكارت توجب علينا أن لا نصف الأشياء إلاّ بما نجده فيها واضحًا ومتميزًا، ونحن نعلم أن الجوهر الذي ندركه بقولنا: نحن نفكر، لا يحتاج في تحديده إلى الجسم، فالفكر متميز إذن عن الجسم تمامًا. وهكذا كان تطبيق الطريقة الرياضية في علم ما بعد الطبيعة مؤديًا إلى القول بالمطابقة بين الماهية والوجود.

Puis, examinant avec attention ce que j'étais, et voyant que je pouvais feindre que je n'avais aucun corps, et qu'il n'y avait aucun monde, ni aucun lieu où je fusse ; mais que je ne pouvais pas feindre, pour cela, que je n'étais point, et qu'au contraire, de cela même que je pensais à douter de la vérité des autres choses, il suivait très évidemment et très certainement que j'étais ; au lieu que, si j'eusse seulement cessé de penser, encore que tout le reste de ce que j'avais jamais imaginé eût été vrai, je n'avais aucune raison de croire que j'eusse été : je connus de là que j'étais une substance dont toute l'essence ou la nature n'est que de penser, et qui, pour être, n'a besoin d'aucun lieu, ni ne dépend d'aucune chose matérielle. En sorte que ce moi, c'est-à-dire l'âme, par laquelle je suis ce que je suis, est entièrement distincte du corps, et même qu'elle est plus aisée à connaître que lui, et qu'encore qu'elle ne fût point, elle ne laisserait pas d'être tout ce qu'elle est.

Après cela, je considérai en général ce qui est requis à une proposition pour être vraie et certaine ; car, puisque je venais d'en trouver une que je savais être telle, je pensai que je devais aussi savoir en quoi consiste cette certitude. Et ayant remarqué qu'il n'y a rien du tout en ceci : *je pense, donc je suis,* qui m'assure

أقول الحقيقة، إلاّ كوني أرى بكثير من الوضوح أن الوجود واجب للتفكير. فحكمت بأنني أستطيع أن اتّخذ لنفسي قاعدةً عامة، وهي أن الأشياء التي نتصورها تصورًا بالغ الوضوح والتميّز هي كلّها صحيحة، ألاّ أن هناك صعوبةً في تبيان ما هي الأشياء التي نتصورها متميزة.

ثم إني فكرت بعد ذلك في شكوكي، فتبيّن لي منها أن وجودي ليس تامّ الكمال، لأنني كنت أعلم بوضوح أن المعرفة أكثر كمالًا من الشك، فلاح لي أن أبحث من أين تأتّى لي أن أفكر في شيء أكمل مني، فعرفت بالبداهة أن ذلك يرجع إلى وجود طبيعة هي في الحقيقة أكمل[1]. أما أفكاري الدالة على الأشياء الخارجية، مثل السماء، والأرض، والضوء، والحرارة، والف شيء آخر، فإني لم أجد كبير عناء في معرفة من أين كانت تجيئني؛ لأني، لما لاحظت أن لا شيء فيها يجعلها أسمى مرتبة مني، استطعت أن أعتقد أنها إذا كانت حقيقية، فهي من لواحق طبيعتي، من حيث أن هذه الطبيعة تشتمل على شيء من الكمال[2]، وأنها إن لم تكن حقيقية، كانت مستمدة من العدم، أي حاصلة لي من جهة ما في طبيعتي من نقص[3]. ولكن الأمر لا يمكن أن يكون على هذا النحو فيما يختص بفكرة موجود أكمل من وجودي، لأن استمداد هذه الفكرة من العدم أمر ظاهر الاستحالة، ولأن قولنا: إن الأكمل لاحق وتابع لما هو أدنى

1 إن النفس التي تشك تدرك ذاتها بطريق الشك، وهذا الشك يشعرها بأنها ناقصة، ولكن فكرة النقص هذه تفرض فكرة الكمال الذي يعوز النفس، فإدراك النفس لذاتها بالحدس يتضمن إذن فكرة الكمال، وهي الأصل الذي يستند إليه ديكارت في برهانه الأول على وجود الله.

2 ليست الأشياء الخارجية إلاّ جواهر ممتدة ذات أشكال وأوضاع وحركات، وإذا كنت أنا نفسي جوهرًا، فإن لدي إذن ما أستطيع أن اؤلف منه معنى الجوهر وأحواله (modes)، وبذلك تكون الأجسام الخارجية من لواحق طبيعتي.

3 هذا مبدأ ديكارتي: الحق هو الوجود، والباطل هو العدم، وكل موجود فله علّة، وعلى ذلك فإذا كانت الفكرة حقًّا فلها بالضرورة علّة.

que je dis la vérité, sinon que je vois très clairement que, pour penser, il faut être, je jugeai que je pouvais prendre pour règle générale, que les choses que nous concevons fort clairement et fort distinctement sont toutes vraies, mais qu'il y a seulement quelque difficulté à bien remarquer quelles sont celles que nous concevons distinctement.

En suite de quoi, faisant réflexion sur ce que je doutais, et que, par conséquent, mon être n'était pas tout parfait, car je voyais clairement que c'était une plus grande perfection de connaître que de douter, je m'avisais de chercher d'où j'avais appris à penser à quelque chose de plus parfait que je n'étais ; et je connus évidemment que ce devait être de quelque nature qui fût en effet plus parfaite. Pour ce qui est des pensées que j'avais de plusieurs autres choses hors de moi, comme du ciel, de la terre, de la lumière, de la chaleur, et de mille autres, je n'étais point tant en peine de savoir d'où elles venaient, à cause que, ne remarquant rien en elles qui me semblât les rendre supérieures à moi, je pouvais croire que, si elles étaient vraies, c'étaient des dépendances de ma nature, en tant qu'elle avait quelque perfection ; et si elles ne l'étaient pas, que je les tenais du néant, c'est-à-dire qu'elles étaient en moi, pour ce que j'avais du défaut. Mais ce ne pouvait être le même de l'idée d'un être plus parfait que le mien : car, de la tenir du néant, c'était chose manifestement impossible ; et pour ce qu'il n'y a pas moins de répugnance que le plus parfait soit une suite et une dépendance du moins parfait, qu'il y en a que de rien procède

كمالًا، ليس أقل شناعة[1] من قولنا: إن الشيء يحدث من لا شيء. وإذن أنا لا أستطيع أبدًا أن أستمدّ هذه الفكرة من نفسي[2]، فبقي أنها ألقيت إليّ من طبيعة هي في الحقيقة أكمل مني، لا بل من طبيعة لها بذاتها جميع الكمالات التي أستطيع أن أتصوّرها. وإذا أردت الإبانة عن رأيي بكلمة واحدة قلت: إن المراد بهذه الطبيعة هو الله. ثم أضفت إلى ذلك: لما رأيت أن هناك كمالات ليس لي منها شيء عَلِمْتُ أنني لست الكائن الوحيد الذي في الوجود (واسمحوا لي هنا أن أستعمل ألفاظ الفلسفة المدرسية)[3]، وإنما يجب بالضرورة أن يكون هناك موجودٌ آخر أكثر مني كمالًا، أنا تابع له، وجميع الكمالات التي فيّ مستمدة منه، لأنني لو كنت وحيدًا ومستقلًّا عن كل كائن آخر، وكان هذا القليل من الكمال الذي أشارك فيه الموجود الكامل مستمدًّا من نفسي وحدها، لكنت أستطيع أن أحصل من نفسي، وللسبب ذاته، على جميع الكمالات التي أعرف انها تنقصني، ولكنت أجعل نفسي كذلك لا متناهيًا، أزليًّا، أبديًّا، ثابتًا، عالمًا بكل شيء، حاصلًا في النهاية على جميع الكمالات التي أستطيع أن أتصور وجودها في الله[4]. وينتج من هذه الاستدلالات التي أوردتها أنه، لمعرفة طبيعة الله على قدر ما تستطيعه طبيعتي، لم يكن عليَّ إلاّ أن أتأمل جميع الأشياء التي وجدت صورها في نفسي، هل في امتلاكها كمال أم لا. ولقد كنت

---

1 أي ليس أقل تناقضًا.

2 إذا قلت: إن في المعلول شيئًا أكثر مما في العلة، كان هذا الشيء الزائد لا علة له، وإذا قلت أن الأكمل يحدث عن الأقل كمالاً، رجع قولك هذا إلى أن الشيء يحدث من لا شيء، وهذا خلف.

3 أي اصطلاحات فلاسفة القرون الوسطى كقولهم: «أشارك، واحصل من نفسي» إلخ...

4 هذا القسم من قوله: «لما رأيت أنّ هناك كمالات»، إلى قوله: «أتصوّر وجودها في الله» هو شرح ثانٍ للدليل على وجود الله. وخلاصة هذا الدليل أنّ الإرادة تنزع حتمًا إلى ما تظنّه خيرًا أعظم. إنّني أرغب في الكمال لأنّ لدي فكرة واضحة عن الكائن الكامل. ولكن لماذا لا أستطيع الحصول على جميع الكمالات التي أتصوّرها؟ ذلك لأنّي لست خالقًا لوجودي، بل أنا أتابع لعلّة هي أكمل منّي، مشتملة على جميع الكمالات التي أتصوّرها، وهذه العلّة هي الله.

quelque chose, je ne la pouvais tenir non plus de moi-même. De façon qu'il restait qu'elle eût été mise en moi par une nature qui fût véritablement plus parfaite que je n'étais, et même qui eût en soi toutes les perfections dont je pouvais avoir quelque idée, c'est-à-dire, pour m'expliquer en un mot, qui fût Dieu. A quoi j'ajoutai que, puisque je connaissais quelques perfections que je n'avais point, je n'étais pas le seul être qui existât (j'userai, s'il vous plaît, ici librement des mots de l'École), mais qu'il fallait, de nécessité, qu'il y en eût quelque autre plus parfait, duquel je dépendisse, et duquel j'eusse acquis tout ce que j'avais. Car, si j'eusse été seul et indépendant de tout autre, en sorte que j'eusse eu, de moi-même, tout ce peu que je participais de l'Être parfait, j'eusse pu avoir de moi, par même raison, tout le surplus que je connaissais me manquer, et ainsi être moi-même infini, éternel, immuable, tout connaissant, tout puissant, et enfin avoir toutes les perfections que je pouvais remarquer être en Dieu. Car, suivant les raisonnements que je viens de faire, pour connaître la nature de Dieu, autant que la mienne en était capable, je n'avais qu'à considérer de toutes les choses dont je trouvais en moi quelque idée, si c'était perfection, ou non, de les posséder, et j'étais assuré qu'aucune de celles qui marquaient quelque imperfection n'était en lui, mais que toutes les autres y étaient. Comme je voyais que le doute, l'inconstance,

متيقّنًا أن أيّة فكرة من الفكر المشتملة على النقص لا وجود لها في الله، ولكن جميع الفكر الأخرى ثابتة له[1]. وكذلك رأيت أن الشك، والتقلب، والحزن، وما شابه ذلك من الأمور لا يمكن أن تنسب إليه، لأنني كنت أنا نفسي أرتاح إلى سلامتي منها. ثم انه كان في نفسي، عدا ذلك، صور لكثير من الأشياء الحسية والجسمية: لأنني، وإن فرضت أنني كنت حالمًا، وأن ما أراه وأتخيله كان باطلًا، إلاّ أنني لا أستطيع أن أنكرَ مع ذلك أن صور ما أراه وأتخيله موجودة في ذهني. ولكن لما كنت قد عرفت سابقًا معرفة واضحةً أن الطبيعة العاقلة فيَّ متميّزة عن الطبيعة الجسمية، وأن كل تركيب يدل على تعلّق[2] الشيء بالشيء، وأن التعلّق نفسه نقص ظاهر، استنتجت من ذلك أنه ليس من الكمال أن يكون الله مؤلفًا من هاتين الطبيعتين، وأنه لا يمكن بالتالي أن يكون الله مركبًا. وإذا كان في العالم أجسام[3]، أو عقول[4]، أو طبائع أخرى[5] غير تامة الكمال، فإن وجودها يجب أن يكون متعلقًا بقدرته، بحيث لا تستطيع البقاء دونه لحظة واحدة[6].

ثم إني أردت بعد ذلك[7] أن أبحث عن حقائق أخرى، فاخترت

---

1 إن البرهان على وجود الله بالاستناد إلى فكرة الموجود الكامل ليس برهانًا على وجود الله فحسب، وإنما هو الوسيلة الوحيدة التي تعيّن لنا في الوقت نفسه صفاته. فالله هو الموجود الكامل، الواحد، الأزلي، الدائم، المستقل بذاته، المحيط علمه بالأشياء، والمتصف بجميع الكمالات. وفكرة «الكامل» هي المعيار الذي توزن به سائر الصفات الأخرى.

2 ذلك لأن أجزاء المركب تابعة بعضها لبعض بالضرورة، ولأن الكل نفسه تابع بدوره للأجزاء التي يتألف منها.

3 إن وجود الله هو الذي يضمن وجود العالم الخارجي، والله صادق لا يكذب، ولا يضلل، وصدقه هو العماد الوحيد لوجود الأشياء الخارجية.

4 أي الملائكة بالمعنى المدرسي (أو السكولاستيكي).

5 كطبيعة الإنسان المؤلفة من اتحاد النفس بالجسم.

6 يشير هنا إلى مبدإ الخلق المستمر **création continuée**.

7 أي أنه بعد أن برهن على وجود الله، ووجود النفس وتميزها عن الجسم، سبر غور فكره فاختار من محتوياته فكرة الامتداد الهندسي، وتناولها بالبحث.

la tristesse et choses semblables, n'y pouvaient être, vu que j'eusse été moi-même bien aise d'en être exempt. Puis, outre cela, j'avais des idées de plusieurs choses sensibles et corporelles : car, quoique je supposasse que je rêvais, et que tout ce que je voyais ou imaginais était faux, je ne pouvais nier toutefois que les idées n'en fussent véritablement en ma pensée ; mais pour ce que j'avais déjà connu en moi très clairement que la nature intelligente est distincte de la corporelle, considérant que toute composition témoigne de la dépendance, et que la dépendance est manifestement un défaut, je jugeais de là, que ce ne pouvait être une perfection en Dieu d'être composé de ces deux natures, et que, par conséquent, il ne l'était pas ; mais que s'il y avait quelques corps dans le monde, ou bien quelques intelligences, ou autres natures, qui ne fussent point toutes parfaites, leur être devait dépendre de sa puissance, en telle sorte qu'elles ne pouvaient subsister sans lui un seul moment.

Je voulus chercher, après cela, d'autres vérités, et m'étant proposé l'objet des géomètres, que je concevais comme un corps

الموضوع الذي يبحث فيه علماء الهندسة. وهو، كما أتصوّره، جسم متصل، أو مكان لا حدّ[1] لامتداده في الطول، والعرض، والارتفاع، أو العمق، يقبل الانقسام إلى أجزاء مختلفة، ذات أشكال، وحجوم مختلفة، وتُحرّك أو تُبدَّل[2] على جميع الوجوه، (لأن علماء الهندسة يفرضون ذلك كله في موضوع علمهم). وتصفحت بعض براهينهم البسيطة، ففطنت إلى أن هذا اليقين العظيم الذي يعزوه الناس إليها إنما هو مبنيّ على كون تصورها بديهيًّا تبعًا للقاعدة التي ذكرتها سابقًا، ثم فطنتُ أيضًا إلى أن لا شيء في هذه البراهين يجعلني على يقين بوجود موضوعاتها خارج الذهن[3]. مثال ذلك: كنت أرى جيدًا أنني إذا فرضت مثلثًا لزم من ذلك أن تكون زواياه الثلاث مساويةً لزاويتين قائمتين، ولكني لم أجد في ذلك ما يجعلني على يقين بأن في العالم مثلثًا ما؛ في حين أنني إذا رجعت إلى امتحان معنى الموجود الكامل الذي أتصوره، وجدت أنه يتضمن الوجود على نحو ما يتضمن معنى المثلث أن زواياه الثلاث مساوية لزاويتين قائمتين، أو كما يدخل في معنى الكرة أن جميع أقسام سطحها متساوية البعد عن مركزها، بل هو أكثر من هذين الأمرين بداهة[4]. ويلزم عن ذلك أن وجود الله، الذي هو ذلك الكائن الكامل، لا يقل يقينًا عن أي برهان من براهين الهندسة.

---

1 لأنك لا تستطيع أن تتصور المكان إلاّ محدودًا بمكان آخر.

2 أي يوضع بعضها في محل بعض.

3 لقد خلق الله الماهيات الهندسية كغيرها من الماهيات، وهو قادر على أن يبطلها ويخلق غيرها، أما طبيعته الكاملة فهي أثبت من جميع الحقائق، ويستحيل عليه أن ينفي عن نفسه الوجود، أو أن يجعل الخليقة مستقلة عنه.

4 يقارن ديكارت هنا بين المفاهيم الهندسية ومفهوم الكائن الكامل، فيجد في هذه المقارنة دليلاً على وجود الله، وهو أننا نستطيع أن نتصور شكلاً هندسيًّا من دون أن نتصور وجود موضوعه خارج الذهن، في حين أننا لا نستطيع أن نتصور الكائن الكامل، أي الإله، من دون أن نتصوره موجودًا، لأن الوجود كمال من الكمالات، ومن التناقض أن نفرض أن الكائن الكامل ينقصه كمال ما كالوجود. وقد سمي هذا الدليل بالدليل الانطولوجي «argument ontologique»، أو الوجودي، لأنه يستنتج الوجود من فكرة الكمال.

continu, ou un espace indéfiniment étendu en longueur, largeur et hauteur ou profondeur, divisible en diverses parties, qui pouvaient avoir diverse figures et grandeurs, et être mues ou transposées en toutes sortes, car les géomètres supposent tout cela en leur objet, je parcourus quelques-unes de leurs plus simples démonstrations. Et ayant pris garde que cette grande certitude, que tout le monde leur attribue, n'est fondée que sur ce qu'on les conçoit évidemment, suivant la règle que j'ai tantôt dite, je pris garde aussi qu'il n'y avait rien du tout en elles qui m'assurât de l'existence de leur objet. Car, par exemple, je voyais bien que, supposant un triangle, il fallait que ses trois angles fussent égaux à deux droits ; mais je ne voyais rien pour cela qui m'assurât qu'il n'y eût au monde aucun triangle. Au lieu que, revenant à examiner l'idée que j'avais d'un Être parfait, je trouvais que l'existence y était comprise, en même façon qu'il est compris en celle d'un triangle que ses trois angles sont égaux à deux droits, ou en celle d'une sphère que toutes ses parties sont également distantes de son centre, ou même encore plus évidemment ; et que, par conséquent, il est pour le moins aussi certains, que Dieu, qui est cet Être parfait, est ou existe, qu'aucune démonstration de géométrie le saurait être.

ولكن السبب في اعتقاد الكثيرين أن هناك صعوبة في معرفة الله، بل في معرفة ما هي النفس أيضًا، يرجع إلى أنهم لا يرفعون عقولهم أبدًا إلى ما وراء الأشياء الحسية، وأنهم تعوّدوا ألاّ يفكّروا في شيء إلاّ إذا تخيلوه - وهذه طريقة تفكير خاصة بالأشياء المادية - حتى أن كل ما لا يمكن تخيله يبدو لهم غير معقول[1]. وهذا ظاهر في اتخاذ الفلاسفة قاعدةً لهم في المدارس: إن لا شيء في العقل لم يكن أولًا في الحس[2]. وانه لمن المتيقن مع ذلك أن معنى الإله ومعنى النفس لم يكونا قط في الحس. ويبدو لي أن الذين يريدون أن يستعينوا بخيالهم على تفهّم هذين المعنيين[3] يفعلون كما لو أنهم أرادوا الاستعانة بعيونهم على سماع الأصوات، أو شم الروائح. إلاّ أن هناك فرقًا بين الأمرين، وهو أن توكيد حاسة البصر لحقيقة مدركاتها لا يقل عن فعل حاسة الشم أو السمع، في حين أن قوتنا المتخيلة وحواسنا لا تستطيع أن تؤكّد لنا شيئًا إلاّ إذا تدخل عقلنا فيه.

وأخيرًا، إذا كان هناك أناس لم يقتنعوا بعد اقتناعًا كافيًا بوجود الله، ووجود النفس، بالحجج التي أوردتها، فإني أريد أن يعلموا جيدًا أن جميع الأشياء، التي يظنون أنهم أكثر وثوقًا بها، مثل أن لهم جسمًا، وأن هناك كواكب وأرضًا، وما شابه ذلك، إنما هي أقل ثبوتًا. ومع أنه قد يكون للمرء ثقة عملية[4] بهذه الأشياء يبدو معها أنه لا يمكنه الشك فيها إلاّ إذا شطّ في

---

1 إن الذين يألفون الإدراك الحسي يعجزون عن تمييز النفس من الجسد، وعن إدراك ضرورة وجود الله، فيبدو لهم أن النفس جسم دقيق، وأن وجود الله شبيه بوجود الأشياء المادية، مع أن الله انفرد بميزة لا يشاركه فيها شيء، وهي أن وجوده لازم عن ذاته. لا بل أن فكرته تجعلنا على يقين بوجود موضوعها خارج الذهن.

2 هذه حكمة سكولاستيكية: .Nihil est in intellectu, quod non prius fuerit in sensu

3 هذا نقد لفلسفة القديس توما الاكويني الذي كان يقول أن عقولنا لا تدرك من حقيقة الإله والنفس أكثر مما تستطيع أن تصل إليه بطريق المعرفة الحسية.

4 في الأصل: morale أي ثقة خلقية، وأدبية، وهي الثقة الضرورية للنهوض بحاجات الحياة العملية، كثقتنا مثلاً بقواعد الأخلاق الموقتة.

Mais ce qui fait qu'il y en a plusieurs qui se persuadent qu'il y a de la difficulté à le connaître, et même aussi à connaître ce que c'est que leur âme, c'est qu'ils n'élèvent jamais leur esprit au-delà des choses sensibles, et qu'ils sont tellement accoutumés à ne rien considérer qu'en l'imaginant, qui est une façon de penser particulière pour les choses matérielles, que tout ce qui n'est pas imaginable, leur semble n'être pas intelligible. Ce qui est assez manifeste de ce que même les philosophes tiennent pour maxime, dans les écoles, qu'il n'y a rien dans l'entendement qui n'ait premièrement été dans le sens, où toutefois il est certain que les idées de Dieu et de l'âme n'ont jamais été. Et il me semble que ceux qui veulent user de leur imagination, pour les comprendre, font tout de même que si, pour ouïr les sons, ou sentir les odeurs, ils se voulaient servir de leurs yeux : sinon qu'il y a encore cette différence, que le sens de la vue ne nous assure pas moins de la vérité de ses objets, que font ceux de l'odorat ou de l'ouie ; au lieu que ni notre imagination ni nos sens ne nous sauraient jamais assurer d'aucune chose, si notre entendement n'y intervient.

Enfin, s'il y a encore des hommes qui ne soient pas assez persuadés de l'existence de Dieu et de leur âme, par les raisons que j'ai apportées, je veux bien qu'ils sachent que toutes les autres choses, dont ils se pensent peut-être plus assurés, comme

حكمه، وابتعد عن المألوف، فإنه، فيما يتعلق باليقين الفلسفيّ، لا يستطيع، اللهم إلاّ إذا حرم العقل، أن ينكر أنه يكفي لنفي اليقين التام أن يلاحظ الانسان أنه يستطيع بالطريقة نفسها أن يتخيَّل وهو نائم، أن له جسمًا آخر، وأنه يبصر كواكب وأرضًا أخرى، دون وجود شيء من ذلك هناك. لأنه من أين للمرء أن يعلم أن الأفكار التي ترد عليه في النوم أقرب إلى الكذب من غيرها، ما دامت لا تقل عن غيرها قوة ووضوحًا[1]. ولو أن أفضل العقول بحثت في ذلك ما شاءت، لما استطاعت، فيما اعتقد، أن تأتي بأية حجة لرفع هذا الشك، ما لم تقدِّم على ذلك فرض وجود الله. أولًا، لأن الأمر الذي اتخذته من قبل قاعدة، وهو أن الأشياء التي نتصوَّرها تصورًا بالغ الوضوح والتميز صحيحة كلها، لم أتيقنه هذا اليقين[2] إلاّ لأن الله كائن أو موجود، وأنه موجود كامل، وأن كل ما فينا يصدر عنه[3]. ينتج من ذلك أن أفكارنا وتصوراتنا، لما كانت أشياء حقيقية صادرة عن الله، فهي، بما هي

---

1 قارنْ هذا القول بقول الغزالي في المنقذ من الضلال: «فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلاً، وأيدت أشكالها بالمنام، وقالت: أما تراك تعتقد في النوم أمورًا، وتتخيل أحوالاً، وتعتقد لها ثباتًا واستقرارًا، ولا تشك في تلك الحالة فيها، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل... إلخ» (المنقذ من الضلال، ص 72 من الطبعة الثانية، دمشق 1934).

2 يفرق ديكارت بين نوعين من اليقين: الأول يسمى أدبيًا، أي كافيًا لتدبير أخلاقنا. وهو مساو في القوة ليقيننا بالأشياء التي ليس من عادتنا أن نشك فيها لتعلقها بسلوكنا في الحياة، مع أننا نعرف انها يمكن أن تكون باطلة: إن الذين لم يذهبوا البتة إلى رومة لا يشكون في أنها مدينة في ايطاليا... أما اليقين الثاني فهو اليقين الذي ندركه عندما نرى أن الشيء لا يمكن أن يكون على غير ما نحكم به عليه، وهذا اليقين يشمل جميع الحقائق المبرهن عليها في الرياضيات، (راجع مبادئ الفلسفة Principes de la Philosophie t. III, p. 522. نقله رابيه Rabiet في تعليقه على مقالة الطريقة، ص 44. ونقله أيضًا جيلسون في تعليقه، ص 358).

3 إن هذا الكلام أثار المشكلة المشهورة في تاريخ الفلسفة باسم الدور الديكارتي (Cercle Cartésien) ويلخص هذا الدور كما يلي: اننا أقمنا الدليل على وجود الله بالاعتماد على مبدأ البداهة، وهو أن كل ما نتصوره بوضوح وتميز حق. ولكننا، بعد أن تمّ لنا ذلك الدليل، عدنا إلى تصوراتنا، وقلنا أن ما نتصوره بوضوح وتميز لا يكون حقًا إلاّ لأن الله موجود. فنحن قد استندنا إذن إلى سلطان البداهة في اثبات وجود الله، ثم استندنا إلى وجود الله في تأييد سلطان البداهة، وهذا دور.

d'avoir un corps, et qu'il y a des astres et une terre et choses semblables, sont moins certaines. Car, encore qu'on ait une assurance morale de ces choses, qui est telle, qu'il semble qu'à moins d'être extravagant, on n'en peut douter, toutefois aussi, à moins que d'être déraisonnable, lorsqu'il est question d'une certitude métaphysique, on ne peut nier que ce ne soit assez de sujet pour n'en être pas entièrement assuré, que d'avoir pris garde qu'on peut, en même façon, s'imaginer, étant endormi, qu'on a un autre corps, et qu'on voit d'autres astres, et une autre terre, sans qu'il en soit rien. Car d'où sait-on que les pensées qui viennent en songe sont plutôt fausses que les autres, vu que souvent elles ne sont pas moins vives et expresses ? Et que les meilleurs esprits y étudient, tant qu'il leur plaira, je ne crois pas qu'ils puissent donner aucune raison qui soit suffisante pour ôter ce doute, s'ils ne présupposent l'existence de Dieu. Car, premièrement, cela même que j'ai tantôt pris pour une règle, à savoir que les choses que nous concevons très clairement et très distinctement sont toutes vraies, n'est assuré qu'à cause que Dieu est ou existe, et qu'il est un être parfait, et que tout ce qui est en nous vient de lui. D'où il suit que nos idées ou notions, étant des choses réelles, et qui viennent de Dieu, en tout ce en quoi elles sont claires et distinctes, ne peuvent en cela être que vraies. En sorte que, si nous en avons assez souvent qui contiennent de la fausseté, ce ne peut être que de celles qui ont quelque chose de confus et obscur, à cause qu'en

واضحة ومميزة، لا يمكن أن تكون إلاّ صحيحة، بحيث أنه إذا كان لدينا في الغالب أفكار كاذبة، فإن هذا الكذب لا يكون إلاّ فيما كان منها محتويًا على غموض والتباس، لأنها في ذلك تشارك العدم، أعني أنها ليست على هذا النحو من الغموض إلاّ لأن كمالنا ليس تامًا. وبديهيّ أن الشناعة[1] في قولنا أن الباطل أو الناقص من حيث هو كذلك يصدر عن الله، ليس أقل من الشناعة في قولنا: ان الحق أو الكمال يصدر عن العدم، ولكننا إذا كنا لا نعلم أبدًا أن كل ما فينا من وجود وحق إنما يأتي من موجود كامل وغير متناه، فمهما تكن أفكارنا واضحة ومميّزة فإنه لا يمكن أن يكون لدينا أي دليل يثبت لنا أنها يمكن أن تتصف بكمال الحقيقة.

وعلى ذلك فإنه من السهل علينا جدًّا، بعد أن جعلتنا معرفة الله والنفس على يقين من هذه القاعدة، أن نعرف أن الأحلام التي نتخيلها في النوم لا تحملنا أبدًا على الشك في صدق الأفكار التي تحصل لنا في اليقظة. لأنه إذا اتفق للمرء، حتى في النوم، أن يتصور فكرة جد متميزة، كأن يكشفَ أحد علماء الهندسة برهانًا جديدًا، فإن نومه لا يمنع هذا البرهان من أن يكون صحيحًا. أما الخطأ العادي في أحلامنا، وهو يقوم على أن الأحلام تصوّر لنا أمورًا مختلفة على النحو الذي تفعله حواسنا الظاهرة، فليس مهمًّا أن يكون هذا الخطأ باعثًا على الارتياب في صدق مثل هذه الأفكار، لأنها تستطيع أيضًا أن تخدعنا في كثير من الأحيان من دون أن نكون نيامًا، كمثل المصابين بمرض اليرقان، فهم يرون كل شيء أصفر اللون، أو كمثل الكواكب والأجسام البعيدة جدًّا، فهي تظهر لنا أصغر بكثير مما هي عليه[2].

---

1 في الأصل: répugnance، أي الاشمئزاز أو النفور.

2 قارن هذا القول بقول الغزالي في المنقذ من الضلال: «وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيرًا في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار». (المنقذ، ص 71 من الطبعة الثانية، دمشق 1934).

cela elles participent du néant, c'est-à-dire, qu'elles ne sont en nous ainsi confuses, qu'à cause que nous ne sommes pas tout parfaits. Et il est évident qu'il n'y a pas moins de répugnance que la fausseté ou l'imperfection procède de Dieu, en tant que telle, qu'il y en a que la vérité ou la perfection procède du néant. Mais si nous ne savions point que tout ce qui est en nous de réel et de vrai vient d'un être parfait et infini, pour claires et distinctes que fussent nos idées, nous n'aurions aucune raison qui nous assurât qu'elles eussent la perfection d'être vraies.

Or, après que la connaissance de Dieu et de l'âme nous a ainsi rendus certains de cette règle, il est bien aisé à connaître que les rêveries que nous imaginons étant endormis ne doivent aucunement nous faire douter de la vérité des pensées que nous avons étant éveillés. Car, s'il arrivait, même en dormant, qu'on eût quelque idée fort distincte, comme, par exemple, qu'un géomètre inventât quelque nouvelle démonstration, son sommeil ne l'empêcherait pas d'être vraie. Et pour l'erreur la plus ordinaire de nos songes, qui consiste en ce qu'ils nous représentent divers objets en même façon que font nos sens extérieurs, n'importe pas qu'elle nous donne occasion de nous défier de la vérité de telles idées, à cause qu'elles peuvent aussi nous tromper assez souvent, sans que nous dormions ; comme lorsque ceux qui ont la jaunisse voient tout de couleur jaune, ou que les astres ou autres corps fort éloignés nous paraissent beaucoup plus petits qu'ils ne sont. Car enfin, soit que nous veillions, soit que nous dormions, nous ne nous

وأخيرًا سواء أكنا أيقاظًا أم نيامًا، فانه ينبغي لنا أن لا نقتنع إلاّ ببداهة عقولنا. وليلاحظْ أنني أقول هنا عقولنا لا خيالنا وحواسنا. ومن قبيل هذا أيضًا يجب علينا، إذا رأينا الشمس في وضوح تام، أن لا نحكم من أجل ذلك بأن حجمها ليس إلاّ بالمقدار الذي نراها فيه. ويمكننا أن نتخيّل في تَميّز تامٍّ رأس أسد مركبًا على جسم عنزة من دون أن يلزمنا أن نستنتج من أجل ذلك أن في العالم وَحْشًا وهميًّا كهذا. لأن العقل لا يملي علينا أن يكون ما نراه أو نتخيّله على هذا الوجه حقيقيًّا، ولكنه يملي علينا أن أفكارنا وتصوراتنا يجب أن يكون لها أساس من الحقيقة، ولولا ذلك لما كان من الممكن أن يضع الله فينا هذه الأفكار والتصورات، وهو كمال كله، حق كله، ولما كانت استدلالاتنا في النوم ليست بديهية وتامةً كما هي عليه في اليقظة، وكان لمتخيلاتنا من القوة أو الوضوح في النوم ما لها في اليقظة أو أكثر، فإن العقل ليملي علينا أيضًا أن أفكارنا ما دامت لا تستطيع أن تكون كلها صحيحة، لعدم اتصافنا بالكمال، فإن ما فيها من حق يجب أن يوجد حتمًا في التي تحصل لنا في اليقظة لا في الأحلام[1].

1 إن هذا الاستدلال ليس منتجًا لأنه قد يتأتى للمرء أن يكشف بعض الحقائق العلمية في النوم، وقد اعترف ديكارت نفسه بذلك.

devons jamais laisser persuader qu'à l'évidence de notre raison. Et il est à remarquer que je dis, de notre raison, et non point, de notre imagination ni de nos sens. Comme, encore que nous voyions le soleil très clairement, nous ne devons pas juger pour cela qu'il ne soit que de la grandeur que nous le voyons ; et nous pouvons bien imaginer distinctement une tête de lion entrée sur le corps d'une chèvre, sans qu'il faille conclure, pour cela, qu'il y ait au monde une chimère : car la raison ne nous dicte point que ce que nous voyons ou imaginons ainsi soit véritable. Mais elle nous dicte bien que toutes nos idées ou notions doivent avoir quelque fondement de vérité ; car il ne serait pas possible que Dieu, qui est tout parfait et tout véritable, les eût mises en nous sans cela. Et pour ce que nos raisonnements ne sont jamais si évidents ni si entiers pendant le sommeil que pendant la veille, bien que quelquefois nos imaginations soient alors autant ou plus vives et expresses, elle nous dicte aussi que nos pensées ne pouvant être toutes vraies, à cause que nous ne sommes pas tout parfaits, ce qu'elles ont de vérité doit infailliblement se rencontrer en celles que nous avons étant éveillés, plutôt qu'en nos songes.

القسم الخامس
ترتيب مسائل الطبيعيّات

قد يطيب لي كثيرًا أن أتتبع سلسلة الحقائق الأخرى، التي استنتجتها من هذه الحقائق الأولى، وأن أبينها هنا[1]. ولكن لما كان تحقيق ذلك يحتاج الآن إلى الكلام على مسائل كثيرة[2] هي موضع جدال بين العلماء، الذين لا أريد أن أشوّش علاقتي بهم، رأيت أنه يحسن بي أن أكف عن ذلك، وأن أقتصر على القول بوجه عام ما هي تلك الحقائق، حتى يتاح لمن هم أغزر مني حكمة أن يقرروا إن كان من المفيد للجمهور أن يعرفها على وجه أكثر تفصيلًا[3]. لقد بقيت ثابتًا دائمًا على القرار الذي اتخذته، وهو أن لا أفرض أي مبدأ آخر غير الذي أخذت به للبرهان على وجود الله والنفس، وأن لا أتلقى شيئًا على أنه حق ما لم يظهر لي أنه أوضح وأوثق مما تضمّنته براهين علماء الهندسة من قبل. ومع ذلك فإني لأجرؤ على القول أنني، فيما يختص بجميع المعضلات الأساسية، التي تعوّد العلماء معالجتها في الفلسفة، لم أجد وسيلة لشفاء غليلي منها في قليل من الزمان فحسب، بل اهتديت أيضًا إلى بعض القوانين التي أقامها الله في الطبيعة، وطبع صورها على نفوسنا، بحيث أننا إذا فكرنا فيها تفكيرًا وافيًا، لم نشكّ في أن كل ما هو موجود وحادث في العالم محكم التقيد بها. ثم اني، لما نظرت في

---

1 لما أتم ديكارت مبادئ الفلسفة الأولى، شرع في وضع طبيعياته، وعزم على نشرها قبل مبادئ الفلسفة، ولكنه كف عن ذلك لبعض الاعتبارات.

2 من هذه المسائل مسألة حركة الأرض.

3 لقد كان يؤمل أن تؤدي إذاعة خطته في علم الطبيعة إلى ترغيب الناس في الاطلاع على ما تضمنته من المسائل الهامة، وحمل السلطات الدينية على طلب نشرها، أو على ضمان طبع كتابه من دون أن يصيبه منه أذى.

CINQUIÈME PARTIE

ORDRE DES QUESTIONS DE PHYSIQUE

Je serais bien aise de poursuivre, et de faire voir ici toute la chaîne des autres vérités que j'ai déduites de ces premières. Mais, à cause que, pour cet effet, il serait maintenant besoin que je parlasse de plusieurs questions, qui sont en controverse entre les doctes, avec lesquels je ne désire point me brouiller, je crois qu'il sera mieux que je m'en abstienne, et que je dise seulement en général quelles elles sont, afin de laisser juger aux plus sages s'il serait utile que le public en fût plus particulièrement informé. Je suis toujours demeuré ferme en la résolution que j'avais prise, de ne supposer aucun autre principe que celui dont je viens de me servir pour démontrer l'existence de Dieu et de l'âme, et de ne recevoir aucune chose pour vraie, qui ne me semblât plus claire et plus certaine que n'avaient fait auparavant les démonstrations des géomètres. Et néanmoins, j'ose dire que, non seulement j'ai trouvé moyen de me satisfaire en peu de temps, touchant toutes les principales difficultés dont on a coutume de traiter en la philosophie, mais aussi que j'ai remarqué certaines lois, que Dieu a tellement établies en la nature, et dont il a imprimé de telles notions en nos âmes, qu'après y avoir fait assez de réflexion, nous ne saurions douter qu'elles ne soient exactement observées, en tout ce qui est ou qui se fait dans le monde. Puis, en considérant

سلسلة هذه القوانين، ظهر لي أني كشفت عن حقائق كثيرة هي أنفع وأهم من كل ما تعلمته من قبل، بل ومن كل ما أمّلته.

ولكني، لما كنت قد بذلت وسعي في توضيح أصول هـذه الحقائق في كتاب[1] منعتني بعض الاعتبارات من نشره، كان أحسن ما أستطيع فعله للتعريف بها، أن أذكر هنا بإيجاز ما يشتمل عليه هذا الكتاب. لقد عزمت قبل كتابة هذا الكتاب على أن أضمّنه كل ما كنت عالمًا به مما يتصل بطبيعة الأشياء المادية. ولكن، كما أن المصورين لا يستطيعون أن يمثلوا في لوحة مسطحة جميع الوجوه المختلفة لجسم صلب تمثيلًا واحدًا، فيختارون أحد وجوهه الرئيسية، ويضعونه وحده في الضوء، ثم يتركون وجوهه الأخرى في الظل، فلا يظهرونها إلاّ على قدر ما يمكن أن يرى منها عند النظر إلى ذلك الوجه، فكذلك، لما خشيت أن لا أضَمّن مقالتي ما كان في ذهني، اقتصرت فيها على عرض ما كنت أتصوره من الضوء عرضًا جدَّ مفصل. ثم أضفت إليها لهذه المناسبة شيئًا عن الشمس، وعن الكواكب الثابتة[2]، لأن الضوء كله يكاد يصدر عنها[3]، ثم عن السماوات، لأنها تنقله، ثم عن الكواكب السيّارة، والنجوم المذنبة، والأرض، لأنها تعكسه، وخصوصًا عن جميع الأجسام التي على الأرض، لأنها إما ملونة، وإما شفافة، وإما مضيئة[4]، وأخيرًا عن الإنسان،

1 هذا الكتاب هو كتاب العالم (Le Monde, ou Traité de la Lumière) بدأ به عام 1629؛ ثم توقف عنه لما بلغه خبر الحكم على غاليله. والقسم الخامس من مقالة الطريقة يلخص كتاب العالم، كما أن القسم الرابع يلخص كتاب التأملات.

2 جمع بين الشمس والكواكب الثابتة لاعتقاده أنها مركبة من عنصر واحد.

3 ان منابع الضوء في نظره ثلاثة: الشمس، والكواكب الثابتة، والنار.

4 ينقسم الضوء عند فلاسفة القرون الوسطى إلى ضوء حادث عن الجسم المضيء، وضوء مخترق للوسط الشفاف، وهذا الأخير ينقسم أيضًا إلى ضوء حادث عن شعاع مباشر، وضوء حادث عن شعاع منعكس. ويقابل هذا التقسيم الثلاثي أيضًا انقسام الأجسام إلى ثلاثة عناصر، فالعنصر الأول هو الشمس، والثوابت، والأجسام المضيئة؛ والعنصر الثاني هو السماوات، والأجسام الشفافة؛ والعنصر الثالث هو السيارات، والنجوم المذنبة، والأرض، وجميع الأجسام الكثيفة الملونة.

la suite de ces lois, il me semble avoir découvert plusieurs vérités plus utiles et plus importantes que tout ce que j'avais appris auparavant, ou même espéré d'apprendre.

Mais pour ce que j'ai tâché d'en expliquer les principales dans un traité[1], que quelques considérations m'empêchent de publier, je ne les saurais mieux faire connaître, qu'en disant ici sommairement ce qu'il contient. J'ai eu dessein d'y comprendre tout ce que je pensais savoir, avant que de l'écrire, touchant la nature des choses matérielles. Mais, tout de même que les peintres, ne pouvant également bien représenter dans un tableau plat toutes les diverses faces d'un corps solide, en choisissent une des principales qu'ils mettent seule vers le jour, et ombrageant les autres, ne les font paraître qu'en tant qu'on les peut voir en la regardant : ainsi, craignant de ne pouvoir mettre en mon discours tout ce que j'avais en la pensée, j'entrepris seulement d'y exposer bien amplement ce que je concevais de la lumière, puis, à son occasion, d'y ajouter quelque chose du soleil et des étoiles fixes, à cause qu'elle en procède presque toute ; des cieux, à cause qu'ils la transmettent ; des planètes, des comètes et de la terre, à cause qu'elles la font réfléchir ; et en particulier de tous les corps qui sont sur la terre, à cause qu'ils sont ou colorés, ou transparents, ou lumineux ; et enfin de l'homme, à cause qu'il en est le spectateur.

1 *Le monde ou le traité de la lumière*, 1664, Paris.

لأنه الناظر إلى جميع هذه اللأشياء. ولكي أترك جميع هذه الأشياء في الظل قليلًا، ولأستطيع أن أقول رأيي فيها بحرية، من دون أن أكون مرغمًا على اتباع الآراء المتداولة بين العلماء، أو على دحضها، عزمت على أن أترك هنا كل هذا العالم ليجادلوا فيه، وأن أقتصر على الكلام عمّا قد يحدثُ في عالمٍ جديد، لو أن الله خلق الآن في مكان ما، في الفضاء الخيالي[1]، مادة كافية لتأليفهن ثم حرَّك الأجزاء المختلفة لهذه المادة تحريكًا مختلفًا، وعلى غير نظام، بحيث ألّف من ذلك خليطًا مشوّشًا على النحو الذي يتوهمه الشعراء، ولم يصنع بعد ذلك إلاّ شيئًا واحدًا، وهو امداد الطبيعة بعونه المادي، وتركها تفعل وفقًا للقوانين التي أقامها. لذلك ابتدأت أولًا بوصف هذه المادة، وبذلت جهدي في تمثيلها على وجه ليس كمثل وضوحه ومعقوليته[2] شيء في العالم، اللهم إلاّ ما ذكرته آنفًا عن الله والنفس. ذلك لأنني فرضت أيضًا عن قصد أنه ليس في هذه المادة شيء من تلك الصور أو الصفات التي يجادلون فيها في المدارس[3]، ولا فيها على العموم شيء لم تكن معرفته بالنسبة إلى نفوسنا طبيعية إلى درجة لا يُستَطاع معها تكلف الجهل به. ثم اني بينت فوق ذلك ما هي قوانين الطبيعة. ومن دون أن أسند حججي إلى أي مبدأ آخر غير كمالات الله[4] اللامتناهية، حاولت أن أبرهن على جميع القوانين التي أمكنني التشكك فيها، وأن أبيّن أنها على نمط لو خلق الله معه عوالمَ كثيرةً، لما كان

---

1 كان فلاسفة القرون الوسطى يعتقدون أن العالم والمكان متناهيان، أما الفضاء الخيالي، الذي يتكلم عنه ديكارت هنا، فهو الفضاء الذي يتصوره الخيال وراء حدود العالم.

2 المادة في نظر ديكارت هي الامتداد ذو الأبعاد الثلاثة.

3 الصور هي الصور الجوهرية التي كان فلاسفة القرون الوسطى يوضحون بها أفعال الأجسام، أما الصفات الحقيقية فهي التي كانوا يوضحون بها خواص الأشياء. فالنفس مثلاً صورة جوهرية، أما الحرارة فهي صفة حقيقية في كل جسم حار. والمقصود بالمدارس هنا المذاهب الفلسفية في القرون الوسطى.

4 إن الله هو الموجود اللانهائي الثابت الدائم، وثبات الله هو الضامن لثبات قوانين الطبيعة.

Même, pour ombrager un peu toutes ces choses, et pouvoir dire plus librement ce que j'en jugeais, sans être obligé de suivre ni de réfuter les opinions qui sont reçues entre les doctes, je me résolus de laisser tout ce monde ici à leurs disputes, et de parler seulement de ce qui arriverait dans un nouveau, si Dieu créait maintenant quelque part, dans les espaces imaginaires, assez de matière pour le composer, et qu'il agitât diversement et sans ordre les diverses parties de cette matière, en sorte qu'il en composât un chaos aussi confus que les poètes en puissent feindre, et que, par après, il ne fit autre chose que prêter son concours ordinaire à la nature, et la laisser agir suivant les lois qu'il a établies. Ainsi, premièrement, je décrivis cette matière et tâchai de la représenter telle qu'il n'y a rien au monde, ce me semble, de plus clair ni plus intelligible, excepté ce qui a tantôt été dit de Dieu et de l'âme : car même je supposai, expressément, qu'il n'y avait en elle aucune de ces formes ou qualités dont on dispute dans les écoles, ni généralement aucune chose, dont la connaissance ne fût si naturelle à nos âmes, qu'on ne pût pas même feindre de l'ignorer. De plus, je fis voir quelles étaient les lois de la nature ; et, sans appuyer mes raisons sur aucun autre principe que sur les perfections infinies de Dieu, je tâchai à démontrer toutes celles dont on eût pu avoir quelque doute, et à faire voir qu'elles sont telles, qu'encore que Dieu aurait créé plusieurs mondes, il n'y en saurait avoir aucun où elles

فيها عالم واحد لا تراعى فيه. ثم بينت بعد ذلك كيف يجب أن ينتظم القسم الأعظم من مادة هذا الخليط المشوّش، وكيف يجب أن يترتب بحسب هذه القوانين على هيئة تجعله شبيهًا بسماواتنا، وكيف يجب عند ذلك أن تؤلّف بعض أجزائه أرضًا، وبعض أجزائه سياراتٍ ونجومًا مذنبة، وبعض أجزائه الأخرى شمسًا وكواكب ثابتة. وهنا توسعت في موضوع الضوء، فأوضحت بإسهاب ما هو هذا الضوء[1] الذي نفرض وجوده في الشمس والكواكب، وكيف ينبجس من هناك، ويخترق في لحظة واحدة مسافات السماوات الشاسعة، وكيف ينعكس من السيارات والنجوم المذنبة على الأرض. وأضفت إلى ذلك أيضًا أشياء كثيرة تختص بالجوهر، والوضع، والحركات، وبجميع الصفات المختلفة التي تتصف بها هذه السماوات وهذه الكواكب، بحيث رأيت أني قلت في ذلك ما يكفي للتعريف بأنه لا يلاحظ في سماوات عالمنا هذا، وكواكبه، شيء لا ينبغي له، أو لا يمكنه، على الأقل، أن يظهر مشابهًا كل المشابهة لسماوات ذلك العالم الذي وصفتُ كواكبه. وانتقلت من ذلك إلى تفصيل الكلام على الأرض، فذكرت كيف يجب أن تتجه جميع أجزائها نحو المركز اتجاهًا محكمًا، مع أني فرضت بصراحة أن الله لم يضع أي ثقل[2] في المادة التي تتركب منها، وكيف يجب أن يُحدثَ وضعُ السماوات والكواكب، ولا سيما وضع القمر، على سطحها المغمور بالماء والهواء، مدًّا وجزرًا مشابهين في جميع أحوالهما للمدّ والجزر اللذين يشاهدان في بحارنا، وكيف يُحدث هذا الوضع، عدا ذلك، جريانًا في الماء والهواء، من الشرق إلى الغرب، على النحو الذي نشاهده بين المدارين، وكيف تستطيع الجبال،

---

1 إن حركات أجزاء الجسم المضيء تضغط أعيننا من مسافات بعيدة، والعالم، كما يتصوّره ديكارت، ملاءٌ كله، فيكفي إذن أن تتحرك أجزاء الجسم المضيء، حتى ينتقل تأثيرها إلى أعيننا انتقالاً آنيًّا، كما ينتقل التأثير عند تحريك العصا من طرفها الاول إلى الثاني انتقالاً مباشرًا.

2 يعني بالثقل الجاذبية.

manquassent d'être observées. Après cela, je montrai comment la plus grande part de la matière de ce chaos devait, en suite de ces lois, se disposer et s'arranger d'une certaine façon qui la rendait semblable à nos cieux ; comment, cependant, quelques-unes de ses parties devaient composer une terre, et quelques-unes des planètes et des comètes, et quelques autres un soleil et des étoiles fixes. Et ici, m'étendant sur le sujet de la lumière, j'expliquai bien au long quelle était celle qui se devait trouver dans le soleil et les étoiles, et comment de là elle traversait en un instant les immenses espaces des cieux, et comment elle se réfléchissait des planètes et des comètes vers la terre. J'y ajoutai aussi plusieurs choses, touchant la substance, la situation, les mouvements et toutes les diverses qualités de ces cieux et de ces astres ; en sorte que je pensais en dire assez, pour faire connaître qu'il ne se remarque rien en ceux de ce monde, qui ne dût, ou du moins qui ne pût, paraître tout semblable à ceux du monde que je décrivais. De là je vins à parler particulièrement de la terre : comment, encore que j'eusse expressément supposé que Dieu n'avait mis aucune pesanteur en la matière dont elle était composée, toutes ses parties ne laissaient pas de tendre exactement vers son centre ; comment, y ayant de l'eau et de l'air sur sa superficie, la disposition des cieux et des astres, principalement de la lune, y devait causer un flux et reflux, qui fût semblable, en toutes ses circonstances, à celui qui se remarque dans nos mers ; et outre cela un certain cours, tant de l'eau que de l'air, du levant vers le couchant tel qu'on le remarque aussi entre les tropiques ; comment les montagnes, les mers, les fontaines et les rivières pouvaient naturellement s'y former, et les métaux y

والبحار، والينابيع، والأنهار، أن تتكوّن على سطح الأرض بصورة طبيعية، وكيف تحصل المعادن في المناجم، وتنمو النباتات في الحقول، وتتولد في الأرض على العموم جميع الأقسام التي تسمَّى بالمختلطة أو المركبة[1]. ولما كنت لا أعرف من بين الأشياء الأخرى التي في العالم شيئًا يحدث الضوء بعد الكواكب إلاّ النار، أخذت ابيّن بوضوح تام كل ما يختص بطبيعتها: كيف تحدث، وكيف تغتذي، وكيف لا يكون لها في بعض الأحيان إلاّ حرارة دون ضوء، ولا يكون لها في أحايين أخرى إلاّ ضوء دون حرارة[2]، وكيف يتأتى لها أن تحدث ألوانًا مختلفة، وصفاتٍ أخرى مختلفة في أجسام متباينة، وكيف تذيب بعض الأجسام، وتصلّب بعضها الآخر، وكيف تكاد تأكلها كلها أو تحيلها إلى رماد ودخان، وأخيرًا كيف تُكوّن من هذا الرماد زجاجًا بمجرّد فعلها الشديد. ولما كان قد بدا لي أن استحالة الرماد إلى زجاج أجدر بالإعجاب من أي استحالة أخرى في الطبيعة، وجدت لذلك لذة خاصة في وصفها.

ومع ذلك فإني لم أشأ أن استنبط من جميع هذه الأشياء إن هذا العالم قد خلق على الوجه الذي فرضته، لأنه من الأرجح أن الله قد جعله منذ البداية على ما ينبغي أن يكون عليه[3]. ولكنه من المؤكد، وهذا الرأي متداول بين علماء اللاهوت عامة، أن الفعل الذي يبقيه به الآن لا يختلف عن الفعل الذي به خَلَقه[4]، بحيث لو فرضنا أنه لم يهبه في البدء الاّ صورة الخليط

---

1 أي الأجسام المؤلفة من عناصر كثيرة.

2 مثال الأجسام التي لها حرارة دون ضوء: الجيّار (الكلس الحي)، ومثال الأجسام التي لها ضوء دون حرارة: الماء الفوسفوري، والنيازك.

3 إن كمال الله يستلزم أن تكون الكائنات التي خلقها تامة التكوين منذ البداية.

4 هذه نظرية الخلق المستمر (création continuée). إن الله يخلق العالم ويديم بقاءه، فهو إذن مبدع ومبقٍ، ومعنى الإبقاء عند ديكارت هو الإبداع المتصل الدائم.

venir dans les mines, et les plantes y croître dans les campagnes, et généralement tous les corps qu'on nomme mêlés ou composés s'y engendrer. Et entre autres choses, à cause qu'après les astres je ne connais rien au monde que le feu qui produise de la lumière, je m'étudiai à faire entendre bien clairement tout ce qui appartient à sa nature, comment il se fait, comment il se nourrit ; comment il n'a quelquefois que de la chaleur sans lumière, et quelquefois que de la lumière sans chaleur ; comment il peut introduire diverses couleurs en divers corps, et diverses autres qualités ; comment il en fond quelques-uns, et en durcit d'autres ; comment il les peut consumer presque tous, ou convertir en cendres et en fumée ; et enfin, comment de ces cendres, par la seule violence de son action, il forme du verre ; car cette transmutation de cendres en verre me semblant être aussi admirable qu'aucune autre qui se fasse en la nature, je pris particulièrement plaisir à la décrire.

Toutefois, je ne voulais pas inférer de toutes ces choses, que ce monde ait été créé en façon que je proposais, car il est bien plus vraisemblable que, dès le commencement, Dieu l'a rendu tel qu'il devait être. Mais il est certain, et c'est une opinion communément reçue entre les théologiens, que l'action, par laquelle maintenant il le conserve, est toute la même que celle par laquelle il l'a créé ; de façon qu'encore qu'il ne lui aurait point donné, au commencement,

المشوش، وأنه حين أقام قوانين الطبيعة، أمدّها بعون منه، لتفعل على مقتضى عادتها، لجاز لنا أن نعتقد، من دون أن نخالف معجزة الإبداع[1]، إن جميع الأشياء التي هي مادية محضة قد تستطيع بهذا وحده، وعلى مرّ الزمان، أن تصير إلى ما هي عليه الآن. إنّ تصوّرنا لطبيعتها حينما نراها تتولد شيئًا فشيئًا على هذا الوجه أيسر كثيرًا من تصوّرنا لها حين لا ننظر إليها إلاّ وهي تامّة التكوين.

وانتقلت من وصف الأجسام الجامدة والنباتات إلى وصف الحيوانات، وخصوصًا إلى وصف الإنسان. ولكن، لما كنت لم أحصل بعد على معرفة بالإنسان كافيةً للكلام عليه بالأسلوب الذي تكلمت به على غيره، موضحًا المعلولات بالعلل، ومبينًا من أي العناصر، وعلى أي هيئة ينبغي للطبيعة أن تحدثه، اكتفيت بأن أفرض أن الله صنع جسم انسان مشابهًا تمام المشابهة لأحد أجسامنا، سواء أكان ذلك في الشكل الخارجي لجوارحه، أم في التكوين الداخلي لأعضائه، من دون أن يركبه من مادة غير التي وصفتها، ومن دون أن يضع فيه في البدء أي نفس ناطقة، ولا أي شيء آخر يقوم منه مقام النفس النباتية أو الحساسة[2]، اللهم إلاّ ما أذكى في قلبه[3] من نار ليس لها ضوء، كالتي وصفتها من قبل، وتصورت أنها من طبيعة النار التي تسخن الكلأ المخزون قبل أن يصبح يابسًا، أو تجعل الأنبذة الجديدة تغلي حينما نتركها

---

1 الإبداع معجزة لأنه خلق الشيء من لا شيء، وهو عمل يختص بالله وحده؛ انظر جلسون: التعليق، ص 392.

2 النفوس النباتية أو الحساسة صور جوهرية فيها من علائق المادة الشيء الكثير، وهي تدل على اختلاط مفهوم النفس بمفهوم الجسم. ولكن ديكارت ميّز النفس من الجسم تمييزًا تامًّا، فأرجع أفعال النفس إلى الفكر، وأفعال الجسم إلى الامتداد والحركة.

3 يعتقد ديكارت كما يعتقد ارسطو وفلاسفة القرون الوسطى إن حرارة القلب أشد من حرارة سائر الأعضاء، وهذه النار أو الحرارة التي فيه توضح لنا حركته، وتفسر أيضًا جميع وظائف الجسم. قارن هذا الكلام بما قاله ابن طفيل في «حي بن يقظان» عن القلب، ص 40–50.

d'autre forme que celle du chaos, pourvu qu'ayant établi les lois de la nature, il lui prêtât son concours, pour agir ainsi qu'elle a de coutume, on peut croire, sans faire tort au miracle de la création, que par cela seul toutes les choses qui sont purement matérielles auraient pu, avec le temps, s'y rendre telles que nous les voyons à présent ; et leur nature est bien plus aisée à concevoir, lorsqu'on les voit naître peu à peu en cette sorte, que lorsqu'on ne les considère que toutes faites.

De la description des corps inanimés et des plantes, je passai à celle des animaux et particulièrement à celle des hommes[1]. Mais pour ce que je n'en avais pas encore assez de connaissance pour en parler du même style que du reste, c'est-à-dire en démontrant les effets par les causes, et faisant voir de quelles semences, et en quelle façon, la nature les doit produire, je me contentai de supposer que Dieu formât le corps d'un homme, entièrement semblable à l'un des nôtres, tant en la figure extérieure de ses membres qu'en la conformation intérieure de ses organes, sans le composer d'autre matière que de celle que j'avais décrite, et sans mettre en lui, au commencement, aucune âme raisonnable, ni aucune autre chose pour y servir d'âme végétante ou sensitive, sinon qu'il excitât en son cœur un de ces feux sans lumière, que j'avais déjà expliqués, et que je ne concevais point d'autre nature que celui qui échauffe le foin, lorsqu'on l'a renfermé avant qu'il fût sec, ou qui fait bouillir les vins nouveaux, lorsqu'on les laisse

1 Voir *Les traités de l'Homme et de la formation du fœtus*, 1664.

تختمر فوق الثفل من عصارتها. لأنني، لما بحثت عن الوظائف التي يمكن أن توجد تبعًا لذلك في هذا الجسم، وجدت فيها تمامًا جميع الوظائف التي يمكن أن تكون فينا، من دون أن نفكر فيها[1]، أي من دون أن يكون للنفس مشاركة فيها. وأعني بالنفس ذلك الجزء المتميّز عن الجسم، الذي قلنا عنه سابقًا أن طبيعته ليست سوى الفكر. إن هذه الوظائف كلها متشابهة ويمكن أن يقال أن الحيوان العديم النطق يشبهنا فيها. ولم أستطع من أجل هذا أن أجد فيها أي وظيفة من الوظائف التابعة للفكر، التي هي وحدها خاصة بنا من حيث نحن بشر، بينما وجدتها كلها بعد ذلك فيها، لما فرضت أن الله خلق نفسًا ناطقة، وعلقها بهذا الجسم على هيئة معينة وصفتها.

ولكني أريد أن أورد هنا ايضاح حركة القلب والشرايين، حتى يستطيع المرء أن يتبيّن كيف عالجت هذا الموضوع. ولما كانت هذه الحركة هي أولى الحركات التي تشاهد في الحيوان، وأعمّها[2]، كان من السهل بالقياس إليها أن يحكم المرء على ما يجب أن يراه في الحركات الأخرى. وأريد من الذين لم يتعمقوا في علم التشريح أن يبذلوا جهدهم قبل قراءة هذا المقال في أن يشرَّحَ أمامهم قلب حيوان كبير ذي رئتين، وأن يطّلعوا على التجويفين الموجودين فيه[3]، حتى تقلّ الصعوبة في فهم ما سأقوله في هذا الموضوع. لأن قلب الحيوان يكاد يشبه قلب الإنسان من جميع الوجوه. فأول هذين التجويفين التجويف الموجود في جهة القلب اليمنى، ويتصل به انبوبان واسعان جدًّا هما الوريد الأجوف الذي هو الوعاء الرئيسي للدم، وهو مثل

1 لا يمكن أن تكون هذه الوظائف من عمل النفس، لأن النفس إذا قامت بعمل فكرت فيه. وهذه الوظائف خالية من الفكر، فليس للنفس فيها عمل. والإنسان يشبه الحيوان في جميع هذه الوظائف، ولا يختلف عنه إلاّ بقوة الفكر.

2 ذلك لأن جميع الحركات والوظائف الأخرى تابعة لحركة القلب.

3 هما البطين الأيمن والبطين الأيسر.

cuver sur la râpe. Car, examinant les fonctions qui pouvaient en suite de cela être en ce corps, j'y trouvais exactement toutes celles qui peuvent être en nous sans que nous y pensions, ni par conséquent que notre âme, c'est-à-dire, cette partie distincte du corps dont il a été dit ci-dessus que la nature n'est que de penser, y contribue, et qui sont toutes les mêmes en quoi on peut dire que les animaux sans raison nous ressemblent : sans que j'y en pusse pour cela trouver aucune de celles qui, étant dépendantes de la pensée, sont les seules qui nous appartiennent en tant qu'hommes, au lieu que je les y trouvais toutes par après, ayant supposé que Dieu créât une âme raisonnable, et qu'il la joignît à ce corps en certaine façon que je décrivais.

Mais, afin qu'on puisse voir en quelle sorte j'y traitais cette matière, je veux mettre ici l'explication du mouvement du cœur et des artères, qui étant le premier et le plus général qu'on observe dans les animaux, on jugera facilement de lui ce qu'on doit penser de tous les autres. Et afin qu'on ait moins de difficulté à entendre ce que j'en dirai, je voudrais que ceux qui ne sont point versés dans l'anatomie prissent la peine, avant que de lire ceci, de faire couper devant eux le cœur de quelque grand animal qui ait des poumons, car il est en tous assez semblable à celui de l'homme, et qu'ils se fissent montrer les deux chambres ou concavités qui y sont. Premièrement, celle qui est dans son côté droit, à laquelle répondent deux tuyaux fort larges, à savoir la veine cave, qui est le principal réceptacle du sang, et comme le tronc de l'arbre dont toutes les autres veines du

ساق الشجرة، وكل أوردة الجسم الأخرى فروع له؛ ثم الوريد الشرياني[1] الذي سُمّي كذلك خطأ، لأنه في الحقيقة شريان يبدأ من القلب، ثم ينقسم بعد خروجه منه إلى فروع كثيرة تنتشر في كل مكان من الرئتين. والتجويف الثاني هو التجويف الموجود في جهة القلب اليسرى، ويتصل به على الوجه نفسه انبوبان في اتساع الأنبوبين السابقين أو أكثر، وهما الشريان الوريدي[2] الذي سمي كذلك أيضًا خطأ لأنه ليس إلاّ وريدًا ينشأ عن الرئتين، حيث ينقسم إلى فروع كثيرة مشتبكة بفروع الوريد الشرياني، وبفروع المجرى الذي يسمى بقصبة الرئة، وهي التي يدخل منها هواء التنفس؛ ثم الشريان الكبير[3] الذي يخرج من القلب ويرسل فروعه إلى الجسم كله. وأودّ أيضًا لو يُعْنى باطلاع هؤلاء الناس على الصمامات الصغيرة الإحدى عشرة، التي تفتح الفوهات الأربع الموجودة في هذين التجويفين، وتغلقها كأنها أبواب صغيرة. وهي ثلاث في مدخل الوريد الأجوف، مرتبة ترتيبًا خاصًّا، بحيث لا تستطيع البتة أن تمنع الدم الذي يحتويه هذا الوريد من أن ينصبّ في التجويف الأيمن للقلب، ولكنها مع ذلك تمنعه تمامًا من الخروج منه؛ وثلاث في مدخل الوريد الشرياني، وهي ذات ترتيب مضاد لترتيب الأولى، تسمح للدم الموجود في هذا التجويف بأن ينتقل إلى الرئتين، ولكنها لا تسمح للدم الذي في الرئتين بأن يعود إليه؛ وكذلك اثنتان أخريان في مدخل الشريان الوريدي، تسمحان للدم بالانصباب من الرئتين في التجويف الأيسر للقلب، ولكنهما تمنعان رجوعه؛ وثلاث في مدخل الشريان الكبير، وهي تسمح للدم بالخروج من القلب، ولكنها تمنعه من الرجوع إليه. ولا حاجة إلى البحث عن سبب آخر لتوضيح عدد هذه الصمامات غير قولنا أن فوهة

1 La veine artérieuse، وهو ما يسمى بالشريان الرئوي: L'artère pulmonaire.

2 L'artère veineuse، وهو ما يسمى بالوريد الرئوي.

3 La grande artère، وهو الأبهر L'artère aorte.

corps sont les branches, et la veine artérieuse, qui a été ainsi mal nommée, pour ce que c'est en effet une artère, laquelle, prenant son origine du cœur, se divise, après en être sortie, en plusieurs branches qui se vont répandre partout dans les poumons. Puis, celle qui est dans son côté gauche, à laquelle répondent en même façon deux tuyaux, qui sont autant ou plus larges que les précédents, à savoir l'artère veineuse, qui a été aussi mal nommée, à cause qu'elle n'est autre chose qu'une veine, laquelle vient des poumons, où elle est divisée en plusieurs branches, entrelacées avec celles de la veine artérieuse, et celles de ce conduit qu'on nomme le sifflet, par où entre l'air de la respiration ; et la grande artère, qui, sortant du cœur, envoie ses branches par tout le corps. Je voudrais aussi qu'on leur montrât soigneusement les onze petites peaux, qui, comme autant de petites portes, ouvrent et ferment les quatre ouvertures qui sont en ces deux concavités, à savoir, trois à l'entrée de la veine cave, où elles sont tellement disposées, qu'elles ne peuvent aucunement empêcher que le sang qu'elle contient ne coule dans la concavité droite du cœur, et toutefois empêchent exactement qu'il n'en puisse sortir ; trois à l'entrée de la veine artérieuse, qui, étant disposées tout au contraire, permettent bien au sang, qui est dans cette concavité, de passer dans les poumons, mais non pas à celui qui est dans les poumons d'y retourner ; et ainsi deux autres à l'entrée de l'artère veineuse, qui laissent couler le sang des poumons vers la concavité gauche du cœur, mais s'opposent à son retour ; et trois à l'entrée de la grande artère, qui lui permettent de sortir du cœur, mais l'empêchent d'y retourner. Et il n'est point besoin de chercher d'autre raison du nombre de ces peaux, sinon que l'ouverture de

الشريان الوريدي بيضية الشكل بسبب المكان التي هي فيه، فيمكن اذن إحكام إغلاقها بصمامتين، على حين أن الفوهات الأخرى مستديرة، فيمكن اذن إحكام إغلاقها بثلاث. ثم أنني أريد أن يُلفت نظر هؤلاء إلى أن الشريان الكبير، والوريد الشرياني، هما أصلب وامتن تركيبًا من الشريان الوريدي والوريد الأجوف، وان هذين الأخيرين يتسعان قبل دخولهما القلب، ويؤلفان فيه شبه كيسين، يسميان بأذَينتي القلب، وهما مركبتان من لحم شبيه بلحمه. وأريد أيضًا أن يلاحظوا أن حرارة القلب أعظم دائمًا من حرارة أي مكان آخر في الجسم، وأنه إذا دخلت قطرة من الدم في تجويفي القلب، فإن هذه الحرارة قادرة على أن تبسطها، وتمددها، كما يحدث على العموم في جميع السوائل عندما نتركها تتساقط قطرة قطرة في وعاء شديد الحرارة.

وبعد فإنني لست بحاجة إلى أن أقول شيئًا آخر لتوضيح حركة القلب إلاّ أن تجويفَيه، إذا كانا غير ممتلئين بالدم، سال الدم بالضرورة من الوريد الأجوف إلى التجويف الأيمن، ومن الشريان الوريدي إلى التجويف الأيسر؛ لأن هذين الوعائين يكونان دائمًا ممتلئين بالدم، ولأن فوهاتهما المطلّة على القلب لا يمكنها أن تكون إذ ذاك مسدودة. ولكن عندما يدخل القلبَ قطرتان من الدم كلّ واحدة منهما في أحد تجويفيه، فإن هاتين القطرتين، اللتين لا يمكن أن تكونا إلا كبيرتين جدًّا، لاتساع الفوهتين اللتين تدخلان منهما، ولامتلاء الأوعية التي تنصبان منها، تتخلخلان وتتمددان بتأثير الحرارة التي تقابلهما هناك، فينبسط القلب كله بواسطتهما، وتدفعان الأبواب الخمسة الصغيرة عند مدخلي الوعائين، اللذين جاءتا منهما، ثم تغلقانها، فتمنعان بذلك نزول الدم بكثرة إلى القلب. ثم إن هاتين القطرتين تستمران على التخلخل شيئًا فشيئًا، فتدفعان الأبواب الستة الأخرى، عند مدخلي الوعائين الآخرين، اللذين تخرجان منهما، ثم تفتحانها. فتمدّدان بهذه الواسطة جميع فروع الوريد الشرياني، والشريان الكبير، في اللحظة

l'artère veineuse, étant en ovale à cause du lieu où elle se rencontre, peut être commodément fermée avec deux, au lieu que les autres, étant rondes, le peuvent mieux être avec trois. De plus, je voudrais qu'on leur fît considérer que la grande artère et la veine artérieuse sont d'une composition beaucoup plus dure et plus ferme que ne sont l'artère veineuse et la veine cave, et que ces deux dernières s'élargissent avant d'entrer dans le cœur, et y font comme deux bourses, nommées les oreilles du cœur, qui sont composées d'une chair semblable à la sienne ; et qu'il y a toujours plus de chaleur dans le cœur qu'en aucun autre endroit du corps ; et, enfin, que cette chaleur est capable de faire que, s'il entre quelque goutte de sang en ses concavités, elle s'enfle promptement et se dilate, ainsi que font généralement toutes les liqueurs, lorsqu'on les laisse tomber goutte à goutte en quelque vaisseau qui est fort chaud.

Car, après cela, je n'ai besoin de dire autre chose pour expliquer le mouvement du cœur, sinon que, lorsque ses concavités ne sont pas pleines de sang, il y en coule nécessairement de la veine cave dans la droite, et de l'artère veineuse dans la gauche ; d'autant que ces deux vaisseaux en sont toujours pleins, et que leurs ouvertures, qui regardent vers le cœur, ne peuvent alors être bouchées ; mais que, sitôt qu'il est entré ainsi deux gouttes de sang, une en chacune de ses concavités, ces gouttes, qui ne peuvent être que fort grosses, à cause que les ouvertures par où elles entrent sont fort larges, et les vaisseaux d'où elles viennent fort pleins de sang, se raréfient et se dilatent, à cause de la chaleur qu'elles y trouvent, au moyen de quoi, faisant enfler tout le cœur, elles poussent et ferment les cinq petites portes qui sont aux

التي تمدّدان فيها القلب تقريبًا. ثم ان القلب سرعان ما ينقبض بعد ذلك، كما ينقبض أيضًا هـذان الشريانان، لأن الـدم الـذي دخلهما يبرد فيهما، فتغلق أبوابهما الستة الصغيرة، وتنتفح الأبواب الخمسة في الوريد الأجوف، والشريان الوريدي، فتسمح بمرور قطرتين أخريين من الدم، تمدّدان القلب والشرايين من جديد، كما مدّدتها القطرتان السابقتان. ولما كان الدم الذي يدخل القلب على هذا الوجه، يمر بهذين الكيسين اللذين يسميان بأذَينتيه، نشأ عن ذلك أن حركتهما تكون مضادة لحركته، وانهما ينقبضان عند انبساطه. ومن أجل أن لا يتهوّر أولئك الذين لم يعرفوا قوة البراهين الرياضية، ولـم يتعودوا التفريق بين الحجج الصحيحة والحجج الشبيهة بالحقيقة، فيتورطون في إنكار ما وصفت دون امتحانه، اردت أن ألفت نظرهم إلى أن هـذه الحركة التي وصفتها تنشأ بالضرورة عن مجرّد وضع الأعضاء، التي يمكن رؤيتها في القلب بالعين، وعن الحرارة، التي يمكن لمسها فيه بالأصابع، وعن طبيعة الدم، التي يمكن معرفتها بالتجربة، وذلك كما تنشأ حركة الساعة عن الوضع والشكل والقوة الخاصة بلوالبها ودواليبها.

ولكن إذا سئلت كيف لا ينضب دم الأوردة، وهو ينصب دائمًا على هذا الوجه في القلب، وكيف لا تمتلئ به الشرايين كل الامتلاء، ما دام كل ما يمر بالقلب ينتهي إليها، لم أجد حاجة إلى أن أجيب عن هذا السؤال بأكثر مما كتبه طبيب إنكليزي[1] جدير بأن يمدح لحله هـذه المعضلة، ولكونه أول من قال أن في نهايات الشرايين مساربَ صغيرة كثيرة، يدخل بواسطتها الدم الذي تتلقاه من القلب في الفروع الصغيرة للأوردة، ثم يعود منها مجددًا إلى القلب بحيث لا يكون جريانه إلاّ دورانًا مستمرًّا. وقد أثبتَ

1 هو ويليم هارفي (William Harvey) الطبيب الانكليزي المشهور، ولد عام 1578 وتوفي عام 1658. ونشر كتابه (Exercitation anatomic de motu cordis et sanguinis in animalibus, Francfort, 1628) عام 1628. ويظهر أن ديكارت قرأ هذا الكتاب بعد نشره بقليل، وهو يمدح هارفي لكشفه دورة الدم، ولكنه يجد في تعليله لحركة القلب خطأً.

entrées des deux vaisseaux d'où elles viennent, empêchant ainsi qu'il ne descende davantage de sang dans le cœur ; et continuant à se raréfier de plus en plus, elles poussent et ouvrent les six autres petites portes qui sont aux entrées des deux autres vaisseaux par où elles sortent, faisant enfler par ce moyen toutes les branches de la veine artérieuse et de la grande artère, quasi au même instant que le cœur, lequel, incontinent après, se désenfle, comme font aussi ces artères, à cause que le sang qui y est entré s'y refroidit, et leurs six petites portes se referment, et les cinq de la veine cave et de l'artère veineuse se rouvrent, et donnent passage à deux autres gouttes de sang, qui font derechef enfler le cœur et les artères, tout de même que les précédentes ; et pour ce que le sang, qui entre ainsi dans le cœur, passe par ces deux bourses qu'on nomme ses oreilles, de là vient que leur mouvement est contraire au sien, et qu'elles se désenflent, lorsqu'il s'enfle. Au reste, afin que ceux qui ne connaissent pas la force des démonstrations mathématiques, et ne sont pas accoutumés à distinguer les vraies raisons des vraisemblables, ne se hasardent pas de nier ceci sans l'examiner, je les veux avertir que ce mouvement, que je viens d'expliquer, suit aussi nécessairement de la seule disposition des organes qu'on peut voir à l'œil dans le cœur, et de la chaleur qu'on y peut sentir avec les doigts, et de la nature du sang qu'on peut connaître par expérience, que fait celui d'un horloge, de la force, de la situation et de la figure de ses contrepoids et de ses roues.

Mais si on demande comment le sang des veines ne s'épuise point, en coulant ainsi continuellement dans le cœur, et comment les artères n'en sont point trop remplies, puisque tout celui qui

ذلك أحسن إثبات بالتجربة العادية التي يقوم بها الجراحيون، وهي أن يربطوا الذراع برفق فوق المحل الذي يفتحون منه الوريد، فيجعلون الدم يخرج منه بغزارة أكثر مما لو لم يربطوه، في حين أنهم لو ربطوه من أسفل بين اليد والفتحة، أو لو ربطوه ربطًا شديدًا جدًّا لحدث عكس ذلك تمامًا. لأنه من الواضح أن الرباط المشدود برفقٍ يستطيع أن يمنع الدم الموجود من قبل من الذراع من الرجوع إلى القلب بواسطة الأوردة، ولكنه لا يحول من أجل ذلك دون مجيئه مجددًا من القلب بواسطة الشرايين، لأن الشرايين موضوعة تحت الأوردة، ولأن ضغطها أقل سهولة لصلابة أغلفتها، ولأن الدم الآتي من القلب أميل إلى المرور بواسطتها إلى اليد منه إلى العودة من اليد إلى القلب بواسطة الاوردة. ولما كان هذا الدم يخرج من الذراع بطريق الفتحة التي هي في أحد الأوردة، كان من الضروري أن يكون هناك تحت الرباط، أي في نهايات الذراع، مسارب يستطيع الدم أن يجيء بواسطتها من الشرايين[1]. ومن الأدلة الجيدة التي جاء بها هذا الطبيب للبرهان على دوران الدم قوله أن هناك صمامات صغيرة موضوعة في أماكن مختلفة على طول الأوردة تسمح للدم بالعودة من الأطراف إلى القلب، ولكنها لا تسمح له أبدًا بالانتقال من وسط الجسم إلى الأطراف[2]. وهو يثبت ذلك أيضًا بتجربة تبيّن أن الدم الذي في الجسم يستطيع كله أن يخرج منه في قليل من الزمان بطريق شريان واحد مقطوع، وإن كان مربوطًا بإحكام في جهة قريبة جدًّا من القلب، ومقطوعًا فيما بين القلب والرباط على وجه لا يترك مجالًا للتوهّم إن الدم الذي يخرج منه يأتي من جهة أخرى غير القلب.

ولكن هناك اشياء أخرى كثيرة تشهد بأن ما قلته هو السبب الحقيقي في حركة الدم هذه. مثال ذلك، أولًا، إن الفرق الذي نلاحظه بين الدم الذي

1 يلخص ديكارت هنا ما ذكره هارفي في كتابه De motu cordis, ch.XI.

2 إن هذا الدليل مستمد مما ذكره هارفي في الفصل الثالث عشر من كتابه.

passe par le cœur s'y va rendre, je n'ai pas besoin d'y répondre autre chose que ce qui a déjà été écrit par un médecin d'Angleterre, auquel il faut donner le louange d'avoir rompu la glace en cet endroit, et d'être le premier qui a enseigné qu'il y a plusieurs petits passages aux extrémités des artères, par où le sang qu'elles reçoivent du cœur entre dans les petites branches des veines d'où il se va rendre derechef vers le cœur, en sorte que son cours n'est autre chose qu'une circulation perpétuelle. Ce qu'il prouve fort bien, par l'expérience ordinaire des chirurgiens, qui ayant lié le bras médiocrement fort, au-dessus de l'endroit où ils ouvrent la veine, font que le sang en sort plus abondamment que s'ils ne l'avaient point lié. Et il arriverait tout le contraire, s'ils le liaient au-dessous, entre la main et l'ouverture, ou bien qu'ils le liassent très fort au-dessus. Car il est manifeste que le lien médiocrement serré, pouvant empêcher que le sang qui est déjà dans le bras ne retourne vers le cœur par les veines, n'empêche pas pour cela qu'il n'y en vienne toujours de nouveau par les artères, à cause qu'elles sont situées au-dessous des veines, et que leurs peaux, étant plus dures, sont moins aisées à presser, et aussi que le sang qui vient du cœur tend avec plus de force à passer par elles vers la main, qu'il ne fait à retourner de là vers le cœur par les veines. Et, puisque ce sang sort du bras par l'ouverture qui est en l'une des veines, il doit nécessairement y avoir quelques passages au-dessous du lien, c'est-à-dire vers les extrémités du bras, par où il y puisse venir des artères. Il prouve aussi fort bien ce qu'il dit du cours du sang, par certaines petites peaux, qui sont tellement disposées en divers lieux le long des veines, qu'elles ne lui permettent point d'y

يخرج من الأوردة، والدم الذي يخرج من الشرايين لا يمكن أن ينشأ إلاّ عن تخلخل الدم، وتقطّره عند مروره بالقلب، بحيث يصبح، بعد خروجه منه مباشرة، أي عند وجوده في الشرايين، ألطف، وأكثر حياة، وأقوى حرارة، منه قُبَيل دخوله القلب، أي عند وجوده في الأوردة. وإذا انتبه المرء لذلك وجد أن هذا الفرق لا يظهر جيدًا إلاّ بالقرب من القلب، لا في أبعد الأماكن عنه. ثم إن صلابة الأغلفة التي يتألف منها الوريد الشرياني والشريان الكبير تدل دلالة كافية على أن الدم يضغطها بقوة أشد من القوة التي يضغط بها الاوردة. ثم لماذا كان التجويف الأيسر للقلب والشريان الكبير أضخم وأوسع من التجويف الأيمن والوريد الشرياني؟ ليس لهذا من سبب إلاّ أن دم الوريد الشرياني، لما كان لم يذهب إلى غير الرئتين منذ مروره بالقلب، كان لذلك ألطف، وأكثر، وأسهل تخلخلًا من الدم الذي يأتي مباشرة من الوريد الأجوف[1]. وأنّى للأطباء أن يستنبطوا شيئًا عند جسهم النبض إذا كانوا لا يعرفون أن الدم يستطيع، تبعًا لتغيير طبيعته، أن يتخلخل بتأثير حرارة القلب، تخلخلًا أقل قوة، وأشد سرعة، أو أضعف من ذي قبل؟ وإذا بحث المرء عن كيفية سريان هذه الحرارة إلى الأعضاء الأخرى، أفلا يجب عليه أن يعترف بأن ذلك إنما يتم بواسطة الدم، الذي يسخن في القلب، عند مروره به، وينتشر منه إلى أنحاء الجسم كلها؟ وينتج من ذلك أنك إذا نزعت الدم من بعض أقسام الجسم، أزلت بالوسيلة نفسها حرارته. وهب القلب كان حارًّا كحديد مستعر، فإنه، إذا لم يرسل إلى الأرجل والأيدي دمًا جديدًا باستمرار، لم يكف لتدفئتها هذه التدفئة[2]. ثم أننا لنعرف من ذلك أيضًا أن وظيفة التنفس الحقيقية هي استحضار الكفاية من الهواء النقي إلى الرئة، كي يستطيع الدم الذي يجيء إليها من التجويف الأيمن للقلب،

---

1 يورد ديكارت في هذا النص اعتراضاته على هارفي.

2 إن جميع الأدلة السابقة تثبت أن حرارة القلب هي السبب الوحيد في حركة الدم، أما الأدلة التالية فتثبت أن حرارة القلب تعلل جميع وظائف الحيوان من هضم وتنفس وتغذية.

passer du milieu du corps vers les extrémités, mais seulement de retourner des extrémités vers le cœur, et, de plus, par l'expérience qui montre que tout celui qui est dans le corps en peut sortir en fort peu de temps par une seule artère, lorsqu'elle est coupée, encore même qu'elle fût étroitement liée fort proche du cœur, et coupée, entre lui et le lien, en sorte qu'on n'eût aucun sujet d'imaginer que le sang qui en sortirait vînt d'ailleurs.

Mais il y a plusieurs autres choses qui témoignent que la vraie cause de ce mouvement du sang est celle que j'ai dite. Comme, premièrement, la différence qu'on remarque entre celui qui sort des veines et celui qui sort des artères, ne peut procéder que de ce qu'étant raréfié, et comme distillé, en passant par le cœur, il est plus subtil et plus vif et plus chaud incontinent après en être sorti, c'est-à-dire, étant dans les artères, qu'il n'est un peu devant que d'y entrer, c'est-à-dire, étant dans les veines. Et, si on y prend garde, on trouvera que cette différence ne paraît bien que vers le cœur, et non point tant aux lieux qui en sont les plus éloignés. Puis la dureté des peaux, dont la veine artérieuse et la grande artère sont composées, montre assez que le sang bat contre elles avec plus de force que contre les veines. Et pourquoi la concavité gauche du cœur et la grande artère seraient-elles plus amples et plus larges que la concavité droite et la veine artérieuse ? Si ce n'était que le sang de l'artère veineuse, n'ayant été que dans les poumons depuis qu'il a passé par le cœur, est plus subtil et se raréfie plus fort et plus aisément que celui qui vient immédiatement de la veine cave. Et qu'est-ce que les médecins peuvent deviner, en tâtant le pouls, s'ils ne savent que, selon que le sang change de nature,

حيث تخلخل واستحال إلى شبه بخار، أن يخثر ويستحيل ثانية إلى دم قبل أن يهبط من جديد إلى التجويف الأيسر. ولولا ذلك لما كان صالحًا لأن يكون غذاء للنار الموجودة فيه. ومما يؤيد هذا أنك ترى أن الحيوانات التي ليس لها رئات، ليس لها إلا تجويف واحد في القلب، وأن الأطفال الذين لا يستطيعون استعمال رئاتهم، هم أجنة في بطون أمهاتهم، لهم فتحة يسيل منها الدم من الوريد الأجوف إلى التجويف الأيسر للقلب، ومجرى ينتقل فيه الدم من الوريد الشرياني إلى الشريان الكبير من دون أن يمر بالرئة. ثم كيف يتم الهضم[1] في المعدة، إذا أن القلب لا يرسل إليها الحرارة بواسطة الشرايين، ولا يرسل إليها مع ذلك بعض أجزاء الدم الشديدة السيلان التي تعين على إذابة اللحوم التي وضعت فيها؟ وكذلك أليس من السهل علينا أن نعرف الفعل الذي يحيل عصارة هذه اللحوم إلى دم، إذا لاحظنا أنها تقطر وهي تجتاز القلب، ذاهبة عائدة أكثر من مائة مرة، أو مائتين في كل يوم تقريبًا؟ وهل يحتاج المرء لتوضيح التغذية، ولتعليل أخلاط الجسم المختلفة، إلى شيء آخر غير القول أن القوة التي تنقل الدم عند تخلخله من القلب إلى نهايات الشرايين تجعل بعض أجزائه تقف بين أجزاء الأعضاء التي تكون فيها، وتحل محل أجزاء أخرى تطردها منها، وأن بعض أجزاء الدم تذهب دون غيرها إلى بعض الأماكن، تبعًا لوضع المسام التي تصادفها، أو تبعًا لشكلها أو صغرها، على النحو الذي يستطيع كل انسان أن يراه في غرابيل مختلفة، متفاوتة الثقوب، صالحة لفصل الحبوب المختلفة بعضها عن بعض؟ وأخيرًا أن أكثر ما في ذلك له استحقاقًا للذكر هو تكوين الأرواح الحيوانية التي تشبه ريحًا لطيفةً جدًّا، أو لهيبًا جدّ نقي، وجدّ متأجج، يصعد باستمرار وبغزارة كبيرة من القلب إلى المخّ، ثم ينتقل منه إلى العضلات بواسطة الأعصاب، ويعطي الحركة لجميع الأعضاء. لأن أجزاء الدم، لما كانت هي الأصلح لتكوين هذه الأرواح، لكثرة حركتها ونفوذها، لم يكن هناك ضرورة

---

1 يستعمل ديكارت هنا كلمة (coction) ومعناها الهضم (digestion).

il peut être raréfié par la chaleur du cœur plus ou moins fort, et plus ou moins vite qu'auparavant ? Et si on examine comment cette chaleur se communique aux autres membres, ne faut-il pas avouer que c'est par le moyen du sang qui, passant par le cœur, s'y réchauffe, et se répand de là par tout le corps. D'où vient que, si on ôte le sang de quelque partie, on en ôte par même moyen la chaleur ; et encore que le cœur fût aussi ardent qu'un fer embrasé, il ne suffirait pas pour réchauffer les pieds et les mains tant qu'il fait, s'il n'y envoyait continuellement de nouveau sang. Puis aussi on connaît de là que le vrai usage de la respiration est d'apporter assez d'air frais dans le poumon pour faire que le sang, qui y vient de la concavité droite du cœur, où il a été raréfié et comme changé en vapeurs, s'y épaississe et convertisse en sang derechef, avant que de retomber dans la gauche, sans quoi il ne pourrait être propre à servir de nourriture au feu qui y est. Ce qui se confirme, parce qu'on voit que les animaux qui n'ont point de poumons n'ont aussi qu'une seule concavité dans le cœur, et que les enfants, qui n'en peuvent user pendant qu'ils sont renfermés au ventre de leurs mères, ont une ouverture par où il coule du sang de la veine cave en la concavité gauche du cœur, et un conduit par où il en vient de la veine artérieuse en la grande artère, sans passer par le poumon. Puis la coction, comment se ferait-elle en l'estomac, si le cœur n'y envoyait de la chaleur par les artères, et avec cela quelques-unes des plus coulantes parties du sang, qui aident à dissoudre les viandes qu'on y a mises ? Et l'action qui convertit le suc de ces viandes en sang n'est-elle pas aisée à connaître, si on considère qu'il se distille, en passant et repassant par le cœur, peut-être par

لتخيل علة أخرى تجعل هذه الأجزاء تتجه نحو المخّ، بدلًا من أي مكان آخر، غير قولنا أن الشرايين التي تحمل أجزاء الدم إلى المخّ هي التي تأتي من القلب في خطوط أكثر ما تكون استقامة، وأنه تبعًا لقواعد علم المكانيك التي هي قواعد الطبيعة نفسها، إذا مالت أشياء كثيرة معًا إلى الحركة نحو جهة واحدة لا تتسع لها كلها، كميل أجزاء الدم الخارجة من التجويف الأيسر للقلب إلى الاتجاه نحو المخ، فإن أقوى هذه الأجزاء يصدّ عن المخ أضعفَها وأقلّها حركة، ويذهب هو وحده بهذه الوسيلة إليه.

لقد شرحت جميع هذه الأشياء بتفصيل وافٍ في الكتاب الذي أشرت آنفًا إلى عزمي على نشره، وبينت فيه بعد ذلك ما ينبغي أن تكون عليه بنية أعصاب الجسم الإنساني، وعضلاته، حتى تجعل الأرواح الحيوانية التي في داخله قادرة على تحريك أعضائه، الرؤوس بعد قطعها بقليل فإنك تجدها تتحرك وتعضّ الأرض، مع أنها لم تعد حيّة. وبيّنت أيضًا ما هي التغيرات التي يجب أن تحصل في المخّ حتى تسبب اليقظة، والنوم، والأحلام؛ وكيف يستطيع الضوء، والأصوات، والروائح، والطعوم، والحرارة، وسائر صفات الأشياء الخارجية، أن تطبع عليه بتوسط الحواس صورًا مختلفة؛ وكيف يستطيع الجوع، والعطش، وسائر الانفعالات الباطنة[1]، أن تبعث إليه أيضًا بصورها. وبينت أيضًا ما الذي ينبغي اعتباره حسًّا مشتركًا[2] يقبل جميع

1 يعني بالانفعالات الباطنة: الفرح، والسرور، والغضب، إلخ...

2 الحس المشترك (Le sens commun) ومحله الغدة الصنوبرية الموجودة في وسط المخ، وهي التي تنتهي إليها صور الجزئيات المحسوسة، وتتأدى منها إلى النفس. قال الجرجاني في التعريفات: «الحس المشترك هو القوة التي ترتسم فيها صور الجزئيات المحسوسة. فالحواس الخمس الظاهرة كالجواسيس لها، فتطلع عليها النفس من ثمة فتدركها. ومحله مقدم التجويف الأول من الدماغ كأنها عين تتشعب منها خمسة أنهار». وقال أبو البقاء في كلياته: «الإحساس للحواس الظاهرة، كما أنّ الإدراك للحسّ المشترك أو العقل» وقد خلط ابن سينا بين قوة الحسّ المشترك وقوة فنطاسيا، فقال في النجاة: «فمن القوى المدركة الباطنة الحيوانية قوة فنطاسيا أي الحس المشترك، وهي قوة مرتبة في أول التجويف المقدم من الدماغ تقبل بذاتها جميع الصور المنطبعة في الحواس الخمس متأدية إليه منها» (النجاة، ص265، طبعة مصر، عام 1331هـ).

plus de cent ou deux cents fois chaque jour ? Et qu'a-t-on besoin d'autre chose, pour expliquer la nutrition, et la production des diverses humeurs qui sont dans le corps, sinon de dire que la force, dont le sang en se raréfiant passe du cœur vers les extrémités des artères, fait que quelques-unes de ses parties s'arrêtent entre celles des membres où elles se trouvent et y prennent la place de quelques autres qu'elles en chassent ; et que, selon la situation, ou la figure, ou la petitesse des pores qu'elles rencontrent, les unes se vont rendre en certains lieux plutôt que les autres, en même façon que chacun peut avoir vu divers cribles qui, étant diversement percés, servent à séparer divers grains les uns des autres ? Et enfin ce qu'il y a de plus remarquable en tout ceci, c'est la génération des esprits animaux, qui sont comme un vent très subtil, ou plutôt comme une flamme très pure et très vive qui, montant continuellement en grande abondance du cœur dans le cerveau, se va rendre de là par les nerfs dans les muscles, et donne le mouvement à tous les membres ; sans qu'il faille imaginer d'autre cause, qui fasse que les parties du sang qui, étant les plus agitées et les plus pénétrantes, sont les plus propres à composer ces esprits, se vont rendre plutôt vers ailleurs ; sinon que les artères, qui les y portent, sont celles qui viennent du cœur le plus en ligne droite de toutes, et que, selon les règles des mécaniques, qui sont les mêmes que celles de la nature, lorsque plusieurs choses tendent ensemble à se mouvoir vers un même côté, où il n'y a pas assez de place pour toutes, ainsi que les parties du sang qui sortent de la concavité gauche du cœur tendent vers le cerveau, les plus faibles et moins agitées en doivent

هذه الصور، وما المراد بالذاكرة التي تحفظها، وبالمتخيلة[1] التي تستطيع أن تغيّرها بطرق مختلفة، وأن تؤلف منها صورًا جديدة، فتوزع الأرواح الحيوانية بالوسيلة نفسها على العضلات، وتحرك أعضاء هذا الجسم على هيئات متباينة، وبحسب الأشياء التي تعرض لحواسه، والانفعالات الباطنة التي في داخله، بمقدار ما تستطيع أعضاؤنا أن تتحرك من دون أن تقودها الإرادة. ولن يبدو ذلك غريبًا لأولئك الذين يعلمون أن صناعة الإنسان استطاعت أن تنشئ كثيرًا من المتحركات بذاتها، أو الآلات المتحركة، من دون أن تستعمل في صنعها إلاّ القليل من القطع بالقياس إلى الكثرة العظيمة من العظام، والأعصاب، والشرايين، والأوردة، وجميع الأجزاء الأخرى الموجودة في جسم كل حيوان. وسيسوقهم علمهم إلى اعتبار هذا الجسم آلة صنعتها يد الله، فجاءت، إلى حد يجل عن المشابهة، أحسن نظامًا، وذات حركات أدعى إلى الإعجاب، من أي آلة يستطيع الناس اختراعها.

ولقد وقفت هنا خاصة لأبين أنه، إذا كان هناك آلات ميكانيكية لها أعضاء القرد وصورته، أو صورة أيّ حيوان آخر غير ناطق، فإنه لن يكون لنا أيّ وسيلة للتمييز بينها وبين طبيعة هذه الحيوانات في أي شيء؛ على حين أنه لو كان في هذه الآلات ما يشبه أجسامنا، ويقلد عمليًّا ما يمكن تقليده من أفعالنا، لكان لنا دائمًا وسيلتان جد يقينيتين لمعرفة أنها ليست من أجل ذلك كائنات انسانية حقيقية: فأول وسيلة هي أن هذه الآلات لا تستطيع أبدًا أن تتكلم، ولا أن تستعمل إشارات أخرى تؤلّفها، كما نفعل نحن

---

1 في الأصل: قوة فنطاسيا (fantasie)، وقد ترجمناها بالمتخيلة لأن المتخيلة كما قال الجرجاني في التعريفات: «هي القوة التي تتصرف في الصور المحسوسة والمعاني الجزئية المنتزعة منها، وتصرفها فيها، بالتركيب تارة، والتفصيل أخرى، مثل انسان ذي رأسين أو عديم الرأس، وهذه القوة إذا استعملها العقل سميت متخيلة». أما كلمة ذاكرة (mémoire) التي استعملها ديكارت هنا فهي ترادف كلمة خيال الدالة على القوة التي تحفظ ما يدركه الحس المشترك كلما التفت إليها، فهي إذن خزانة الحس المشترك، ومحلها مؤخر البطن الأول من الدماغ.

être détournées par le plus fortes, qui par ce moyen s'y vont rendre seules.

J'avais expliqué assez particulièrement toutes ces choses dans le traité que j'avais eu ci-devant dessein de publier. Et ensuite j'y avais montré quelle doit être la fabrique des nerfs et des muscles du corps humain, pour faire que les esprits animaux, étant dedans, aient la force de mouvoir ses membres, ainsi qu'on voit que les têtes, un peu après être coupées, se remuent encore, et mordent la terre, nonobstant qu'elles ne soient plus animés ; quels changements se doivent faire dans le cerveau, pour causer la veille, et le sommeil, et les songes ; comment la lumière, les sons, les odeurs, les goûts, la chaleur, et toutes les autres qualités des objets extérieurs y peuvent imprimer diverses idées par l'entremise des sens ; comment la faim, la soif, et les autres passions intérieures, y peuvent aussi envoyer les leurs ; ce qui doit y être pris pour le sens commun, où ces idées sont reçues, pour la mémoire, qui les conserve, et pour la fantaisie qui les peut diversement changer et en composer de nouvelles, et par même moyen, distribuant les esprits animaux dans les muscles, faire mouvoir les membres de ce corps en autant de diverses façons, et autant à propos des objets qui se présentent à ses sens, et des passions intérieures qui sont en lui, que les nôtres se puissent mouvoir, sans que la volonté les conduise. Ce qui ne semblera nullement étrange à ceux qui, sachant combien de divers *automates,* ou machines mouvantes, l'industrie des hommes peut faire, sans y employer que fort peut de pièces, à comparaison de la grande multitude des os, des muscles, des nerfs, des artères, des veines, et de toutes les autres parties qui sont dans le corps de

للتعبير عن أفكارنا؛ لأننا نستطيع أن نتصوّر آلةً صُنعت على هيئة مخصوصة، تنطق بكلمات، بل وتنطق ببعضها لمناسبة أفعال جسمانية تُحدث تغييرًا في أعضائها، كأن تُلمس في بعض المواضع فتسأل عمّا يراد أن يقال لها، وتلمس في موضع آخر فتصيح بأن ذلك يؤلمها، وما شابه ذلك. ولكننا لا نستطيع أن نتصوّر أنها تنوع ترتيب الكلام، لتجيبَ عن معنى كل ما يقال أمامها، كما يستطيع أغبى الناس أن يفعل ذلك. والوسيلة الثانية هي أن هذه الآلات، وأن فعلت أشياء كثيرة، كأيّ واحد منا، أو كأحسن مما يفعل، إلاّ أنها تقصر حتمًا في أشياء أخرى نتبيّن منها أنها لا تعمل بعلم، بل تعمل بحسب وضع أعضائها. وهذه الأعضاء محتاجة إذن إلى وضع خاص يوافق كل عمل جزئي على حدة، في حين أن العقل آلة كلية يمكن استخدامها في جميع الظروف. ومن ثم ينتج أنه من المحال عمليًّا[1] أن يكون في آلة ما من تنوّع الأعضاء ما يجعلها تعمل في جميع ظروف الحياة على نحو ما نعمل نحن بتأثير عقولنا.

ثم إنَّه يمكن بهاتين الوسيلتين أيضًا معرفة الفرق بين الإنسان والحيوان، إذ من الملاحظ انه ليس في الناس، ولا استثني البلهاء منهم، مَن هم من الغباوة والبلادة بحيث يعجزون عن ترتيب الألفاظ المختلفة بعضها مع بعض، وعن تأليف كلام منها يعبرون به عن أفكارهم، في حين أنه لا يوجد حيوان يستطيع أن يفعل ذلك مهما يكن كاملًا، وظروف نشأته مؤاتية. وهذا لا ينشأ عن نقص في أعضاء الحيوانات، لأنك تجد العقعق والببغاء[2] يستطيعان أن

1 ما كان محالاً عمليًّا لم يكن ممتنعًا فلسفيًّا، بل الإله القادر على كل شيء يستطيع أن يخلق آلات معقدة تعمل في جميع ظروف الحياة ما يعمله الإنسان، من دون أن تكون محتاجة إلى العقل.

2 لقد زعم مونتني أن الفرق بين أذكى الحيوانات وأغبى الناس أقل من الفرق بين أغبى الناس وأذكاهم. ولكن ديكارت يرى أن بين أغبى الناس وأذكى الحيوانات فرقًا جوهريًّا وهذا الفرق هو اللغة، وأن الحيوان ليس أقل عقلاً من الإنسان، وإنما هو آلة لا عقل لها البتة.

chaque animal, considéreront ce corps comme une machine, qui, ayant été faite des mains de Dieu, est incomparablement mieux ordonnée, et a en soi des mouvements plus admirables, qu'aucune de celles qui peuvent être inventées par les hommes.

Et je m'étais ici particulièrement arrêté à faire voir que, s'il y avait de telles machines, qui eussent les organes et la figure d'un singe, ou de quelque autre animal sans raison, nous n'aurions aucun moyen pour reconnaître qu'elles ne seraient pas en tout de même nature que ces animaux ; au lieu que, s'il y en avait qui eussent la ressemblance de nos corps et imitassent autant nos actions que moralement il serait possible, nous aurions toujours deux moyens très certains pour reconnaître qu'elles ne seraient point pour cela de vrais hommes. Dont le premier est que jamais elles ne pourraient user de paroles, ni d'autres signes en les composant comme nous faisons pour déclarer aux autres nos pensées. Car on peut bien concevoir qu'une machine soit tellement faite qu'elle profère des paroles, et même qu'elle en profère quelques-unes à propos des actions corporelles qui causeront quelque changement en ses organes, comme, si on la touche en quelque endroit, qu'elle demande ce qu'on lui veut dire ; si en un autre, qu'elle crie qu'on lui fait mal, et choses semblables ; mais non pas qu'elle les arrange diversement, pour répondre au sens de tout ce qui se dira en sa présence, ainsi que les hommes les plus hébétés peuvent faire. Et le second est que, bien qu'elles fissent plusieurs choses aussi bien, ou peut-être mieux qu'aucun de nous, elles manqueraient infailliblement en quelques autres, par lesquelles on découvrirait qu'elles n'agiraient pas par connaissance, mais seulement par

ينطقا ببعض الألفاظ مثلنا، ولكنك لا تجدهما قادرين مثلنا على الكلام، أعني كلامًا يشهد بأنهما يعيان ما يقولان، في حين أن الناس الذين ولدوا صمًّا بكمًا، وحرموا الأعضاء التي يستخدمها غيرهم للكلام، كحرمان الحيوانات أو أكثر، قد اعتادوا أن يخترعوا من تلقاء أنفسهم إشارات يفهمها من يجد الفرصة الكافية لتعلم لغتهم، لوجوده باستمرار معهم. وهذا لا يدل على أن الحيوان أقل عقلًا من الإنسان فَحَسبُ، بل يدل على انه لا عقل له البتّة، لأننا نرى أن معرفة الكلام لا تستلزم إلاّ القليل من العقل. ولما كان من الملاحظ أن بين أفراد النوع الواحد من الحيوان تباينًا كتباين أفراد الإنسان، وأن بعضها أيسر تدريبًا من بعض، كان من البعيد عن التصديق أن قردًا أو ببغاء من أكمل أفراد نوعه لا يساوي في ذلك أغبى طفل، أو على الأقل طفلًا مضطرب المخ، إلاّ إذا كانت نفس الحيوان من طبيعة مغايرة كل المغايرة لطبيعة نفوسنا[1]. فيجب علينا إذن أن لا نخلطَ بين الكلام والحركات الطبيعية، التي تدلّ على الانفعالات، والتي يمكن للآلات أن تقلدها، كما تقلدها الحيوانات، ولا أن نعتقد، مع بعض الأقدمين، أن الحيوانات تتكلم، وإن كنا لا نفهم لغتها[2]. لأنه لو كان ذلك صحيحًا لكان في استطاعتها أيضًا، ما دام لها كثير من الأعضاء المشابهة لأعضائنا، أن تُفْهِمَنا ما يختلج في صدورها كما تتفاهم وأبناء جنسها. ومما هو جدير بالملاحظة أيضًا اننا نرى كثيرًا من الحيوانات، وإن كانت تقوم بأعمالٍ تدل على الصنعة أكثر مما تدل عليها أعمالنا، إلاّ أننا نرى مع ذلك أن هذه الحيوانات نفسها لا تظهر شيئًا من الصنعة في

1 أي لو لم تكن طبيعة النفس الإنسانية مغايرة كل المغايرة لطبيعة النفس الحيوانية، لكان أذكى أفراد الحيوان مكافئًا في الذكاء لأغبى أفراد الإنسان.

2 رأي للوكرس (Lucrèce) وغيره من الأقدمين أخذ به مونتني؛ راجع مونتني، كتاب المحاولات Essais II, 12, éd. P. Villey, t.II, p.165-166.

la disposition de leurs organes. Car, au lieu que la raison est un instrument universel, qui peut servir en toutes sortes de rencontres, ces organes ont besoin de quelque particulière disposition pour chaque action particulière ; d'où vient qu'il est moralement impossible qu'il y en ait assez de divers en une machine pour la faire agir en toutes les occurrences de la vie, de même façon que notre raison nous fait agir.

Or, par ces deux mêmes moyens, on peut aussi connaître la différence qui est entre les hommes et les bêtes. Car c'est une chose bien remarquable, qu'il n'y a point d'hommes si hébétés et si stupides, sans en excepter même les insensés, qu'ils ne soient capables d'arranger ensemble diverses paroles, et d'en composer un discours par lequel ils fassent entendre leurs pensées ; et qu'au contraire, il n'y a point d'autre animal, tant parfait et tant heureusement né qu'il puisse être, qui fasse le semblable. Ce qui n'arrive pas de ce qu'ils ont faute d'organes, car on voit que les pies et les perroquets peuvent proférer des paroles ainsi que nous, et toutefois ne peuvent parler ainsi que nous, c'est-à-dire en témoignant qu'ils pensent ce qu'ils disent ; au lieu que les hommes qui, étant nés sourds et muets, sont privés des organes qui servent aux autres pour parler, autant ou plus que les bêtes, ont coutume d'inventer d'eux-mêmes quelques signes, par lesquels ils se font entendre à ceux qui, étant ordinairement avec eux, ont loisir d'apprendre leur langue. Et ceci ne témoigne pas seulement que les bêtes ont moins de raison que les hommes, mais qu'elles n'en ont point du tout. Car on voit qu'il n'en faut que fort peu pour savoir parler ; et d'autant qu'on remarque de l'inégalité entre

كثير من أعمالها الأخرى؛ فما يصنعه الحيوان خيرًا مما نصنع لا يدل إذن على أن له عقلًا. ولو صحَّ ذلك لكان له عقل أكثر من أيّ واحد منا، ولكان عمله أحسن من عملنا في كل شيء، ولكن هذه الأفعال تدل بالأحرى على خلوّ الحيوان من العقل، وعلى أن الطبيعة هي التي تتصرف فيه وفقًا لوضع أعضائه؛ كالساعة التي لم تركّب إلاّ من دواليب ولوالب، وتستطيع مع ذلك أن تحسب الساعات، وتقيس الزمان بأدق وأضبط مما نستطيع نحن، رغم ما لنا من فطانة ويقظة.

لقد وصفت النفس الناطقة بعد ذلك، وبيِّنت أنه لا يمكن البتة انتزاعها من قوة المادة، كما تنتزع الأمور الأخرى التي تكلمت عليها، وإنما يجب بصراحة أن تكون مخلوقة، وبيّنت أيضًا كيف أنه لا يكفي أن تكون مقيمة في جسم الإنسان، كما يقيم البحّار في سفينته[1]، لا عملٍ لها إلاّ تحريك الأعضاء، وإنما ينبغي لها أن تكون متصلةً بالجسم، ومتحدة به اتحادًا أوثق، حتى يكون لها عدا ذلك إحساسات متصلة، وانفعالات مشابهة لإحساساتنا وانفعالاتنا، فيتألف منها بذلك انسان حقيقي[2].

وختامًا لقد أسهبت هنا قليلًا في موضوع النفس، لشدّة خطورته، لأنني لم أجد بعد الكفر بالله - وهو ضلال أعتقد أنني دحضته دحضًا كافيًا - ضلالًا أشدَّ أبعادًا للنفوس الضعيفة عن طريق الفضيلة المستقيم من أن يتوهم الناس أن للبهائم نفوسًا من طبيعة نفوسنا، وأنه ليس لنا تبعًا لذلك

---

1 هذا التشبيه مقتبس من آرسطو (De anima II, i)، فالبحّار يوجه سفينته ويبقى مع ذلك مستقلاً عنها، كذلك النفس تستطيع أن توجه الجسم وتحركه، وتبقى مستقلة عنه.

2 الإنسان الحقيقي لا يتألف من النفس وحدها، ولا من الجسم وحده، وإنما يتألف من اتحادهما، وهو جوهر تام تتحد فيه النفس بالجسم، ولولا هذا الاتحاد لما أمكن تعليل حدوث الإحساسات والانفعالات. وديكارت يستعمل هنا كلمة (sentiments) للدلالة على الاحساسات (sensations)، وكلمة (appétits) للدلالة على الانفعالات أو الأهواء (passions).

les animaux d'une même espèce, aussi bien qu'entre les hommes, et que les uns sont plus aisés à dresser que les autres, il n'est pas croyable qu'un singe ou un perroquet, qui serait des plus parfaits de son espèce, n'égalât en cela un enfant des plus stupides, ou du moins un enfant qui aurait le cerveau troublé, si leur âme n'était d'une nature toute différente de la nôtre. Et on ne doit pas confondre les paroles avec les mouvements naturels, qui témoignent les passions et peuvent être imités par des machines aussi bien que par les animaux ; ni penser, comme quelques anciens, que les bêtes parlent, bien que nous n'entendions pas leur langage : car s'il était vrai, puisqu'elles ont plusieurs organes qui se rapportent aux nôtres, elles pourraient aussi bien se faire entendre à nous qu'à leurs semblables. C'est aussi une chose fort remarquable que, bien qu'il y ait plusieurs animaux qui témoignent plus d'industrie que nous en quelques-unes de leurs actions, on voit toutefois que les mêmes n'en témoignent point du tout en beaucoup d'autres : de façon que ce qu'ils font mieux que nous ne prouve pas qu'ils ont de l'esprit, car, à ce compte, ils en auraient plus qu'aucun de nous et feraient mieux en toute chose ; mais plutôt qu'ils n'en ont point, et que c'est la nature qui agit en eux, selon la disposition de leurs organes : ainsi qu'on voit qu'un horloge, qui n'est composé que de roues et de ressorts, peut compter les heures, et mesurer le temps, plus justement que nous avec toute notre prudence.

J'avais décrit, après cela, l'âme raisonnable, et fait voir qu'elle ne peut aucunement être tirée de la puissance de la matière, ainsi que les autres choses dont j'avais parlé, mais qu'elle doit expressément être créée ; et comment il ne suffit pas qu'elle soit

أن نخشى شيئًا، ولا أن نرتجي شيئًا بعد هذه الحياة الدنيا. مَثَلنا في ذلك مثل الذباب والنمل، في حين أننا إذا علمنا مبلغ اختلاف نفس الحيوان عن نفس الإنسان، أدركنا الأسباب التي تدل على أن نفوسنا من طبيعة مستقلة عن البدن كل الاستقلال، وأنها من أجل ذلك ليست عرضة للموت بموته. ولما كنا لا نجد أسبابًا غير الموت تبطل وجود النفس، كنا بالطبع أميل إلى الحكم بأنها خالدة[1].

1 أثبت ديكارت أن النفس مستقلة عن البدن، وأعتقد أن هذا الإثبات كاف للبرهان على إمكان بقائها بعد البدن. فالخلود إذن ممكن، إلاّ أنه لا يصبح ضروريًّا إلاّ إذا أقمنا البرهان على أن إرادة الله تستلزم البقاء بعد الموت.

logée dans le corps humain, ainsi qu'un pilote en son navire, sinon peut-être pour mouvoir ses membres, mais qu'il est besoin qu'elle soit jointe et unie plus étroitement avec lui pour avoir, outre cela, des sentiments et des appétits semblables aux nôtres, et ainsi composer un vrai homme. Au reste, je me suis ici un peu étendu sur le sujet de l'âme, à cause qu'il est des plus importants ; car, après l'erreur de ceux qui nient Dieu, laquelle je pense avoir ci-dessus assez réfutée, il n'y en a point qui éloigne plutôt les esprits faibles du droit chemin de la vertu, que d'imaginer que l'âme des bêtes soit de même nature que la nôtre, et que, par conséquent, nous n'avons rien à craindre, ni à espérer, après cette vie, non plus que les mouches et les fourmis ; au lieu que, lorsqu'on sait combien elles diffèrent, on comprend beaucoup mieux les raisons, qui prouvent que la nôtre est d'une nature entièrement indépendante du corps et, par conséquent, qu'elle n'est point sujette à mourir avec lui ; puis, d'autant qu'on ne voit point d'autres causes qui la détruisent, on est naturellement porté à juger de là qu'elle est immortelle.

القسم السادس
الأسباب التي حملته على الكتابة

مضت الآن ثلاثة أعوام[1] منذ وصلت إلى نهاية الرسالة التي تضمّنت كل هذه الأشياء، وأخذت في مراجعتها لأضعها بين يدي طبّاع، فإذا بي أعلم أن أشخاصًا، لا يسعني إلاّ امتثال أمرهم، ولهم على أعمالي سلطان لا يقلّ عما لعقلي من سلطان على أفكاري، قد استنكروا رأيًا في علم الطبيعة نشره بعضهم[2] قبل ذلك بقليل، وهو رأي لا أريد أن أقول اني أخذت به، بل أريد أن أقول أنني لم ألاحظ فيه، قبل استنكارهم إياه، ما يوهم بأنه مضرّ بالدين أو بالدولة، ولا ما يمنعني بالتالي من كتابته لو أن العقل أقنعني به. وهذا ما جعلني أخشى أن يكون في آرائي ما خُدعت به رغم ما كان لي من بالغ العناية بأن لا أدخل في اعتقادي آراء جديدة لم تقم عليها البراهين اليقينية، وأن لا أكتبَ عنها أبدًا ما يمكن أن يعود بالضرر على أي انسان. وهذا كان كافيًا لحملي على تغيير ما عزمت عليه من نشر هذه الآراء. فإنه وإن كانت الأسباب التي جعلتني أعزم أولًا على النشر قويةً جدًّا، فإن ميلي الذي بَغَّض إليَّ دائمًا مهنة تأليف الكتب، جعلني أجد من فوري أسبابًا أخرى كافيةً لإعفائي من هذا العمل. وهذه الأسباب في كلتا الحالتين[3] هي

---

1 أي في شهر تموز عام 1633.

2 أي رأي غاليله في دوران الأرض الذي نشره عام 1632، ودانته من أجله محكمة التفتيش. أما الأشخاص الذين لا يرى بدًّا من امتثال أمرهم فهم رجال الدين.

3 هنا نوعان من الأسباب: الأولى ايجابية جعلته يعزم على نشر آرائه، والثانية سلبية حملته على الإقلاع عن نشرها. وقد ذكر ديكارت الأسباب الأولى من قوله: «لم أكن قط كثير الاعتزاز» في الصفحة 194 إلى قوله: «ينتظر القيام بها فيما بعد» في الصفحة 202، وأورد الأسباب الثانية من قوله: «ولكن عرض لي منذ ذلك الحين» في الصفحة 202، إلى قوله: «ويمكن أن يظن أنني لا استحقه» في الصفحة 214.

SIXIÈME PARTIE

QUELLES RAISONS L'ONT FAIT ÉCRIRE

Or, il y a maintenant trois ans que j'étais parvenu à la fin du traité qui contient toutes ces choses, et que je commençais à le revoir, afin de le mettre entre les mains d'un imprimeur, lorsque j'appris que des personnes, à qui je défère et dont l'autorité ne peut guère moins sur mes actions que ma propre raison sur mes pensées, avaient désapprouvé une opinion de physique, publiée un peu auparavant par quelque autre, de laquelle je ne veux pas dire que je fusse, mais bien que je n'y avais rien remarqué, avant leur censure, que je pusse imaginer être préjudiciable ni à la religion ni à l'État, ni, par conséquent, qui m'eût empêché de l'écrire, si la raison me l'eût persuadée, et que cela me fit craindre qu'il ne s'en trouvât tout de même quelqu'une entre les miennes, en laquelle je me fusse mépris, nonobstant le grand soin que j'ai toujours eu de n'en point recevoir de nouvelles en ma créance, dont je n'eusse des démonstrations très certaines, et de n'en point écrire qui pussent tourner au désavantage de personne. Ce qui a été suffisant pour m'obliger à changer la résolution que j'avait eue de les publier. Car, encore que les raisons, pour lesquelles je l'avais prise auparavant, fussent très fortes, mon inclination, qui m'a toujours fait haïr le métier de faire des livres, m'en fit incontinent trouver assez d'autres pour m'en excuser. Et ces raisons de part et d'autre

من الخطورة بحيث لا يعود ذكرها هنا بالمنفعة عليَّ فحسبُ، بل قد يكون للجمهور أيضًا فائدة في معرفتها.

لم أكن قط كثير الاعتزاز بالأمور التي كانت تصدر عن نفسي. وما دمت لم أجنِ من ثمرات الطريقة التي استخدمتها غير اقتناعي في بعض معضلات العلوم النظرية، أو محاولتي تدبير أخلاقي وفقًا للأحكام التي علمتني إياها طريقتي، لم أعتقد قط أنني مضطر إلى أن أكتب عنها شيئًا. ذلك لأن كل انسان، فيما يتعلق بالأخلاق، يكثر من الإفصاح عن وجهة نظره فيها، بحيث لو ساغ لغير الذين نصبهم الله حكامًا على شعوبه، أو للذين وهبهم من النعمة والهمة ما يكفي لصيرورتهم أنبياء، أن يتناولوا بالتغيير شيئًا من الأخلاق لكان عدد المصلحين مساويًا لعدد العقول. ومع أنني كنت كثير الإعجاب بتأملاتي، فإنني كنت أعتقد أن لغيري من الناس أيضًا تأملات ربما كانوا أكثر إعجابًا بها. ولكنني لم أكد أحصل على بعض المبادئ العامة في علم الطبيعة، وألاحظ، وأنا أبدأ باختبارها في مختلف المعضلات الجزئية، مدى ما تستطيع أن تسوق إليه، ومبلغ اختلافها عن المبادئ التي استخدمت إلى الآن، حتى اعتقدت أنه ليس في وسعي أن أكتمها دون أن أخلّ اخلالًا كبيرًا بالقانون الذي يوجب علينا توفير الخير العام لجميع الناس على قدر استطاعتنا. لأن هذه المبادئ أبانت لي أنه يمكننا الوصول إلى معارف عظيمة النفع في الحياة، وأنه يمكننا أن نجد، بدلًا من هذه الفلسفة النظرية التي تعلم في المدارس، فلسفة عملية، إذ عرفنا بواسطتها ما للنار، والماء، والهواء، والكواكب، والسموات، وسائر الأجسام الأخرى التي تحيط بنا من قوة وأفعال، معرفةً متميزةً كما نعرف آلات صُنّاعنا، استطعنا أن نستعملها بالطريقة نفسها في جميع ما تصلح له من الأعمال، وأن نجعل أنفسنا بذلك سادة الطبيعة ومالكيها[1]. وليس الغرض

1 يظهر من هذا الكلام أن ديكارت قد استمد المثل الأعلى للعلم من فرنسيس بيكون.

sont telles, que non seulement j'ai ici quelque intérêt de les dire, mais peut-être aussi que le public en a de les savoir.

Je n'ai jamais fait beaucoup d'état des choses qui venaient de mon esprit, et pendant que je n'ai recueilli d'autres fruits de la méthode dont je me sers, sinon que je me suis satisfait, touchant quelques difficultés qui appartiennent aux sciences spéculatives, ou bien que j'ai tâché de régler mes mœurs par les raisons qu'elle m'enseignait, je n'ai point cru être obligé d'en rien écrire. Car, pour ce qui touche les mœurs, chacun abonde si fort en son sens, qu'il se pourrait trouver autant de réformateurs que de têtes, s'il était permis à d'autres qu'à ceux que Dieu a établis pour souverains sur ses peuples, ou bien auxquels il a donné assez de grâce et de zèle pour être prophètes, d'entreprendre d'y rien changer ; et bien que mes spéculations me plussent fort, j'ai cru que les autres en avaient aussi qui leur plaisaient peut-être davantage. Mais, sitôt que j'ai eu acquis quelques notions générales touchant la physique, et que, commençant à les éprouver en diverses difficultés particulières, j'ai remarqué jusques où elles peuvent conduire, et combien elles diffèrent des principes dont on s'est servi jusques à présent, j'ai cru que je ne pouvais les tenir cachées, sans pécher grandement contre la loi qui nous oblige à procurer, autant qu'il est en nous, le bien général de tous les hommes. Car elles m'ont fait voir qu'il est possible de parvenir à des connaissances qui soient fort utiles à la vie, et qu'au lieu de cette philosophie spéculative, qu'on enseigne dans les écoles, on en peut trouver une pratique, par laquelle connaissant la force et les actions du feu, de l'eau, de l'air, des astres, des cieux et de tous les autres corps qui nous environnent, aussi distinctement que nous connaissons les divers métiers de

من ذلك اختراع عدد لا نهاية له من الصنائع، التي تجعل المرء يتمتع من دون أي جهد بثمرات الأرض، وبجميع ما فيها من أسباب الراحة، وإنما الغرض الرئيسي منه أيضًا حفظ الصحة، التي هي بلا ريب الخير الأول، وأساس جميع الخيرات الأخرى في هذه الحياة. لأن النفس ذاتها تتعلق تعلقًا قويًا بالمزاج وبترتيب أعضاء البدن. فإذا كان من الممكن وجدان وسيلة تجعل الناس عامة أكثر حكمة ومهارة مما هم عليه الآن، فإني أعتقد أنه يجب البحث عنها في علم الطب[1]. وفي الحق أن في الطب من دون أن يكون غرضي من ذلك احتقار علم الطب، انه ما من إنسانٍ قط، حتى بين الذين يحترفونه، لا يقرّ بأن ما عُلم منه ليس شيئًا يذكر تقريبًا بالقياس إلى ما بقي غير معلوم، وأنه من المستطاع البرء من عدد لا نهاية له من الأمراض بدنية كانت أو نفسية، بل ومن ضعف الشيخوخة، إذا عُرفت أسبابها معرفة كافية، وعُرفت جميع الأدوية التي زودتنا بها الطبيعة[2]. ولما كنت قد عقدت النية على أن أنفق كل حياتي في البحث عن العلم الضروري، وكنت قد اهتديت إلى طريق بدا لي أن من شأن سالكه أن يجد حتمًا هذا العلم، إلاّ إذا عاقه عنه قصر الحياة ونقص التجارب، رأيت أنه ليس لهذين العائقين علاج أحسن من أن اطلع الجمهور بأمانة على القدر القليل الذي اهتديت إليه، وأن أدعو أرباب العقول الجيدة إلى السعي لتجاوز الحد الذي بَلَغتْه،

1 كان ديكارت يعتقد أن العلم إنما يقي الإنسان من الوقوع في المرض، ويصونه من ضعف الشيخوخة.

وقد أورد في كتاب الأهواء (Les passions de l'âme) أمثلة لتطبيق علم الطب تدل على أنه يمكن أيضًا بطريق العلم اصلاح أخلاق الناس.

2 كان ديكارت شديد الاهتمام بإطالة عمر الإنسان، وشاع في القرن السابع عشر أنه كان يريد أن يعمر خمس مائة سنة باتباع نظام موافق للطبيعة، ولكنه لما امتد به العمر أضاع الكثير من آماله، فعزى نفسه في أواخر أيامه بقوله أنه إذا عجز عن إبطال الموت، فهو قد نجح على الأقل في إبطال الخوف من الموت.

nos artisans, nous les pourrions employer en même façon à tous les usages auxquels ils sont propres, et ainsi nous rendre comme maîtres et possesseurs de la nature. Ce qui n'est pas seulement à désirer pour l'invention d'une infinité d'artifices, qui feraient qu'on jouirait, sans aucune peine, des fruits de la terre et de toutes les commodités qui s'y trouvent, mais principalement aussi pour la conservation de la santé, laquelle est sans doute le premier bien et le fondement de tous les autres biens de cette vie ; car même l'esprit dépend si fort du tempérament, et de la disposition des organes du corps que, s'il est possible de trouver quelque moyen qui rende communément les hommes plus sages et plus habiles qu'ils n'ont été jusques ici, je crois que c'est dans la médecine qu'on doit le chercher. Il est vrai que celle qui est maintenant en usage contient peu de choses dont l'utilité soit si remarquable ; mais, sans que j'aie aucun dessein de la mépriser, je m'assure qu'il n'y a personne, même de ceux qui en font profession, qui n'avoue que tout ce qu'on y sait n'est presque rien, à comparaison de ce qui reste à y savoir, et qu'on se pourrait exempter d'une infinité de maladies, tant du corps que de l'esprit, et même aussi peut-être de l'affaiblissement de la vieillesse, si on avait assez de connaissance de leurs causes, et de tous les remèdes dont la nature nous a pourvus. Or, ayant dessein d'employer toute ma vie à la recherche d'une science si nécessaire, et ayant rencontré un chemin qui me semble tel qu'on doit infailliblement la trouver, en le suivant, si ce n'est qu'on en soit empêché, ou par la brièveté de la vie, ou par le défaut des expériences, je jugeais qu'il n'y avait point de meilleur remède contre ces deux empêchements que de communiquer fidèlement au public tout le peu que j'aurais trouvé, et de convier les bons esprits à tâcher de passer plus outre,

باشتراكهم جميعًا، كلّ وفق ميله وعلى قدر استطاعته، في التجارب التي يجب القيام بها، واطلاعهم الجمهور أيضًا على جميع الأمور التي قد يُوَفَّقون لمعرفتها، حتى إذا ما بدأ اللاحقون من حيث انتهى السابقون، واتصلت أعمار الكثيرين وأعمالهم، وصلنا جميعًا إلى أبعد مما يستطيع الوصول إليه كل فرد وحده.

وقد لاحظت أيضًا، فيما يتعلق بالتجارب، إننا كلما كنا أكثر تقدمًا في المعرفة، كنا إلى التجارب أحوج، لأنه من الخير لنا بادئ بَدْءٍ أن لا نستخدم إلاّ التجارب التي تقع من تلقاء نفسها تحت حواسنا ولا نستطيع الجهل بها، شريطة أن نُعمل القليل من الفكر فيها، بدلًا من أن نبحث عن أندر التجارب وأصعبها[1]. والسبب في ذلك أن هذه التجارب النادرة كثيرًا ما تخدعنا حين لا نكون عالمين بعلَل التجارب المألوفة، وتكون الظروف المتعلقة بها خاصةً ودقيقةً إلى درجة تجعل ملاحظتها صعبة جدًّا. ولكن الترتيب الذي اتبعته في ذلك كان كما يلي: حاولت أولًا أن أجد على العموم المبادئ أو العلل الأولى لكل ما هو موجود، أو يمكن أن يوجد في العالم، من دون أن ألاحظ في سبيل ذلك غير الله وحده خالق هذا الوجود، ومن دون أن استخرج هذه المبادئ أو العلل إلاّ من بعض بذور الحقيقة الموجودة بالطبع في نفوسنا[2]. ثم اني بحثت بعد ذلك عن المعلولات الأولى المألوفة التي يمكن استنتاجها من هذه العلل. ويبدو لي أنني وجدت بذلك سماواتٍ، وكواكبَ، وأرضًا؛ ووجدت على الأرض ماءً، وهواءً، ونارًا، ومعادن وأشياء أخرى مشابهة لهذه، مما هو أكثر الأشياء شيوعًا، وأبسطها، وأسهلها بالتالي معرفةً. ثم اني لما أردت أن أهبط إلى

---

1 أي يجب البدء بإيضاح ما يسهل الكشف عنه من الحوادث قبل البحث عن أندر الحوادث وأصعبها تأويلاً.

2 هذه المبادئ الأولى هي الامتداد، والحركة، والكمال الإلهي.

en contribuant, chacun selon son inclination et son pouvoir, aux expériences qu'il faudrait faire, et communiquant aussi au public toutes les choses qu'ils apprendraient, afin que les derniers commençant où les précédents auraient achevé, et ainsi, joignant les vies et les travaux de plusieurs, nous allassions tous ensemble beaucoup plus loin que chacun en particulier ne saurait faire.

Même je remarquais, touchant les expériences, qu'elles sont d'autant plus nécessaires qu'on est plus avancé en connaissance. Car, pour le commencement, il vaut mieux ne se servir que de celles qui se présentent d'elles-mêmes à nos sens, et que nous ne saurions ignorer, pourvu que nous y fassions tant soit peu de réflexion, que d'en chercher de plus rares et étudiées : dont la raison est que ces plus rares trompent souvent, lorsqu'on ne sait pas encore les causes des plus communes, et que les circonstances dont elles dépendent sont quasi toujours si particulières et si petites, qu'il est très malaisé de les remarquer. Mais l'ordre que j'ai tenu en ceci a été tel. Premièrement, j'ai tâché de trouver en général les principes, ou premières causes, de tout ce qui est, ou qui peut être, dans le monde, sans rien considérer, pour cet effet, que Dieu seul, qui l'a créé, ni les tirer d'ailleurs que de certaines semences de vérités qui sont naturellement en nos âmes. Après cela, j'ai examiné quels étaient les premiers et plus ordinaires effets qu'on pouvait déduire de ces causes : et il me semble que, par là, j'ai trouvé des cieux, des astres, une terre, et même, sur la terre, de l'eau, de l'air, du feu, des minéraux, et quelques autres telles choses qui sont les plus communes de toutes et les plus simples, et par conséquent les plus aisées à connaître. Puis, lorsque j'ai voulu descendre à celles qui étaient plus particulières, il s'en est tant présenté à moi

أشياء أخص من الأولى، ظهر لي فيها من التنوع ما حملني على الاعتقاد أنه ليس في استطاعة العقل البشري أن يميّز بين صور الأجسام وأنواعها التي على الأرض، وبين ما لا يحصى عدده من الصور والأنواع الأخرى، التي كان في الإمكان وجودها عليها، لو أراد الله إحداثها، وانه ليس في استطاعتنا استخدامها لمصلحتنا، إلاّ إذا صعدنا إلى العلل بطريق المعلولات، واستخدمنا كثيرًا من التجارب الخاصة[1]. ولما أجلت فكري بعد ذلك في جميع الأشياء التي عُرضت لحواسي، اجترأت على القول أنني لم أجد فيها شيئًا لا أستطيع إيضاحه إيضاحًا كافيًا بالمبادئ التي اهتديت إليها. ولكن يجب عليّ أن أعترف أيضًا أن قوة الطبيعة هي من العظَم والاتساع، وأن هذه المبادئ هي من البساطة والعموم، بحيث أكاد لا أجد معلولًا جزئيًا لا أرى مباشرة أنه يمكن استنتاجه من هذه المبادئ بصور مختلفة، وأن أكبر صعوبة لديَّ هي في العادة أن أعرف بأية صورة من هذه الصور يتعلق هذا المعلول بتلك المبادئ[2]، لأنني لا أعرف لذلك من حيلة إلاّ البحث من جديد عن تجارب تختلف نتائجها باختلاف تفسيرها بإحدى هذه الصور أو بغيرها. على أنني قد بلغت الآن حدًّا تبيّنت فيه، كما يبدو لي، تبيّنًا كافيًا، أيّ طريق يجب عليَّ سلوكه للقيام بأكثر التجارب النافعة في هذا الشأن. ولكنني رأيت أيضًا أن هذه التجارب هي من الخطورة بحيث لا تستطيع يداي ولا موارد رزقي أن تكفي للقيام بها كلها، وان حصلت من الرزق على أكثر مما لدي بألف مرة. وعلى قدر ما سيتيسر لي منذ الآن القيام

1 الفيزياء الرياضية تستنتج استنتاجًا قبليًّا (a priori) من الهندسة ولكن الكائنات التي يمكن استنتاجها من الامتداد والحركة كثيرة لا يحصى عددها، فمنها ما هو ظاهر مباشرة ومنها ما هو خفي، ووظيفة التجربة عند ديكارت هي اظهار الحوادث الخفية التي يتمّ توضيحها بعد ذلك بطريق الاستنتاج.

2 إن الحادث يمكن أن يوضح مكانيكيًّا بصور مختلفة؛ وظيفة التجربة أيضًا، هي أن تبين لنا أي صورة من هذه الصور يجب ترجيحها على غيرها.

de diverses, que je n'ai pas cru qu'il fût possible à l'esprit humain de distinguer les formes ou espèces de corps qui sont sur la terre d'une infinité d'autres qui pourraient y être, si ç'eut été le vouloir de Dieu de les y mettre, ni, par conséquent, de les rapporter à notre usage, si ce n'est qu'on vienne au-devant des causes par les effets, et qu'on se serve de plusieurs expériences particulières. En suite de quoi, repassant mon esprit sur tous les objets qui s'étaient jamais présentés à mes sens, j'ose bien dire que je n'y ai remarqué aucun chose que je ne pusse assez commodément expliquer par les principes que j'avais trouvés. Mais il faut aussi que j'avoue que la puissance de la nature est si ample et si vaste, et que ces principes sont si simples et si généraux, que je ne remarque quasi plus aucun effet particulier, que d'abord je ne connaisse qu'il peut en être déduit en plusieurs diverses façons, et que ma plus grande difficulté est d'ordinaire de trouver en laquelle de ces façons il en dépend. Car à cela je ne sais point d'autre expédient, que de chercher derechef quelques expériences, qui soient telles, que leur événement ne soit pas le même, si c'est en l'une de ces façons qu'on doit l'expliquer, que si c'est en l'autre. Au reste, j'en suis maintenant là, que je vois, ce me semble, assez bien de quel biais on se doit prendre à faire la plupart de celles qui peuvent servir à cet effet ; mais je vois aussi qu'elles sont telles, et en si grand nombre, que ni mes mains, ni mon revenu, bien que j'en eusse mille fois plus que je n'en ai, ne sauraient suffire pour toutes ; en sorte que, selon que j'aurais désormais la commodité d'en faire plus ou moins, j'avancerai aussi plus ou moins en la connaissance de la nature. Ce que je me promettais de faire connaître, par le traité que j'avais écrit, et d'y montrer si clairement l'utilité que le public en peut recevoir, que j'obligerais tous ceux qui désirent

بالكثير أو بالقليل منها، سأتقدم كثيرًا أو قليلًا في معرفة الطبيعة. هذا ما كنت أعلل النفس بالتعريف به في الرسالة التي كتبتها، مشيرًا فيها بوضوح إلى النفع الذي يناله الجمهور من ذلك، وأهبت بجميع الذين هم على التحقيق فضلاء، لا بمظهرهم الكاذب، ولا بمجرد أقوالهم، أن يطلعوني على التجارب التي قاموا بها، ويعينوني في الوقت نفسه على البحث عن التجارب التي يُنتَظَر القيام بها فيما بعد[1].

ولكن عرض لي منذ ذلك الحين أسباب أخرى جعلتني أغير رأيي، وأتفكر في أنه يجب عليَّ في الحقيقة أن أثابر على كتابة جميع الأشياء التي ارتأيت أنها على شيء من الخطورة، على مقدار ما ينكشف لي من حقيقة فيها، وأن أعنى بكتابتها كما لو كنت أريد طبعها. وذلك حتى تتاح لي أكبر فرصة لإجادة النظر فيها، لأن المرء يدقق فيما يرى عرضَه على أنظار الناس أكثرَ مما يدقق في الشيء الذي لا يكتبه إلاّ لنفسه، وكثيرًا ما كانت الأشياء تبدو لي صحيحة عند البدء بتصورها، حتى إذا ما أردت كتابتها على الورق بدت لي باطلة. وإذا كنت قادرًا على أن لا أضيع أيّة فرصة لإفادة الجمهور، وكان لكتاباتي شيء من القيمة، فإن الذين سيطّلعون عليها بعد موتي قد يستطيعون استخدامها في ما فيه الخير. ولكن ينبغي لي أن لا أوافق على نشرها في حياتي، حتى لا يكون للاعتراضات والمجادلات التي قد تتعرض لها، ولا للشهرة التي قد تكسبني إياها، مهما يكن نوعها[2]، أية فرصة لإضاعة الوقت الذي صممت على استخدامه في تعليم نفسي. لأنه، وإن صح أنه يجب على كل انسان أن يوفر الخير للآخرين على قدر ما هو مُؤمَّل

1 هنا تنتهي الأسباب الإيجابية التي حملت ديكارت على نشر آرائه وتبتدئ الأسباب السلبية التي حملته على الكف عن نشرها.

2 في الأصل: telle quelle.

en général le bien des hommes, c'est-à-dire tous ceux qui sont en effet vertueux, et non point par faux semblant, ni seulement par opinion, tant à me communiquer celles qu'ils ont déjà faites, qu'à m'aider en la recherche de celles qui restent à faire.

Mais j'ai eu, depuis ce temps-là, d'autres raisons qui m'ont fait changer d'opinion, et penser que je devais véritablement continuer d'écrire toutes les choses que je jugerais de quelque importance, à mesure que j'en découvrirais la vérité, et y apporter le même soin que si je les voulais imprimer ; tant afin d'avoir d'autant plus d'occasion de les bien examiner, comme sans doute on regarde toujours de plus près à ce qu'on croit devoir être vu par plusieurs, qu'à ce qu'on ne fait que pour soi-même, et souvent les choses qui m'ont semblé vraies lorsque j'ai commencé à les concevoir, m'ont paru fausses lorsque je les ai voulu mettre sur le papier ; qu'afin de ne perdre aucune occasion de profiter au public, si j'en suis capable, et que, si mes écrits valent quelque chose, ceux qui les auront après ma mort en puissent user ainsi qu'il sera le plus à propos ; mais que je ne devais aucunement consentir qu'ils fussent publiés pendant ma vie, afin que ni les oppositions et controverses, auxquelles ils seraient peut-être sujets, ni même la réputation telle qu'elle, qu'ils me pourraient acquérir, ne me donnassent aucune occasion de perdre le temps que j'ai dessein d'employer à m'instruire. Car, bien qu'il soit vrai que chaque homme est obligé de procurer, autant qu'il est en lui, le bien des autres, et que c'est proprement ne valoir rien que de n'être utile à personne, toutefois il est vrai aussi que nos soins se doivent étendre plus loin que le temps présent, et qu'il est bon d'omettre les choses qui apporteraient peut-être quelque profit à ceux qui vivent, lorsque

منه، وأنه لا قيمة لمن لا ينفع الناس في شيء، إلاّ أنه من الحقّ أيضًا أن مشاغلنا[1] يجب أن تمتد إلى أبعد من الزمان الحاضر، وأنه يحسن بنا إهمال الأشياء التي قد تعود ببعض النفع على الأحياء، إذا كانت الغاية من هذا الإهمال القيام بأشياء أخرى تحقق نفعًا أعظم لأحفادنا. وإني لأريد حقًّا أن يعلم الناس بأن القليل الذي تعلمته حتى الآن ليس شيئًا يذكر بالنسبة إلى ما أجهله، ولست بيائس من تعلمه. ويكاد يكون مثل الذين يكشفون شيئًا فشيئًا عن الحقيقة في العلوم كمثل الذين يكون تعبُهم في تحصيل المكاسب الكبيرة عندما يصيرون أغنياء أقلّ من تعبهم في تحصيل اليسير منها وهم فقراء. وربما أمكن أيضًا تشبيههم برؤساء الجيوش، الذن تزداد قواهم في العادة بازدياد انتصاراتهم، والذين يحتاجون في حفظ جيوشهم بعد خسارة المعركة إلى حذق أعظم[2] من الحذق الذي يحتاجون إليه في فتح المدن والأقاليم بعد الانتصار. وفي الحق أن محاولة التغلب على جميع الصعوبات والأخطاء، التي تمنعنا من الوصول إلى معرفة الحقيقة، تشبه خوض المعركة، وأن الأخذ برأي فاسد يتعلق بمسألة عامة وهامة يشبه خسارة المعركة. وإذا ما قبل المرء رأيًا فاسدًا احتاج في العودة إلى الحالة التي كان عليها من قبل إلى حذق أعظم من الحذق الذي يحتاج إليه في تقدم عظيم يحرزه بالاعتماد على مبادئ وثيقة. أما أنا فإني، إذا كنت قد اهتديت من قبل في العلوم إلى بعض الحقائق (وأرجو أن تكون الأمور التي يحتوي عليها هذا الكتاب[3] باعثة على الحكم بأني اهتديت إلى بعضها)، لأستطيع أن أقول أن هذه الحقائق ليست سوى توابع ولواحق لخمس

1 في الأصل: nos soins.

2 في الأصل: plus de conduite؛ وقد ترجمناه كما ترى.

3 أي علم انكسار الأشعة، وعلم الأنواء، وعلم الهندسة.

c'est à dessein d'en faire d'autres qui en apportent davantage à nos neveux. Comme, en effet, je veux bien qu'on sache que le peu que j'ai appris jusqu'ici n'est presque rien, à comparaison de ce que j'ignore, et que je ne désespère pas de pouvoir apprendre ; car c'est quasi le même de ceux qui découvrent peu à peu la vérité dans les sciences, que de ceux qui, commençant à devenir riches, ont moins de peine à faire de grandes acquisitions, qu'ils n'ont eu auparavant, étant plus pauvres, à en faire de beaucoup moindres. Ou bien on peut les comparer aux chefs d'armée, dont les forces ont coutume de croître à proportion de leurs victoires, et qui ont besoin de plus de conduite, pour se maintenir après la perte d'une bataille, qu'ils n'ont, après l'avoir gagnée, à prendre des villes et des provinces. Car c'est véritablement donner des batailles, que de tâcher à vaincre toutes les difficultés et les erreurs qui nous empêchent de parvenir à la connaissance de la vérité, et c'est en perdre une, que de recevoir quelque fausse opinion touchant une matière un peu générale et importante ; il faut, après, beaucoup plus d'adresse, pour se remetire au même état qu'on était qu'on était auparavant, qu'il ne faut à faire de grands progrès, lorsqu'on a déjà des principes qui sont assurés. Pour moi, si j'ai ci-devant trouvé quelques vérités dans les sciences (et j'espère que les choses qui sont contenues en ce volume feront juger que j'en ai trouvé quelques-unes), je puis dire que ce ne sont que des suites et des dépendances de cinq ou six principales difficultés que j'ai surmontées, et que je compte pour autant de batailles où j'ai eu l'heur de mon côté. Même je ne craindrai pas de dire que je pense n'avoir plus besoin d'en gagner que deux ou trois autres semblables pour venir entièrement à bout de mes desseins ; et que mon âge n'est point si avancé que, selon le cours ordinaire de

معضلات رئيسية أو لستّ تخطّيتها، وهي بمثابة معارك كان الحظ فيها إلى جانبي[1]. ولن أخشى أن أقول أني أرى أن الوصول إلى نهاية مقاصدي لا يحتاج إلاّ إلى ربح معركتين أو ثلاث مثلها. ولست من التقدم في السن[2] بحيث لا أستطيع، وفقًا لما هو مألوف من سير الطبيعة، أن أجد متسعًا كافيًا من الوقت لتحقيق هذه الغاية. ولكنني أعتقد أنه ينبغي لي أن لا أضيع ما بقي من الوقت على قدر ما لي من الأمل في القدرة على حسن استخدامه. ولو نشرت أصول طبيعياتي لَهيَّأَ لي ذلك بلا ريب كثيرًا من الفرص لإضاعة الوقت، لأنها، وإن كانت كلها تقريبًا من البداهة بحيث لا يحتاج المرء للتصديق بها إلاّ إلى فهمها، وحيث لا يوجد فيها أصل اعتقد أنني عاجز عن البرهان عليه[3]، فإنه من المحال مع ذلك أن تجيء هذه الأصول مطابقةً لمختلف آراء الناس. وأنا أتوقع أنَّ الاعتراضات التي ستنشأ عنها قد تصرفني عن متابعة أعمالي.

وقد يقال أن هذه الاعتراضات قد تكون نافعة، لأنها أمَّا أن تُعرّفني بأخطائي، وأمَّا أن تبعث الآخرين على التعمق فيما قد يكون في مبادئي من حق، وإذا كان الكثيرون يستطيعون أن يروا ما لا يراه إنسان واحد، فإن ابتداءهم منذ الآن باستخدام أصول طبيعياتي سيعينني على الإفادة من اختراعاتهم. ولكن بالرغم من اعترافي بأنني كثير التعرض للخطأ، وإنني أكاد لا أطمئنّ أبدًا إلى الأفكار الأول التي ترد عليَّ، فإن اختباري للاعتراضات التي يمكن أن توجّه إليَّ يمنعني من أن أؤمل أي نفع منها، لأنني كثيرًا ما خبرت من قَبلُ أحكام الذين كنت أحسبهم أصدقاء، وأحكام الذين

1 انظر إلى هذا الأسلوب، إنه يدل على أن صاحبه جندي نبيل، يقاتل في ميدان الأفكار، لا فضولي مدّع بما ليس فيه.

2 كان ديكارت إذ ذاك في الحادية والأربعين من سنّه.

3 البرهان على هذه الأصول هو استنتاجها من مبادئ ما بعد الطبيعة.

la nature, je ne puisse encore avoir assez de loisir pour cet effet. Mais je crois être d'autant plus obligé à ménager le temps qui me reste, que j'ai plus d'espérance de le pouvoir bien employer ; et j'aurais sans doute plusieurs occasions de le perdre, si je publiais les fondements de ma physique. Car, encore qu'ils soient presque tous si évidents, qu'il ne faut que les entendre pour les croire, et qu'il n'y en ait aucun, dont je ne pense pouvoir donner des démonstrations, toutefois, à cause qu'il est impossible qu'ils soient accordants avec toutes les diverses opinions des autres hommes, je prévois que je serais souvent diverti par les oppositions qu'ils feraient naître.

On peut dire que ces oppositions seraient utiles, tant afin de me faire connaître mes fautes, qu'afin que, si j'avais quelque chose de bon, les autres en eussent par ce moyen plus d'intelligence, et, comme plusieurs peuvent plus voir qu'un homme seul, que commençant dès maintenant à s'en servir, ils m'aidassent aussi de leurs inventions. Mais, encore que je me reconnaisse extrêmement sujet à faillir, et que je ne me fie quasi jamais aux premières pensées qui me viennent, toutefois l'expérience que j'ai des objections qu'on me peut faire m'empêche d'en espérer aucun profit : car j'ai déjà souvent éprouvé les jugements, tant de ceux que j'ai tenus pour mes amis, que de quelques autres à qui je pensais être indifférent, et même aussi de quelques-uns dont je savais que la malignité et l'envie tâcheraient assez à découvrir ce que l'affection cacherait à mes amis ; mais il est rarement arrivé qu'on m'ait objecté quelque chose que je n'eusse point du tout prévue, si ce n'est qu'elle fût fort éloignée de mon sujet ; en sorte que je n'ai quasi jamais rencontré aucun censeur de mes opinions, qui

كنت أرى أنهم لا يبالون بي، بل وأحكام الذين كنت أعرف أن خبثهم وحسدهم يحملانهم على إظهار ما ستره الحب عن أصدقائي، وقلما اعترض أحدهم عليَّ بشيء لم أتوقعه البتّة، اللهمَّ إلاّ إذا كان هذا الشيء بعيدًا جدًّا عن موضوعي. وكذلك لم أجد قطّ ناقدًا لآرائي إلاّ كان أقلَّ مني تدقيقًا وانضمامًا. ولم أرَ قطّ حقيقةً مجهولة كُشِفت من قبل بواسطة المجادلات التي تثار في المدارس. لأن كل مجادل يعمل، وهو يحاول الانتصار في مجادلته، على تعزيز الحقائق الظنّية، أكثر مما يعمل على وزن حجج المناظرين وتمحيصها. ومن تعاطى مهنة المحاماة ببراعة زمانًا طويلًا لم يكن لذلك السبب فيما بعد من أحسن القضاة.

أما الفائدة التي سينالها الآخرون من الاطلاع على أفكاري، فإنها لن تكون كبيرة جدًّا، ما دمت لم أتقدم بعد فيها تقدمًا كبيرًا يغنيني عن إضافة أشياء كثيرة عليها قبل وضعها موضع العمل. وأعتقد أنني أستطيع أن أقول، دون غرور، أنه إذا كان هناك رجل قادر على ذلك، فأنا أحق بأن أكون هذا الرجل من أي انسان آخر، لا لأنه لا يمكن أن يكون في العالم اذهان أفضل بكثير من ذهني، بل لأن المرء إذا أخذ الشيء عن غيره لا يستطيع أن يجيد تصوّره ويدّعيه كما لو اخترعه بنفسه. والدليل على صحة ذلك في هذا الموضوع إنني كثيرًا ما أوضحت بعض آرائي لأولي العقول الجيدة، فبدا لي، وأنا أكلمهم، انهم فهموها فهمًا تام التميّز، ولكنني لاحظت مع ذلك أنهم كانوا، إذا أعادوا القول فيها، يُبدّلونها في الأغلب بعض التبديل، بحيث كنت لا أستطيع أن أعترف بأنها آرائي. ويسرّني لهذه المناسبة أن أرجو أحفادنا أن لا يصدّقوا ما سينسب إليَّ من الأمور إذا كنت لم أذعها بنفسي. وما كنت لأعجب أبدًا لهذا الشطط في القول المنسوب إلى الفلاسفة الأقدمين الذين لم نعثر على كتبهم، ولا أرى من أجل ذلك أن أفكارهم كانت مخالفة للحق كثيرًا، لعلمي بأنهم كانوا أعقل أهل زمانهم،

ne me semblât ou moins rigoureux, ou moins équitable que moi-même. Et je n'a jamais remarqué non plus que, par le moyen des disputes qui se pratiquent dans les écoles, on ait découvert aucune vérité qu'on ignorât auparavant ; car, pendant que chacun tâche de vaincre, on s'exerce bien plus à faire valoir la vraisemblance, qu'à peser les raisons de part et d'autre ; et ceux qui ont été longtemps bons avocats ne sont pour cela, par après, meilleurs juges.

Pour l'utilité que les autres recevraient de la communication de mes pensées, elle ne pourrait aussi être fort grande, d'autant que je ne les ai point encore conduites si loin, qu'il ne soit besoin d'y ajouter beaucoup de choses avant que de les appliquer à l'usage. Et je pense pouvoir dire, sans vanité, que, s'il y a quelqu'un qui en soit capable, ce doit être plutôt moi qu'aucun autre : non pas qu'il ne puisse y avoir au monde plusieurs esprits incomparablement meilleurs que le mien ; mais pour ce qu'on ne saurait si bien concevoir une chose, et la rendre sienne, lorsqu'on l'apprend de quelque autre, que lorsqu'on l'invente soi-même. Ce qui est si véritable, en cette matière, que, bien que j'aie souvent expliqué quelques-unes de mes opinions à des personnes de très bon esprit, et qui, pendant que je leur parlais, semblaient les entendre fort distinctement, toutefois, lorsqu'ils les ont redites, j'ai remarqué qu'ils les ont changées presque toujours en telle sorte que je ne les pouvais plus avouer pour miennes. A l'occasion de quoi je suis bien aise de prier ici nos neveux de ne croire jamais que les choses qu'on leur dira viennent de moi, lorsque je ne les aurai point moi-même divulguées. Et je ne m'étonne aucunement des extravagances qu'on attribue à tous ces anciens philosophes, dont nous n'avons point les écrits, ni ne juge pas, pour cela, que leurs pensées aient

ولكنني أرى أن أفكارهم التي نقلت إلينا لم تخلُ من التحريف[1]. وأنك لترى أيضًا أنه قلما اتفق لأحد أتباعهم أن فاقهم في شيء. وأنا متيقن أن أشد أتباع آرسطو حماسة الآن، يعدون أنفسهم سعداء لو أن معرفتهم بالطبيعة كانت كمعرفته، وإن كان من شرط هذه المعرفة أن لا تتجاوز الحدّ الذي وقف عنده. إنهم أشبه شيء باللبلاب[2] الذي لا يستطيع أن يرتفع أبدًا إلى ما فوق الأشجار التي تحمله، والذي كثيرًا ما يهبط بعد بلوغه ذراها. لأنه يبدو لي أيضًا أن هؤلاء يهبطون، أي أنهم يمسون، بوجهٍ ما، أقل علمًا مما لو استنكفوا عن الدراسة. وهم، لعدم اقتناعهم بمعرفة ما هو موضح بطريقة معقولة عند المؤلف، يريدون فوق ذلك أن يجدوا عنده حلاًّ لمعضلات كثيرة لا يقول فيها شيئًا، وربما كانت لم تخطر بباله قط. ومع ذلك فإن طريقتهم في التفلسف توافق كثيرًا أصحاب العقول الضعيفة، لأن غموض المميزات والمبادئ التي يستخدمونها تجعلهم قادرين على الكلام في جميع الأشياء بجرأة كأنهم يعرفونها، وعلى تأييد كل ما يقولونه فيها ضدّ أشدّ الناس دقة وحذقًا، من دون أن يكون للمرء وسيلة في إقناعهم أنهم على خطأ. فهم بذلك يشبهون في نظري رجلًا أعمى أراد أن يقاتل بصيرًا من دون أن يعرض نفسه للخسارة، فجاء به إلى قعر كهف جدّ مظلم. وأستطيع أن أقول أن لهؤلاء مصلحة في استنكافي عن نشر مبادئ الفلسفة التي أخذت بها[3]، لأن هذه المبادئ، لما كانت على ما هي عليه من قوة البساطة وشدّة الوضوح، كان نشري لها أشبه شيء بفتح النوافذ، لإدخال النور منها في الكهف الذي هبطوا إليه للتقاتل. وكذلك ليس هناك من سبب يحمل أصحاب الأذهان الجيدة على أن يتمنّوا معرفة هذه المبادئ، لأنهم

---

1 يشير هنا إلى ديموقريطس الذي قال بالأجزاء الفَرِدة.

2 في الأصل: le lierre وهو نبات في عروقه جذور صغيرة قاسية تعلق بالصخر وبجذوع الأشجار.

3 هذا تهديد لأتباع آرسطو، لأن ديكارت يعتقد أن مجرد نشر آرائه سيهدم فلسفتهم.

été fort déraisonnables, vu qu'ils étaient des meilleurs esprits de leurs temps, mais seulement qu'on nous les a mal rapportées. Comme on voit aussi que presque jamais il n'est arrivé qu'aucun de leurs sectateurs les ait surpassés ; et je m'assure que les plus passionnés de ceux qui suivent maintenant Aristote se croiraient heureux, s'ils avaient autant de connaissance de la nature qu'il en a eu, encore même que ce fût à condition qu'ils n'en auraient jamais davantage. Ils sont comme le lierre, qui ne tend point à monter plus haut que les arbres qui le soutiennent, et même souvent qui redescend, après qu'il est parvenu jusqu'à leur faîte ; car il me semble aussi que ceux-là redescendent, c'est-à-dire se rendent en quelque façon moins savants que s'ils s'abstenaient d'étudier, lesquels, non contents de savoir tout ce qui est intelligiblement expliqué dans leur auteur, veulent, outre cela, y trouver la solution de plusieurs difficultés, dont il ne dit rien et auxquelles il n'a peut-être jamais pensé. Toutefois, leur façon de philosopher st fort commode, pour ceux qui n'ont que des esprits fort médiocres ; car l'obscurité des distinctions et des principes dont ils se servent est cause qu'ils peuvent parler de toutes choses aussi hardiment que s'ils les savaient, en soutenir tout ce qu'ils en disent contre les plus subtils et les plus habiles, sans qu'on ait moyen de les convaincre. En quoi ils me semblent pareils à un aveugle qui, pour se battre sans désavantage contre un qui voit, l'aurait fait venir dans le fond de quelque cave fort obscure ; et je puis dire que ceux-ci ont intérêt que je m'abstienne de publier les principes de la philosophie dont je me sers, car étant très simples et très évidents, comme ils sont, je ferais quasi le même, en les publiant, que si j'ouvrais quelques fenêtres, et faisais entrer du jour dans cette cave, où ils sont descendus pour se battre. Mais même les

إذا أرادوا أن يعرفوا الكلام في كل شيء، وأن يشتهروا بأنهم علماء، فإنه من الأيسر لهم أن يصلوا إلى ذلك بالاقتناع بالحقائق الظنية، التي يمكنهم أن يجدوها دون عناء في جميع المسائل، بدلًا من أن يبحثوا عن الحقيقة التي لا تنكشف في بعض المسائل إلاّ شيئًا فشيئًا، والتي تدعو المرء عند البحث في المسائل الأخرى إلى الاعتراف الصريح بجهله بها. وإذا كانوا يفضلون معرفة القليل من الحقائق على غرور التظاهر بمعرفة كل شيء، وهذه المعرفة هي الأفضل بلا ريب، وكانوا يريدون أن يهدفوا إلى مطلب شبيه بمطلبي، فإنهم لا يحتاجون من أجل ذلك إلى أن أقول لهم أكثر مما قلته آنفًا في هذا المقال. لأنهم إذا كانوا قادرين على أن يتقدموا أكثر مما تقدمت، فإنهم يكونون بالأولى أقدر على أن يهتدوا بأنفسهم إلى كل ما أعتقد أنني كشفته[1]. ولما كنت لم أبحث شيئًا قط إلاّ بترتيب، كنت على يقين أن ما بقي عليّ استكشافه هو بنفسه أصعب وأخفى مما استطعت قبل الآن أن أهتدي إليه، وربما كان سرورهم بتعلمه مني أقل بكثير من سرورهم بتعلمه بأنفسهم. أضف إلى ذلك أن العادة التي سيكتسبونها من بحثهم أولًا عن الأشياء السهلة، وتدرجهم في الانتقال قليلًا قليلًا إلى أشياء أصعب منها، سيكونان أنفع لهم من كل ما يستطيعه تَعْليمي. وكذلك فإنه من الثابت عندي أنني لو لقّنت، وأنا يافع، جميع الحقائق التي بحثت منذ ذلك الحين عن براهينها، ولم أكابد أي عناء في تعلمها، لما تعلمت قط شيئًا غيرها، ولما اكتسبت ما أعتقد أنني امتلكته من الاعتياد والسهولة في كشف الجديد من الحقائق دائمًا، على قدر ما أبذله من الجهد في البحث عنها. وبكلمة واحدة، إذا كان في العالم عمل لا يمكن أن يتمّه إلاّ الشخص الذي بدأ به، فإن ذلك العمل هو الذي أنا جاهد فيه.

---

1 يتعمد ديكارت اخفاء بعض الحقائق التي كشفها، ويتكلم عنها أحيانًا في كثير من الغموض، وذلك لكي لا يدعيها بعض العلماء لأنفسهم.

meilleurs esprits n'ont pas occasion de souhaiter de les connaître : car, s'ils veulent savoir parler de toutes choses et acquérir la réputation d'être doctes, ils y parviendront plus aisément en se contentant de la vraisemblance, qui peut être trouvée sans grande peine en toutes sortes de matières, qu'en cherchant la vérité, qui ne se découvre que peu à peu en quelques-unes, et qui, lorsqu'il est question de parler des autres, oblige à confesser franchement qu'on les ignore. Que s'ils préfèrent la connaissance de quelque peu de vérités à la vanité de paraître n'ignorer rien, comme sans doute elle est bien préférable, et qu'ils veuillent suivre un dessein semblable au mien, ils n'ont pas besoin, pour cela, que je leur dise rien davantage que ce que j'ai déjà dit en ce discours. Car, s'ils sont capables de passer plus outre que je n'ai fait, ils le seront aussi, à plus forte raison, de trouver d'eux-mêmes tout ce que je pense avoir trouvé. D'autant que, n'ayant jamais rien examiné que par ordre, il est certain que ce qui me reste encore à découvrir est de soi plus difficile et plus caché que ce que j'ai pu ci-devant rencontrer, et ils auraient bien moins de plaisir à l'apprendre de moi que d'eux-mêmes ; outre que l'habitude qu'ils acquerront, en cherchant premièrement des choses faciles, et passant peu à peu par degrés à d'autres plus difficiles, leur servira plus que toutes mes instructions ne sauraient faire. Comme, pour moi, je me persuade que, si on m'eût enseigné, dès ma jeunesse, toutes les vérités dont j'ai cherché depuis les démonstrations, et que je n'eusse eu aucune peine à les apprendre, je n'en aurais peut-être jamais su aucunes autres, et du moins que jamais je n'aurais acquis l'habitude et la facilité, que je pense avoir, d'en trouver toujours de nouvelles, à mesure que je m'applique à les chercher. Et en un mot, s'il y a au monde quelque ouvrage qui ne puisse être si bien achevé par

نعم أن جهد رجل واحد لا يكفي للقيام بجميع التجارب التي تنفع في هذا السبيل. ولكن هذا الرجل لا يستطيع أيضًا أن يستخدم يدًا غير يده استخدامًا نافعًا في ذلك، اللهمّ إلاّ إذا كانت هذه الأيدي التي يستخدمها أيدي صُنّاع، أو أناس آخرين مثلهم ممن يستطيع أن يدفع لهم أجرًا، فيدفعهم أمل الربح، وهو وسيلة فعّالة جدًّا، إلى احكام جميع الأشياء التي أمرهم بصنعها. لأن من شأن المتطوّعين، الذين يندبون أنفسهم لمعاونته بدافع التطلع أو الرغبة في العلم، أن يعدوا بأكثر مما يفعلون[1]، وأن يقترحوا خططًا جميلة لا تحقق واحدة منها قط الغرض المطلوب؛ ومن المؤكّد فوق ذلك أنهم يريدون أن يجزوا علىعملهم بأن تُوضَّح لهم بعض المعضلات، أو أن يكافأوا عليه بالثناء والمحادثات الباطلة، وكل زمان تستغرقه هذه الامور، وإن قلّ، فهو ضائع[2]. وأما التجارب التي قام بها الآخرون من قبل، فإنّهم، وإن أرادوا اطلاعه عليها، إلاّ أنهم لا يطلعونه أبدًا على شيء مما يسمونه اسرارًا. وأكثر هذه التجارب يتألف من ظروف كثيرة، أو من عناصر لا طائل تحتها، بحيث تعوقه عن تحصيل ما فيها من حقيقة. وقد يجدها كلها فوق ذلك سيئة الشرح، بل قد تكون باطلة جدًّا، لأن الذين قاموا بها تكلفوا أن يجعلوا ظواهرها موافقة لمبادئهم، ولو فرضنا أن فيها تجارب نافعة له، لما كافأت الزمن الذي يجب عليه أنفاقه في اختيارها. وعلى ذلك، فإنه، إذا كان في العالم رجل نعلم يقينًا أنه قادر على كشف أعظم الأشياء وأنفعها للناس، وكان الناس لهذا السبب يبذلون جهدهم بجميع الوسائل لإعانته على بلوغ نهاية قصده، فإني لا أرى أنهم يستطيعون أن يفعلوا شيئًا في سبيله، غير مده بنفقات التجارب التي يحتاج إليها، والحؤول بعد ذلك بينه

---

1 في الأصل: Ils ont pour l'ordinaire plus de promesses que d'effet.

2 في الأصل: Qui ne lui sauraient coûter si peu de son temps qu'il n'y perdît.

aucun autre que par le même qui l'a commencé, c'est celui auquel je travaille.

Il est vrai que, pour ce qui est des expériences qui peuvent y servir, un homme seul ne saurait suffire à les faire toutes ; mais il n'y saurait aussi employer utilement d'autres mains que les siennes, sinon celles des artisans, ou telles gens qu'il pourrait payer, et à qui l'espérance du gain, qui est un moyen très efficace, ferait faire exactement toutes les choses qu'il leur prescrirait. Car, pour les volontaires, qui, par curiosité ou désir d'apprendre, s'offriraient peut-être de lui aider, outre qu'ils ont pour l'ordinaire plus de promesses que d'effet, et qu'ils ne font que de belles propositions dont aucune jamais ne réussit, ils voudraient infailliblement être payés par l'explication de quelques difficultés, ou du moins par des compliments et des entretiens inutiles, qui ne lui sauraient coûter si peu de son temps qu'il n'y perdît. Et pour les expériences que les autres ont déjà faites, quand bien même ils les lui voudraient communiquer, ce que ceux qui les nomment des secrets ne feraient jamais, elles sont, pour la plupart, composées de tant de circonstances, ou d'ingrédients superflus, qu'il lui serait très malaisé d'en déchiffrer la vérité ; outre qu'il les trouverait presque toutes si mal expliquées, ou même si fausses, à cause que ceux qui les ont faites se sont efforcés de les faire paraître conformes à leurs principes, que, s'il y en avait quelques-unes qui lui servissent, elles ne pourraient derechef valoir le temps qu'il lui faudrait employer à les choisir. De façon que, s'il y avait au monde quelqu'un, qu'on sût assurément être capable de trouver les plus grandes choses et les plus utiles au public qui puissent être, et que, pour cette cause, les autres hommes s'efforçassent, par tous moyens, de l'aider à

وبين أيّ رجل يزعجه، ويضيع عليه وقته[1]. ولكني وإن كان حسن ظني بنفسي لم يبلغ بي درجة تجعلني أريد أن أعد الناس بالخوارق أو أن أعلل النفس بأفكار باطلة توهمني أن الدولة[2] يجب أن تهتم كثيرًا بخططي، إلاّ أن نفسي كذلك ليست من الضعة بحيث أرضى بأن أقبل من أي انسان آخر مهما تكن منزلته أيَّ جميل يمكن أن يُظَنّ أنني لا أستحقه.

كل هذه الاعتبارات مجتمعة حملتني منذ ثلاث سنين[3] على الامتناع عن نشر الكتاب الذي كان بين يدي، وجعلتني أعزم على أن لا أطالع الناس طول حياتي بغيره، مما قد يكون عامًّا جدًّا، أو يمكن أن تفهم منه أصول طبيعياتي[4]. ولكن عرض لي منذ ذلك الحين من جديد سببان آخران اضطرّاني إلى أن أورد هنا بعض المحاولات الخاصة، وأن أقدّم إلى الجمهور بيانًا عن أعمالي ومقاصدي. أما السبب الأول، فهو أني إذا قصرت عن ذلك، ظن الكثيرون، ممن اطّلعوا على نيّتي السابقة في طبع بعض المقالات، أن الأسباب التي تبعثني على العدول عن نشرها قد تنسب إلى عجز فيَّ أكثر مما هي في الواقع. لأنني، وإن كنت لا أحب المجد إلى درجة الإفراط، بل وإن كنت، إذا صحّ القول، أكرهه، لاعتقادي أنه مضادّ للراحة التي أقدّرها فوق كل شيء، إلاّ أنني لم أحاول قط مع ذلك أن استر أعمالي كما تُستر الجرائم، ولا أن اتخذ كثيرًا من الحيطة للبقاء مجهولًا. ذلك لأني كنت أعتقد أن هذا الأمر قد يسيء إلى نفسي، كما

1 وبعبارة أخرى أن ديكارت لا يؤمل المعونة إلاّ من الدولة، فهي وحدها قادرة على الانفاق على تجاربه، وهي وحدها قادرة على حمايته.

2 في الأصل: le public، ويعني به الدولة.

3 أي في نهاية تشرين الثاني عام 1634.

4 إن هذا الكلام لا يدل على أن ديكارت قد أعرض نهائيًّا عن نشر كتاب العالم، بل يدل على أنه مستعد لنشره عند تغير الظروف.

venir à bout de ses desseins, je ne vois pas qu'ils pussent autre chose pour lui, sinon fournir aux frais des expériences dont il aurait besoin et, du reste, empêcher que son loisir ne lui fût ôté par l'importunité de personne. Mais, outre que je ne présume pas tant de moi-même, que de vouloir rien promettre d'extraordinaire, ni ne me repais point de pensées si vaines, que de m'imaginer que le public se doive beaucoup intéresser en mes desseins, je n'ai pas aussi l'âme si basse, que je voulusse accepter de qui que ce fût aucune faveur, qu'on pût croire que je n'auras pas méritée.

Toutes ces considérations jointes ensemble furent cause, il y a trois ans, que je ne voulus point divulguer le traité que j'avais entre les mains, et même que je fus en résolution de n'en faire voir aucun autre, pendant ma vie, qui fût si général, ni duquel on pût entendre les fondements de ma physique. Mais ils y a eu depuis derechef deux autres raisons, qui m'ont obligé à mettre ici quelques essais particuliers, et à rendre au public quelque compte de mes actions et de mes desseins. La première est que, si j'y manquais, plusieurs, qui ont su l'intention que j'avais eue ci-devant de faire imprimer quelques écrits, pourraient s'imaginer que les causes pour lesquelles je m'en abstiens seraient plus à mon désavantage qu'elles ne sont. Car, bien que je n'aime pas la gloire par excès, ou même, si je l'ose dire, que je la haïsse, en tant que je la juge contraire au repos, lequel j'estime sur toutes choses, toutefois aussi je n'ai jamais tâché de cacher mes actions comme des crimes ni n'ai usé de beaucoup de précautions pour être inconnu ; tant à cause que j'eusse cru me faire tort, qu'à cause que cela m'aurait donné quelque espèce d'inquiétude, qui eût derechef été contraire au parfait repos d'esprit que je cherche. Et

أنه قد يسبب لي قلقًا مضادًا أيضًا لراحة الفكر التامة التي أنشدها. ومع أني كنت لا أبالي بأن أعيش مشهورًا، أو غير مشهور، فإنني لم أستطع أن أمنع نفسي من الحصول على بعض ضروب الشهرة. لذلك رأيت أنه يجب عليَّ أن أعمل ما في وسعي لأجنّب نفسي على الأقل الشهرة السيئة.

والسبب الثاني، الذي حملني على كتابة هذا المقال، هو أنني رأيت خطتي في التعلم تزداد تأخرًا كل يوم، لحاجتي إلى تجارب كثيرة يتعذّر عليّ القيام بها وحدي دون معونة الآخرين. ومع أني لست مغترًّا بنفسي إلى حدّ يجعلني آمل أن تأخذ الدولة على عاتقها بنصيب وافر من مشاغلي، فإنني على كل حال لا أريد أيضًا أن أقصّر في حق نفسي، ولا أن أعطي الذين سيعيشون بعدي سببًا للَوْمي يومًا على أنه كان في وسعي أن أترك لهم أشياء كثيرة أحسن مما فعلت، لو أني لم أهمل أبدًا إفهامهم ما الذي يستطيعون أن يعينوني به على تحقيق خطتي.

وقد رأيت أنه كان من السهل عليَّ أن أختار بعض المواد التي، وإن لم تكن موضوع مجادلات كثيرة، ولا باعثة على التصريح بأكثر مما أريد من مبادئي، إلاّ أنها تبيّن بوضوح كافٍ ما أقدر عليه، أو لا أقدر عليه في العلوم. ولا أستطيع أن أقول أنّي نجحت في ذلك، كما أني أريد أن استبق أحكام أيّ شخص عندما اتحدث أنا نفسي عما كتبت، ولن يسرّني أن ينتقدها الناس، وفي سبيل إتاحة أكبر الفرص لهذا النقد، أبتهل إلى جميع الذين لهم عليها اعتراض أن يكلفوا أنفسهم عناء إرساله إلى ورّاقي، حتى إذا ما أعلمني بذلك، حاولت أن أقرن الاعتراض بردّي في الوقت نفسه عليه، فيطلع القرّاء بهذه الواسطة على هذا وذاك معًا، ويتيسر لهم الحكم بما هو أحق. على أني لا أعدُ أبدًا بأن أكتب ردودًا مطولة عليها، بل أعدُ بأن أعترف صراحة بأخطائي إذا كنت أعرفها؛ أما إذا كنت لا أستطيع أن أرى الخطأ، فإني أعد بأن أقول في بساطة ما أعتقد أنه مطلوب للدفاع عن الأشياء التي كتبتها،

pour ce que m'étant toujours ainsi tenu indifférent entre le soin d'être connu ou ne l'être pas, je n'ai pu empêcher que je n'acquisse quelque sorte de réputation, j'ai pensé que je devais faire mon mieux pour m'exempter au moins de l'avoir mauvaise. L'autre raison, qui m'a obligé à écrire ceci, est que, voyant tous les jours de plus en plus le retardement que souffre le dessein que j'ai de m'instruire, à cause d'une infinité d'expériences dont j'ai besoin, et qu'il est impossible que je fasse sans l'aide d'autrui, bien que je ne me flatte pas tant que d'espérer que le public prenne grande part en mes intérêts, toutefois je ne veux pas aussi me défaillir tant à moi-même, que de donner sujet à ceux qui me survivront de me reprocher quelque jour, que j'eusse pu leur laisser plusieurs choses beaucoup meilleures que je n'aurai fait, si je n'eusse point trop négligé de leur faire entendre en quoi ils pouvaient contribuer à mes desseins.

Et j'ai pensé qu'il m'était aisé de choisir quelques matières qui, sans être sujettes à beaucoup de controverses, ni m'obliger à déclarer davantage de mes principes que je ne désire, ne laisseraient pas de faire voir assez clairement ce que je puis, ou ne puis pas, dans les sciences. En quoi je ne saurais dire si j'ai réussi, et je ne veux point prévenir les jugements de personne, en parlant moi-même de mes écrits ; mais je serai bien aise qu'on les examine, et afin qu'on en ait d'autant plus d'occasion, je supplie tous ceux qui auront quelques objections à y faire de prendre la peine de les envoyer à mon libraire, par lequel en étant averti, je tâcherai d'y joindre ma réponse en même temps ; et par ce moyen les lecteurs, voyant ensemble l'un et l'autre, jugeront d'autant plus aisément de la vérité. Car je ne promets pas d'y faire jamais de longues réponses,

من دون أن أضيف عليها تفسيرًا لأية مسألة جديدة، وذلك حتى لا أنتقل إلى غير نهاية من مسألة إلى أخرى.

وإذا كانت بعض هذه المسائل التي تكلمت عليها في أول علم انكسار الأشعة، وعلم الأنواء[1] لا تروق بعضهم في بادئ الأمر، لإطلاقي عليها اسم الفروض، ولما يبدو مني من العزوف عن إثباتها، فما على القارئ إلاّ أن يصبر على قراءتها كلّها بانتباه، ولي ملء الأمل أنه سيكون راضيًا عنها. لأنه يبدو لي أن الحجج تتعاقب فيها تعاقبًا يُبرهن فيه على الأواخر بالأوائل التي هي عللها، وعلى الأوائل بالأواخر التي هي معلولاتها، ولا ينبغي أن يُتوهّم أنني أقع هنا في الخطأ الذي يسميه المناطقة دورًا، لأن التجربة، ما دامت تجعل أكثر هذه المعلولات لا تصلح لإثبات وجودها بقدر ما تصلح لتفسيرها، بل الأمر على عكس ذلك، أي أن العلل إنما تثبتها المعلولات. وأنا لم أطلق عليها اسم الفروض إلاّ ليكون معلومًا أني أعتقد أن في استطاعتي استنتاجها من هذه الحقائق الأولى التي أوضحتها من قبل. ولكنني أردت عن قصد أن لا أفعل هذا الأمر، وغايتي من ذلك أن أمنع بعض العقول، التي يقال لها عن الموضوع كلمتان أو ثلاث، فتتوهم أنها تعلم في يوم واحد ما أنفق غيرها عشرين سنة في التفكير فيه، والتي، لما كانت أكثر نفاذًا ونشاطًا، كانت أكثر تعرّضًا للخطأ، وأقلّ قدرة على معرفة الحقيقة، وأن أحول بين أصحاب هذه العقول، وبين انتهاز الفرصة بذلك لبناء فلسفة باطلةٍ على المبادئ التي يظنون أنها مبادئي، فينسب الناس إليَّ ما فيها من خطأ. أما الآراء الصادرة بأجمعها عني، فإني لا أجد في جدتها حجة يعتذر بها[2]، ما دمت على يقين أن المرء إذا لاحظ أسبابها جيدًا، وجد فيها من البساطة والموافقة للعرف العام ما يجعلها تظهر أقلّ بُعدًا عن

---

1 من هذه المسائل البحث عن صور الجزيئات التي يتألف منها الماء، والأرض، والهواء، والضوء.

2 ذلك لأن النظريات لا تتميّز بجدتها إلاّ إذا استبدلت بالأخطاء القديمة حقائق ثابتة.

mais seulement d'avouer mes fautes fort franchement, si je les connais, ou bien, si je ne les puis apercevoir, de dire simplement ce que je croirai être requis pour la défense des choses que j'ai écrites, sans y ajouter l'explication d'aucune nouvelle matière, afin de ne me pas engager sans fin de l'une en l'autre.

Que si quelques-unes de celles dont j'ai parle, au commencement de la *Dioptrique* et des *Météores*, choquent d'abord, à cause que je les nomme des suppositions, et que je ne semble pas avoir envie de les prouver, qu'on ait la patience de lire le tout avec attention, et j'espère qu'on s'en trouvera satisfait. Car il me semble que les raisons s'y entre–suivent en telle sorte que, comme les dernières sont démontrées par les premières, qui sont leurs causes, ces premières le sont réciproquement par les dernières, qui sont leurs effets. Et on ne doit pas imaginer que je commette en ceci la faute que les logiciens nomment un cercle ; car l'expérience rendant la plupart de ces effets très certains, les causes dont je les déduis ne servent pas tant à les prouver qu'à les expliquer ; mais, tout au contraire, ce sont elles qui sont prouvées par eux. Et je ne les ai nommées des suppositions, qu'afin qu'on sache que je pense les pouvoir déduire de ces premières vérités que j'ai ci-dessus expliquées, mais que j'ai voulu expressément ne le pas faire, pour empêcher que certains esprits, qui s'imaginent qu'ils savent en un jour tout ce qu'un autre a pensé en vingt années, sitôt qu'il leur en a seulement dit deux ou trois mots, et qui sont d'autant plus sujets à faillir, et moins capables de la vérité, qu'ils sont plus pénétrants et plus vifs, ne puissent de là prendre occasion de bâtir quelque philosophie extravagante sur ce qu'ils croiront être mes principes, et qu'on m'en attribue la faute. Car, pour les opinions,

المألوف، وأقلَّ غرابة من أي رأي آخر يتخذه المرء في الموضوعات نفسها. وأنا لا أتمدح أبدًا بأنني كنت أول مخترع لها، ولكني أفتخر بأنني لم آخذ بها قطّ لأن غيري قال بها، ولا لأنه لم يقل بها، وإنما قبلتها لأن العقل وحده قد أقنعني بها.

وإذا كان الصُنّاع لا يستطيعون أن يحقّقوا عاجلًا ذلك الاختراع الذي شرحته في علم انكسار الأشعة[1]، فإنّي لا أرى أنه يمكن القول من أجل ذلك أن هذا الاختراع فاسد. لأنه ما دام الحذق والاعتياد لازمين لصنع الآلات التي وَصَفتُ، ولتسويتها، من دون أن ينقصها أي شرط جزئي، فإن تعجبي من نجاح الصنّاع فيها، لأول وهلة، لن يكون أقلَّ من اعجابي بقدرة أحد الناس على تعلم العزف بالمزهر ببراعة، في يوم واحد، لمجرد اعطائه سُلّمًا موسيقيًّا جيدًا. وإذا كنت أكتب بالفرنسية، التي هي لغة بلادي، بدلًا من اللاتينية، التي هي لغة أساتذتي، فالسبب في ذلك إني أؤمل أن الذين لا يستعملون إلاّ عقلهم الطبيعي المحض، سيكون حكمهم على آرائي أصدق من حكم الذين لا يؤمنون إلاّ بالكتب القديمة. أما الذين يجمعون بين العقل والعلم، وهم الذين أتمنى أن يكونوا وحدهم قضاتي، فإني متيقن أنهم لن يكونوا من التعصب للغة اللاتينية بحيث يرفضون تفهّم حججي، لأنني أشرحها بلغة عامية.

ومع ذلك فإني لا أريد أن أتكلم هنا بكلام مفصل عن التقدم العلمي الذي اؤمل إحرازه في مستقبل الأيام، ولا أن آخذ على نفسي أمام الناس عهدًا لا أكون على ثقة من الوفاء به. ولكنني أقتصر على القول أنني عازم على أن لا أنفق ما تبقّى من أيام حياتي إلاّ في السعي لاكتساب معرفة بالطبيعة تصلح لأن يستخرج منها، لعلم الطب، قواعد أوثق من التي حصل

1 هذا الاختراع الذي يشير إليه هنا هو الطريقة الجديدة التي ابتكرها لنحت عدسات ذات سطح هذلولي الشكل.

qui sont toutes miennes, je ne les excuse point comme nouvelles, d'autant que, si on en considère bien les raisons, je m'assure qu'on les trouvera si simples et si conformes au sens commun, qu'elles sembleront moins extraordinaires, et moins étranges, qu'aucunes autres qu'on puisse avoir sur mêmes sujets. Et je ne me vante point aussi d'être le premier inventeur d'aucunes, mais bien, que je ne les ai jamais reçues, ni pour ce qu'elles avaient été dites par d'autres, ni pour ce qu'elles ne l'avaient point été, mais seulement pour ce que la raison me les a persuadées.

Que si les artisans ne peuvent sitôt exécuter l'invention qui est expliquée en la *Dioptrique*, je ne crois pas qu'on puisse dire, pour cela, qu'elle soit mauvaise : car, d'autant qu'il faut de l'adresse et de l'habitude, pour faire et pour ajuster les machines que j'ai décrites, sans qu'il y manque aucune circonstance, je ne m'étonnerais pas moins, s'ils rencontraient du premier coup, que si quelqu'un pouvait apprendre, en un jour, à jouer du luth excellemment, par cela seul qu'on lui aurait donné de la tablature qui serait bonne. Et si j'écris en français, qui est la langue de mon pays, plutôt qu'en latin, qui est celle de mes précepteurs, c'est à cause que j'espère que ceux qui ne se servent que de leur raison naturelle toute pure jugeront mieux de mes opinions que ceux qui ne croient qu'aux livres anciens. Et pour ceux qui joignent le bon sens avec l'étude, lesquels seuls je souhaite pour mes juges, ils ne seront point, je m'assure, si partiaux pour le latin, qu'ils refusent d'entendre mes raisons, pour ce que je les explique en langue vulgaire.

Au reste, je ne veux point parler ici, en particulier, des progrès que j'ai espérance de faire à l'avenir dans les sciences, ni m'engager envers le public d'aucune promesse que je sois

الناس عليها حتى الآن. وأن ميلي ليبعدني كل البُعد عن أي مطلب من المطالب الأخرى، وعلى الأخص تلك التي لا يمكن ان تكون مفيدة لبعض الناس إلاّ إذا أضرّت ببعضهم الآخر[1]. وإذا اضطرتني بعض الظروف إلى مزاولتها، فإنني لا أعتقد أبدًا أنني قادر على النجاح فيها. وإني لأعلن ذلك هنا، وأنا أعلم حقَّ العلم، أن هذا الاعلان ليس من شأنه أن يجعلني عظيمًا في العالم، ولكن ليست لي في هذه العظمة أيضًا أيَّة رغبة. وسأكون دائمًا معترفًا بالجميل للذين يعينونني على الاستمتاع بأوقات فراغي، دون عائق، أكثر من اعترافي بجميل الذين يعرضون عليَّ أشرف مناصب الأرض.

1 يشير هنا إلى الأعمال العسكرية. وفي كلامه هذا تلميح قريب من التصريح بأنه لن يلبي رغبة الدولة، إذا هي طلبت منه استخدام علمه لغاية حربية. (راجع تعليق جيلسون على مقالة الطريقة ص 128 من طبعة (I. Vrin)، وترجمة مقالة الطريقة للخضيري: مقال عن المنهج، ص 119.

pas assuré d'accomplir ; mais je dirai seulement que j'ai résolu de n'employer le temps qui me reste à vivre à autre chose qu'à tâcher d'acquérir quelque connaissance de la nature, qui soit telle qu'on en puisse tirer des règles pour la médecine, plus assurées que celles qu'on a eues jusqu'à présent ; et que mon inclination m'éloigne si fort de toute sorte d'autres desseins, principalement de ceux qui ne sauraient être utiles aux autres, que, si quelques occasions me contraignaient de m'y employer, je ne crois point que je fusse capable d'y réussir. De quoi je fais ici une déclaration, que je sais bien ne pouvoir servir à me rendre considérable dans le monde, mais aussi n'ai-je aucunement envie de l'être ; et je me tiendrai toujours plus obligé à ceux pour la faveur desquels je jouirai sans empêchement de moins loisir, que je ne ferais à ceux qui m'offriraient les plus honorables emplois de la terre.

En conformité des statuts de la Commission,
cette traduction du *Discours de la Méthode*
de Descartes a été revue

par

M. ANIS FREIHA
M. FOUAD E. BOUSTANY

COMMISSION LIBANAISE
POUR LA TRADUCTION DES CHEFS-D'ŒUVRE
BEYROUTH

Librairie Orientale sal
Jisr El Wati, Sin El Fil
B. P. 55206 Beyrouth, Liban
Tel: (01) 485793 - Fax: (01) 485796
E-mail: libor@cyberia.net.lb
www.librairieorientale.com.lb

3ème édition 2016
ISBN 978-9953-17-087-9

COLLECTION D'ŒUVRES REPRÉSENTATIVES

RENÉ DESCARTES

DISCOURS DE LA MÉTHODE

POUR BIEN CONDUIRE SA RAISON ET CHERCHER LA VÉRITÉ DANS LES SCIENCES

1637

Traduction arabe avec introduction et notes par

JAMIL SALIBA





RENÉ DESCARTES

DISCOURS DE LA MÉTHODE

POUR BIEN CONDUIRE SA RAISON ET CHERCHER LA VÉRITÉ DANS LES SCIENCES

COLLECTION D'ŒUVRES REPRÉSENTATIVES

RENÉ DESCARTES

DISCOURS DE LA MÉTHODE

POUR BIEN CONDUIRE SA RAISON ET CHERCHER LA VÉRITÉ DANS LES SCIENCES

1637

Traduction arabe avec introduction et notes par

JAMIL SALIBA

COMMISSION LIBANAISE
POUR LA TRADUCTION DES CHEFS-D'ŒUVRE
BEYROUTH



